فنون البلاغة العربية

تأليـف

د/ عبد العليـم بوفـاتح
أستاذ النحو والبلاغة والعروض
جامعة الأغواط - الجزائر

تقديـم

الأستاذ الدكتور محمد العيد رتيمة
أستاذ فقه اللغة وعلوم العربية
كلية الآداب واللغات - جامعة الجزائر

مطبعة ابن سالـــم - الأغواط - الجزائر
الطبعة الأولى
(١٤٣٠ هــ / ٢٠٠٩ م)

فنون البلاغة العربية

تأليف: د/ عبد العليم بوفاتح

طبع بمطبعة ابن سالـــم - الأغواط - الجزائر

الطبعة الأولى

(١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م)

رقم الإيداع القانوني:
2009 831
الترقيم الدولي (ردمد):
978-9961-9835-1-5
الناشر: مكتبة اقــرأ لأحمد رويغي

حي المقدر - الأغواط - الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

" قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ

الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ

وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ

وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي

إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. "

صدق الله العظيم

[الأحقاف/ ١٥]

إهداء

إلى الثلاثة المرحومين : والديّ وأخي

تغمدهم الله برحماته وأدخلهم فسيح جناته.

إلى جميع الأهل والأبناء والإخوة والأصدقاء.

إلى كل باحث جادّ يستجلي مكنونات الضاد

إلى كل مشايخي وأساتذتي مع خالص الودّ وصادق العرفان

إلى كل تلامذتي وطلبتي، مع الدعاء لهم بالنجاح والتوفيق في كل آن.

تقديم و تقريظ

بقلم الأستاذ الدكتور: محمد العيد رتيمة

أستاذ فقه اللغة وعلوم العربية بكلية الآداب واللغات – جامعة الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

العرب الأدب، والأدب العرب.. لا فرق..

ليس من المصادفة في شيء أن تتطابق الكلمتان وزنا ولا تختلفان حرفا إلاّ في العين الناصعة في العرب، والدال الرادعة في الأدب.

ليس من المصادفة أيضاً أن يرتبط العرب بالأدب عبر العصور، وأن يكون ديوانهم الذي لا ديوان لهم سواه، يتوارثونه كابراً عن كابر.

ليس من المصادفة كذلك أن يترجم العرب في عنفوان قوهم، وأوج حضارهم كل العلوم والمعارف من الأمم الأخرى عدا الأدب لإيماهم أنه ما من أمّة بلغت فيه ما بلغوا، وأحسنت كما أحسنوا، فكانوا – بذلك ولذلك – أرباب فصاحة وبلاغة وبيان.. بلاغة ما بعدها بلاغة! وبيان فاق السحر تأثيراً، أجراه الله على ألسنتهم التي جبلت على الفصاحة.. بلاغة تدركها الفطر السليمة قبل أن يقعّد لها المقعّدون. ولذلك كان الذوق معياراً والحسّ مقياساً؛ وكان المبدعون من الشعراء أكثر إحساساً وأسبق إلى مواطن الجمال الفني تذوّقاً وإبداعاً؛ كما كانوا أول الدالين عليها، الهادين إليها.. وليس من المصادفة ولا الغرابة أن يكون أول المقعّدين لعلم البديع مبدعاً شاعراً، وهو عبد الله بن المعتزّ الذي أخذت على يده مسائل هذا الفن تتبلور وتستقل ألفاظا ومعاني؛ وتلاحقت بها بقية الفنون البلاغية- معاني وبيانا- في التميّز والاستقلال، فوضع في القرن الخامس الإمام **عبد القاهر الجرجاني** نظرية علم المعاني في كتابه"دلائل الإعجاز " ونظرية علم البيان في كتابه "أسرار البلاغة"على غرار ما وضع عبد الله **بن المعتزّ** قبله أساس علم البديع.

والعجيب أنه لم يحدث بعد الواضعين الأوائل تغيير يُذْكَر في هذه الفنون البلاغية مما جعلها تتحول إلى قواعد وقوانين جامدة لافتتان البلاغيين بها وترديدهم لها ووقوفهم عندها لا يتجاوزونها إلى عمق أو ابتكار، كأنما قد انتهى البحث في البلاغة بالمؤسسين لانحصار جهود من جاء بعدهم في جمع قواعد فنون البلاغة التي وضعها المؤسسون، وفي ترتيب أبوابها، واختصارها اختصارا يصل أحيانا إلى الغموض والتعقيد، مما يحتاج إلى شرح يوضح غامضه ويذلل صعابه، فتراوحت بذلك المؤلفات البلاغية بين أقصى ما يمكن من اختصارات، وأقصى ما يمكن من شروح، وذلك ما جعل الإلمام بفنون البلاغة العربية أمراً عسيراً.

لذلك.. فقد انتدب الأستاذ **الباحث عبد العليم بوفاتح** نفسه حين أوكل إليه قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الأغواط وحدة البلاغة العربية أن يشرح المختصر المخلّ، ويختصر الشرح الواسع المملّ من خلال هذا الكتاب: " **فنون البلاغة العربية** " ليكون عوناً للطلاب على إدراك مواطن الجمال الفنّي وتذوّق عيون الأدب. وليس ذلك منه بغريب، ولا عليه بعزيز، **فقد أدرك المؤلّف تلك المواطن إبداعاً قبل أن يدركها تأليفاً وبحثاً وابتداعاً، شأن أسلافه من العرب ذوي الفطرة السليمة، لأنه شاعر قليل النظير**. فقد كنت أقول عنه، لـمّا عرفته طالباً :" إنه يحسن الشعر ". ولّما أشرفت عليه قلت: " إنه يحسن البحث والتنقيب أيضاً." وها أنا أتصفح هذا المؤلّف له، ووجدتني بعد قراءته التي عكست ثقافة واسعة أحاطت بألوان هذه الفنون البلاغية، أردّد قولَ **أبي العيناء** حين سئل عن **الجاحظ**: " ليت شعري، أيّ شيء كان **الجاحظ** يحسن؟ " فردّ ببساطة قائلاً: " ليت شعري، أيّ شيء كان **الجاحظ** لا يحسن؟ " لذلك ، فإنّي أبارك للمؤلّف مؤلّفه، وأدعو له بالتوفيق، ولقارئه بالنفع ولهما بحسن الأجر والثواب.

أ.د/ محمد العيد رتيمة

كلية الآداب واللغات - جامعة الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلّف

الحمد لله الذي فضّل العربية واختارها لكتابه وقربها من قدْسه وجنابه
والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وأصحابه. **وبعــد**

فهذا كتاب **فنون البلاغة العربية** أردناه أن يكون خطوة إلى الأمام على درب الفنّ البلاغي الذي تفردتْ به العرب بما امتاز به من فصاحة اللسان وروعة البيان. وقد سعينا فيه إلى الوقوف على أسرار هذا الفنّ من خلال مباحثه المتعددة وظواهرها المختلفة.

إنّ الأجدر بالبلاغة العربية أن تُنسَب إلى الفنّ لا إلى العلْم لبيان ما فيها من الأسرار، واستكشاف ما بها من خُـبَال اللطائف وبديع الأفكار. ذلك أنّ سبك التراكيب وحبْك العبارات إنما مبدؤه الاختيار الذي هم عملية فكرية تتمّ فيها صياغة المعاني المقصودة التي يُراد تبليغها، والأغراض المنشودة التي يراد تحقيقها صياغة ذهنية قبل أن تكون صياغة لفظية..

تلك هي سمة البلاغة ؛ إنها بلاغة الاختيار والتنوّع التي لا تعيقها القيود، ولا تقف عند الحدود. لأنّ مقاصد الكلام وأغراضه كثيرة متنوعة تستعصي على الإحاطة والإحصاء، ومجال الذهن للتأمّل فيها واسع فسيح، والعربية بطبيعتها مرنة مطواعة تستجيب لكل أشكال التعبير والإفصاح عن مكنون التفكير. وهذا ما يستدعي إنعام النظر وإعمال الفكر وتحكيم الذوق في كل أثر، لقراءة ما وراء أنماط التراكيب وأشكال الصور وجماليات الصياغة من دلالات العبارة وإيحاءات المعنى ومحاسن الإشارة.

الجديـــد في هذا الكتـــاب: يتمثل جديد هذا الكتاب فيما يأتي:

أولاً: إطلاق اسم (الفنون) على ما دأبتْ كتب البلاغة على تسميته بـــ(العلوم) وذلك بغية التـــنبيه على القيمة الفنية للبلاغة العربية. وعلى هذا الأساس جاء اختيارنا لعنوان الكتاب.

ثانياً: العناية في دراسة هذه الفنون وتحليلها بالمعاني والمقاصد مع التركيز على الطابع الفنّي الجمالي للبلاغة العربية. ذلك أنّنا نعتقد أنّ سمة الفنّ ينبغي أن تطبع البلاغة العربية- حتى وإنْ كانت في إطار منهج علميّ- سواء أتعلّق الأمر بمباحث المعاني أم البيان أم البديع.

ولّما كان اهتمامنا منصبّاً على الجانب الفنّي لم نأبه كثيراً للتعريفات والتحديدات والتقسيمات التي عُرفتْ في الدرس البلاغي إلاّ في أطرها النظرية اللازمة لغرض التوضيح ، أمّا في مجال التطبيق فكانت عنايتنا موجهة إلى النظر في المعاني والأغراض والمقاصد المستفادة من مختلف التراكيب والأساليب، وفنون التصوير وطُرق تحسين الكلام على تعددها وتنوعها حتى لا ينشغل الدارس عن الاستمتاع بجماليات الأثر البلاغي وإدراك المغزى من تنوعات الكلام والوقوف على الأسرار البلاغية للنصوص وما لها من قيم دلالية ومزايا فنية.

ثالثاً: اقتراح منهج مباين بعض الشيء لما دأبت عليه كتب البلاغة في تقسيم مباحث المعاني ، إذ جعلناها في تسعة مباحث بدلاً من الثمانية المعهودة في كتب البلاغة منذ عهد **السكاكي**. فقمنا بفصل الخبر عن الإنشاء وجعل كل منهما مستقلاً لإعطائه حقّه من البحث والدراسة. وأحدثنا بعض التغيير في تصنيف هذه

المباحث وترتيبها ، سعياً منّا إلى جمع شملها ، وتسهيل تناولها بغية تحقيق الفائدة المتوخاة من دراستها.

كما جعلنا فنون البديع ثلاثة أقسام: قسماً للفنون اللفظية ؛ وآخر للفنون المعنوية ؛ وقسماً ثالثاً سميناه فنون تدبيج الكلام وتكلمنا فيه عن بعض طُرُق تحسين الكلام وتزيينه من جهة اللفظ والمعنى ، وذلك من خلال مبحثي التضمين والاقتباس. وقد لاحظنا اختلاف البلاغيين في تصنيفهما، كما أنّ كتب البلاغة عموماً لم توفّهما حقهما من الدراسة.

رابعاً: العمل - بقدر الإمكان - على تجنب ما يوجد من تكرار في هذه المباحث، إذْ نراها تدور حول المسند والمسند إليه. فمباحث التقديم والتأخير، والتنكير والتعريف، والحذف والذّكْر، نجدها في باب المسند إليه ؛ ثم يُعاد ذكرها في باب المسند. فإذا ما أردنا أن نحيط بكل مبحث منها وجب علينا أن تستجمع ما قيل هنا وما قيل هناك. وفي ذلك ما لا يخفى من العناء والمشقة الناتجة من تفريق هذه الموضوعات وتشتيتها.

ولذلك فإنّ المتـــتبع لكتابنا هذا سيجدها مجموعة في أبوابها، إذْ تكلمنا مثلاً عن مبحث التقديم وأسراره ومزاياه في باب التقديم والتأخير، وجمعنا فيه تقديم المسند والمسند إليه، وما يتصل بهما. وكذلك فعلنا في بقية المباحث كالتعريف والتنكير، والحذف والذّكْر.. وغيرها. وهكذا فإن القارئ سيجد في هذا الكتاب كلّ مبحث منها قد اجتمع الكلام عنه في بابه.

ولكن لا بدّ من الإشارة إلى أنه لا مناص من بعض التكرار المترتب على طبيعة موضوعات المعاني لما فيها من تشابك وتداخل لا سبيل إلى تجنّبه. ذلك أنّ

الإسناد - من خلال النظر في ركنيه - متصل بالمباحث الأخرى التي ذكرناها آنفاً، بحيث لا يمكن فصله عنها. فإذا ما تجنبنا تكرار هذه الموضوعات مع كل من المسند والمسند إليه - كما هو وارد في التصنيف المعهود الذي يتناول أحوالهما - وقعنا في تكرار آخر للمسند والمسند إليه على مستوى هذه الموضوعات ؛ غير أنّ هذا المنهج الذي سلكناه بدا لنا أشمل للدراسة وأجمع، وأيسر للقارئ وأنفع.

هذا، ولقد توخّينا أن يكون عملنا وفق ما أردناه له من مسار فنّي ذوقيّ على درب بلاغة العرب لاستكشاف ما فيها من الأسرار واللطائف والقيم الجمالية، وذلك ما سعينا إلى تجليته من خلال نماذجَ من القرآن الحكيم وكلام العرب ولا سيما الشعر الذي هو ديوانهم.

وقد جاء هذا الكتاب مشتملاً على مدخل تمهيدي وثلاثة أبواب يتفرع كلّ منها إلى عدة مباحث..

المدخل التمهيدي: تناولنا فيه بعض المفاهيم والمصطلحات المتداولة في الدرس البلاغي، قصْد توضيحها وبيان مذاهب البلاغيين فيها، مع ما أوردناه عليها من إيضاحات وملاحظات وتعقيبات، وما أبديناه من آراء في هذا الشأن.

الباب الأول: تناولنا فيه فنون المعاني وقسمناها إلى تسعة مباحث هي: الإسناد وما يتصل به، والخبر، والإنشاء، والذّكْر والحذف، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والقَصْر، والفصل والوصل، ثم الإيجاز والإطناب والمساواة. وتوسعنا في كل مبحث من هذه المباحث وقد شفعناه بنماذج تطبيقية من القرآن والشعر.

الباب الثاني: خصصناه لفنون البيان، وهي: التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية. فعملنا على تقريب هذه الصور البيانية إلى الفهم وتسهيل عرضها، وتوضيح مصطلحاتها، وشرح غامضها، ثم بيان أسرارها البلاغية.

الباب الثالث: تكلمنا فيه عن فنون البديع بدءاً بالفنون المعنوية،كالطباق والمقابلة والتورية وأسلوب الحكيم.. ثم الفنون اللفظية، كالجناس والسجع. ثم فنون التدبيج التي تشمل اللفظ والمعنى، وقد طرقناها من خلال مبحثي التضمين والاقتباس، مع بيان حقيقة هذيْن الفنّيْن وأثرهما في الكلام.

ولقد سعيْنا إلى الاهتمام بالطابع الفنّي للبلاغة العربية، لنكشف عن الأسرار الكامنة وراء مختلف الأنماط التعبيرية والأشكال البلاغية، حتى لا نحرم الدارس من الاستمتاع بفنون البلاغة على طبيعتها، بما لها من أبعاد جماليّة لا يصل إلى كنهها إلاّ من أوتي سلامةً في الذوق وسعةً في الخيال وبُعداً في النظر، بحيث يستطيع أن ينفذ ببصيرته إلى ما وراء التنوعات التركيبة والأنماط الأسلوبية من التصريح بالعبارات أو الإيحاء بالرموز والإشارات..

ولقد قمنا في كتابنا هذا ببعض الأمور التنظيمية تسهيلاً للبحث وتيسيراً للفهم، منها أنّنا أوردنا أسماء الأعلام بلون بارز من الخط ليسهل الاهتداء إليها ؛ ومنها أنّنا شفّعنا موضوعات البحث ببعض الملاحظات والتنبيهات قصد إزالة ما قد يكتنفها من اللّبْس ؛ كما عملنا على توضيح كثير من المسائل والقضايا ؛ وتصحيح بعض المفاهيم ؛ وحرصنا على إجراء بعض المقارنات والموازنات قصْد الزيادة في الإيضاح والإفادة.

هذا، ونرجو أن يكون عملنا في هذا الكتاب فاتحة لنشاط جديد تستعيد البلاغة العربية من خلاله حيويتها التواصلية ونضارتها الفنّية ومزاياها الذوقية التي فقدتها بسبب ما فُرِضَ عليها من القيود الفلسفية والحدود المنطقية التي أثقلت كاهلها وضيّقتْ مجالها، وحادتْ بها - أحياناً- عن طبيعتها الفنّية المستمدّة من روح العربية وجمالها وأصالتها وفضاءاتها التعبيرية الواسعة.

وفي الختام، نحمد الله ونشكره سبحانه إذ أنعم علينا ووفقنا إلى إنجاز هذا العمل. ونسأله أن يتقبّله منّا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به قارئه ويوفقنا إلى غيره.. والحمد لله أولاً و آخراً.

المؤلف

د. عبد العليم بوفاتح

مدخل تمهيدي : مفاهيم ومصطلحات بلاغيـة

البلاغـــــة:

البلاغة من البلوغ والوصول والانتهاء إلى الغاية. وهي تبليغ الكلام وإيصاله إلى المخاطب ليفهمه ويتجاوب معه. ويرى البلاغيون أكثرُهم أنّ البلاغة تخص المعنى، وهي على عكس الفصاحة التي تخص اللفظ. وقد قالوا بأنّ ثمّـــة ما يسمّى **ببلاغة الكلام**: وهي أن يكون الكلام حسَناً في معناه. وما يسمى **ببلاغة المتكلم**: وهي أن يكون المتكلم متمكّناً في القول قادراً على التعبير البليغ.. **وليس ثمة ما يسمى ببلاغة الكلمة**، لأن الكلمة وحدها لا تعبّر عن المعنى الحسَن الذي تتحقق به البلاغة. اللهمّ إلاّ إذا أُريد بالكلمة - في هذا السياق- الخُطبة، فإنها حينئذ تكون بمنـــزلة الكلام.. وممّا قالوه في تعريفهم للبلاغة أنها " ملَكة في النفس يقتدر بها صاحبها على تأليف كلام بليغ مطابق لمقتضى الحال، مع فصاحته في أيّ معنى قصده." [1]

وإلى جانب هذا نجد لدى علماء البلاغة إشارات مقتضبـــة يعبّرون فيها عن مفهوم البلاغة، منها ما نراه موجزاً مختصراً ؛ ومنها ما نراه معوزاً مقتصراً على جوانب معينة دون أخرى ؛ ومنها ما نراه شاملاً موسّعاً.

فممّا هو موجز مختصر قولهم:" البلاغة حسن العبارة مع صحة الدلالة. " وقولهم : " القدرة على البيان مع حسْن النظام." وقولهم: " هي

---

[1] السيد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة – دار الفكر – بيروت / طبعة مجددة (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م) ص٣١ وما بعدها .

إبلاغ المتكلّم حاجته بحسْن إفهام السامع." وقولهم " البلاغة هي الفهم والإفهام " فإذا أنعمنا النظر في هذه الأقوال المختصرة تبيّـــن لنا أنها تشمل الألفاظ والتراكيب وما لها من مدلولات، وتراعي جانب المتكلّم والسامع، وكيفية التواصل وشكل الخطاب. وهذه أمور لا بدّ من مراعاتها في البلاغة العربية. وهي كلها متضمَّنة في تلك الأقوال المقتضبة الموجزة.

وممّا هو معوز مقتصر على جانب دون آخر قولهم : " البلاغة الإيجاز " وقولهم " البلاغة هي الجزالة والإطالة " وقولهم " البلاغة هي معرفة الفصل من الوصل " .. فهذه تعريفات قاصرة لا تقدّم مفهوماً متكاملاً للبلاغة ، إذْ تناولتْ جانباً مُعيّناً على أنه هو البلاغة. وهذا غير صحيح من الناحية العلمية لمفهوم البلاغة، إلاّ إذا أخذنا هذه الأقوال على المجاز على اعتبار أنها كنايات يراد بها بيان قيمة بعض الأبواب البلاغية ومدى أهميتها بيـــن بقية الأبواب الأخرى. ومن هذه الأبواب المهمة التي كثيراً ما كنّى عنها البلاغيون باب الإيجاز، والجزالة والإطالة ، والفصل والوصل، وما إلى ذلك من الأقوال الكثيرة التي حفلت بها كتب البلاغة، وتداولها الباحثون، وتناقلها الدارسون، ولكنّ قليلاً منهم وقفوا عندها وقفة بحث وتأمُّل، واستطاعوا أن يوسعوها أو يصححوها أو يضيفوا عليها ما يتممها أو يوضحها ليقدّموا مفهوماً شاملاً موسَّعاً للبلاغة يتناول جميع جوانبها..

وحاول بعض المحدثين أن يجتهد في إيجاد مفهوم أفضل للبلاغة، فعمدوا إلى تغيير مصطلح البلاغة واستبداله بمصطلحات أخرى، كما فعل الأستاذ **أمين الخولي** " الذي أطلق على البلاغة (فن القول) وسمّاه غيره (فن

الكتابة) أو (فن التأليف الأدبي) أو (فن الإنشاء) أو (علم الأساليب) أو (فن الأنواع الأدبي) وحجتهم أنّ مصطلح البلاغة قد رثّ من كثرة ما تداولته الأجيال، وأصبح مقترناً بألوان الأدب القاتمة التي خلّفتها العهود المظلمة.

والحقيقة أننا لو عدنا إلى المصطلحات الجديدة التي حاول الدارسون أن يحدّوا البلاغة بها ويقصوا المصطلح القديم لرأيناهم غير موفقين، لأنّ مصطلحاتهم لا تحمل المعاني الكثيرة التي يحملها مصطلح (البلاغة)، لأنّ لكل مصطلح من تلك المصطلحات دلالتَه في لغته التي استُعمل فيها، كما أنّ بعضها يفقد محتواه بعد ترجمته، فيضيق عن البلاغة العربية ذات الإرث العريق والآفاق الرحبة الواسعة..

ومن بين المفاهيم الموسّعة للبلاغة العربية ما توصّل إليه عبد الله بـــن محمد بن جميل المعروف **بالباحث** حول مفهوم البلاغة قائلا: " البلاغة الفهم والإفهام وكشف المعاني ومعرفة الإعراب والاتساع في اللفظ والـــسداد في النظم والمعرفة بالقصد والبيان في الأداء وصواب الإشارة وإيضاح الدلالـــة والمعرفة بالقول والاكتفاء بالاختصار عن الإكثار وإمضاء العزم على حكومة الاختيار.. وكل هذه الأبواب محتاج بعضها إلى بعض كحاجة أعضاء البدن إلى بعض، لا غنى لفضيلة أحدها عن الآخر. فمن أحاط معرفة بهذه الخصال فقد كمل كل الكمال، ومن شذّ عنه بعضها لم يبعد من النقص بما اجتمـــع فيه منها.. والبلاغة تخيّر اللفظ في حسْن إفهام.. " [1] فهذا القولُ – علـــى

---

[1] ينظر: في البلاغة العربية: علم المعاني: للدكتور عبد العزيز عتيق – دار النهضة العربية – بيروت ١٩٧٤.ص٩ – ١٠

الرغم ممّا فيه من تكرار - شاملٌ صائب لامس كل الجوانب وتناول عملية التواصل والتخاطب بين المتكلم والسامع مراعيا ما بينهما من التناوب.

وقبل أن نقدّم مفهوماً شاملاً للبلاغة يحسُن بنا أن نورد ما قاله بعضهم - لما له من الأهمية - من أنّه " ينبغي أن نفرّق في بلاغتنا بين مادة البلاغة وبين أساليب البلاغة وبين علْم البلاغة وفنّ البلاغة .." [(١)].

فمادة البلاغة صعبة العبارة وهي إلى التقعيد والتقنين أقرب منها إلى الشرح والتفسير. وأساليب البلاغة هي أقرب إلى الحديث عن وسائل التوصيل أكثر من عرض المادة البلاغية، وهي تتّسم بالتأثير النفسي والتواصل الاجتماعي والمشهد الإعلامي الإعلاني. وعلْم البلاغة هو ما يتحدث عن المقدمات والنتائج في القضية البلاغية أو العلْم البلاغي من بيان أو معان أو بديع، وفيه تصنيف وترتيب وانتظام ومنطق . أمّا فنّ البلاغة فهو إلى الذوق والتعليل الجمالي أقرب منه إلى القواعد والتقسيمات، وأبعد عن مضايق المنطق ومتاهات الفلسفة. وفنّ البلاغة جماليّ ذوقيّ تأثّري... ولا غنى لعلْم البلاغة عن الفن البلاغي أو الأساليب البلاغية أو المادة البلاغية، لأنّ كلّ واحد من هذه المضارب له وظيفة يكمل بها الآخر، وبينهما شمول وتوافق وتعاضد. وبهذا يكون المشهد البلاغي، أو ما يسمى بالبلاغة العربية .. [(٢)]

---

(١) محمد بركات حمدي أبو علي: البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق — دار وائل للنشر والتوزيع — عمان-الأردن : ط١ (٢٠٠٣) ص٣٣ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه: ص٣٣ و ٣٤

نستخلص من القول السابق أنّ البلاغة العربية تقوم على أربعة جوانب متكاملة هي **المادة والأساليب والعلْم والفنّ** ؛ بحيث لا يمكن أن تقوم (أي : البلاغة) بالاستغناء عن واحد منها.. وأنّ علم البلاغة لا يستغني عن الفن أو الأساليب أو المادة. وهذا يعني اجتماع العلم بالفنّ في البلاغة العربية، إذْ يؤدي كلاهما وظيفته من غير تعارض مع الآخر..أو لنقلْ إنّ البلاغة علم وفنّ ، غيْر أنّ الفنّ هو الغاية، وما العلْم فيها إلاّ وسيلة لها.

والبلاغة عندنا هي فنّ التواصل والتخاطب بما يجمع بين سلامة العبارة وبراعة الإشارة وحُسْن الصياغة وجودة النّظْم وعمق الدلالة ووضوح القصد ومراعاة الحال والسياق..

فهذه كلّها- في نظرنا- محتاج إليها لتحقيق الكلام البليغ الذي يصدر عن المتكلم ليصل إلى السامع في أحسن صورة وأجلاها، فيقع من نفسه موقعاً حسَناً بما يحوزه من سلامة التركيب وجودة الترتيب، وبراعة التهذيب، ومناسبة الحال من بعيد أو قريب.. إذْ لا طائل من كلام رصفتْ ألفاظه رصفاً وصفّتْ عباراته صفّاً - على الرغم ممّا قد توصَف به من القوة والجزالة - لأنّ قيمتها إنما تكمن في تآلفها داخل السياق وفي عمْق دلالاته؛ وعلى هذا يُقاس الخطاب من شعر ونثر، ويميَّز جيّده من رديئه.. ولنا المثل الأعلى في النص القرآني المعجز الذي جمع هذه الصفات وزاد عليها، مما جعل كلّ كلام يقع دونه مهما كانت جودته وارتقت بلاغته.

الفصـــاحـــة :

تباين مفهوم الفصاحة بين البلاغيين تبايناً جلياً، فمنهم من فصلها عن البلاغة، فجعلها (أي الفصاحة) مقصورة على اللفظ دون المعنى، ومنهم من ربطها بالبلاغة.. وقد ركّز كثير منهم على المعاني المعجمية لمادة (فصح) التي تعود في مجملها إلى البيان والظهور والوضوح. ليخلصوا إلى أنّها صفة للكلمة والكلام والمتكلّم ..

وخلاصة ما قالوا في ذلك أنّ **فصاحة الكلمة** هي خلوصها من تنافر الحروف، وخلوّها من الغرابة ، وخلوصها من مخالفة القياس، ومن الكراهة في السمع .. [1]

- فخلوص الكلمة من تنافر الحروف هو أن تكون عذبة سهلة النطق غير مستكرهة ولا ثقيلة.

ومثال تنافر الحروف عند البلاغيين ما فـــي كلمة **الهعخع** ، وكذا كلمة **مستشزرات** من قول **امرئ القيس**: [2] [من الطويل]

غدائره **مستشزرات** إلى العلا ** تضل العقاص في مثنى ومرسل

---

[1] ينظر: جواهر البلاغة للسيد أحمد الهاشمي- دار الفكر- بيروت / طبعة مجددة (١٤٢١هـــ- ٢٠٠٠م) ص٩ وما بعدها

[2] غدائره : أي : ضفائره (والهاء تعود إلى الشَّعر) ؛ مستشزرات : بمعنى: مرتفعة طويلة ؛ العقاص : جمع ، مفرده: عقيصة، وهي خصلة الشَّعر ؛ المثـــنّى : يريـــد الشَّعر المفتول ؛ مرسل : مطلق ممتد . فقد أورد الشاعر في هذا البيت ثلاث صفات لشع ابنة عمه : فبعضه مرتفع وبعضه مجموع وبعضه مفتول وبعضه مرسل ..

- وخلوص الكلمة من مخالفة القياس هو أن لا تكون شاذة على أعراف الصرفيين – إلاّ أن تكون ممّا استثنوه من قواعدهم بالإجماع. ومثال مخالفة القياس كلمة **الأجلل** من قول **أبي النجم** الفضل بن قدامة **العجلي** وهو من شعراء الإسلام : [من الرجز]

الحمد لله العليّ **الأجلل** ** الواحد الفرد القديم الأول .

فالقياس أن يقول " **الأجلّ** " بالإدغام، لكنه فكّ هذا الإدغام لمراعاة الوزن والقافية مع ما يأتي من أبيات مع هذا البيت. وأمثلة مخالفة القياس كثيرة في كلام العرب ..

- وخلوص الكلمة من الكراهة في السمع هو أن لا تكون وحشية تردّها الطباع وتمجّها الأسماع كما تمج الأصوات المنكرة. ومثال الكلمات التي لها كراهة في السمع كلمة **الجِـــرِشّى** [1] من قول **المتنبي** في مدح سيف الدولة : [من المتقارب]

مبارك الاسم أغرّ اللقبْ ** كريم **الجِرِشّـــى** شريف النسبْ

فهذه الكلمة – على الرغم من أنها استُعملت في المدح – هي كلمة نابية عن السمع لم تحزْ حسْن الأثر وجمال الوقع.

وخلُوّ الكلمة من الغرابة أن تكون مألوفة في الاستعمال. ومثال الغرابة عند البلاغيين كلمة " **مُسَرَّجا** " من قول الشاعر **رؤبة بن العجاج** ضمن أرجوزته الطويلة: [من الرجز]

والسخط قطاع رجاء من رجا ** أزمان أبدتْ واضحاً مفلّجا

---

[1] الجـــرشّى: النفس.

أغرّ براقـــاً وطرفا أبرجا ** ومقلـــة وحاجباً مزججا [١]

وفاحما ومرسناً[٢] **مسرّجا** ** وكفـــلاً وعثا إذا ترجرجا

فقد اختلفوا في تفسيرهم وتخريجهم لهذه الكلمة، بين قائل بأنها من **سرَّجَه تسْريجاً** بمعنى حسّنه فصار يلمع كالسّراج. وقائل بأنها نسبة إلى **سريج** وهو قين لحدّاد تُنسَب إليه السيوف فيقال:(سيوف سريجية) ويأخذ عبد القاهر **الجرجاني** بالتفسير الأول على أن الشاعر"يعني أنفاً يبرق كالسّراج " [٣]

أمّا **فصاحة الكلام** فهي " سلامته ممّا يُبْهم معناه ويحول دون المراد منه. وتتحقق فصاحته بخلوّه من ستّة عيوب هي : تنافر الكلمات مجتمعة، وضعف التأليف والتعقيد اللفظي والتعقيد المعنوي، وكثرة التكرار، وتـــتابع الإضافات. وأمّا **فصاحة المتكلّم** فهي ملَكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بكلام فصيح . [٤]

بيـــن البلاغة والفصاحـــة:

من المفاهيم السابقة لكلّ من البلاغة والفصاحة يظهر لنا أنهم جعلوا البلاغة للكلام والمتكلم دون الكلمة. ولكنهم جعلوا الفصاحة شاملة للثلاثة

---

[١] مزجـــجا : دقيـــقا طويلا .

[٢] قوله : فاحماً : أراد شَـــعراً شديد السواد . وحذف الموصوف الذي هو الشعـــر ونابتْ عنه صفتـــه ؛ وقوله : مرســـناً : يريد الموضع الذي يقع عليه الرســـن ، وهو في الأصل للحيوان ، واستُـــعير لأنف الإنسان .

[٣] أسرار البلاغـــة ص ٢٨

[٤] المصدر نفســـه: ص٢٠ وما بعدها .

كلّها.. ومن هذا نستخلص أنه يمكن أن يكون ثمّـــة كلام بليغ فصيح، ومتكلّم بليغ فصيح ، وكلمة فصيحة غير بليغة .

وأحياناً نجد البعض يجعل الفصاحة آلة البيان متعلّقة باللفظ دون المعنى، ويجعل البلاغة تشمل المعنى مع اللفظ – كما هو الشأن عند **أبي هلال العسكري** – وعلى هذا فكل ما هو بليغ يكون فصيحا ؛ ذلك أنّ البلاغة تتعلّق بالمعنى واللفظ معاً .. وليس العكس ، إذْ لا يمكن أن يكون كلّ ما هو فصيح بليغاً، لأنّ الفصاحة تتوقف عند حدود اللفظ ولا تتعداه إلى المعنى. وهذا ما يجعلنا نعتبر فصيحاً كلّ من نطق بكلمة واضحة بيّـــنة سهلة النطق، حتّى وإنْ كان مقلّداً لا يعرف اللغة التي ينطق كلماتها بفصاحة. بل حتى لو كان ببغاءً متدرّباً على إعادة ما يسمع من كلمات وألفاظ فصيحة، على الرغم من عدم وجود قصد منه إلى المعنى.. وهذا لعمري رأي مجانب للصواب، فكيف يهون معنى الفصاحة ويقلّ شأنها حتى يتساوى فيها فطاحل الفصحاء مع الطائر الببغاء ؟.

لقد استند كثير من البلاغيين كما قلنا إلى المعنى اللغوي للفصاحة وبنوا عليه تحديدهم لمفهومها. [1]

بل إنّ بعض الذين لم يرتضوا هذا التحديد المبْني على المعنى اللغويّ لـــم يقدّموا مفهوماً شافياً للفصاحة. فهذا **ابن الأثير** مثلاً يسهب في الكلام عن معنى الفصاحة لكنه يتوقف عند حدود طبيعة اللفظ إنْ كان حسَناً أو قبيحاً، وما زاد فيه إلاّ أن قال بأنّ الفصيح من الألفاظ هو الحسَن.. من غير

---

[1] أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتيْـــن : ص٧ وما بعدها

أن يخرج عن جعْله الفصاحة خاصة باللفظ دون المعنى، على الرغم من إشارته إلى عدم الفصل بينهما [1].

وممّا وقع فيه بعض البلاغيين من تناقض قصرهم الفصاحة على اللفظ (من جهة النطق) ولكنهم عندما يتكلمون عن شروط الفصاحة يتناولون الكلام. والكلام يشمل اللفظ والمعنى مجتمعيْن، كما أنهم يشترطون خلوّه من التعقيد المعنوي الذي يأتي من خفاء الدلالة بما يجعل المعنى صعب الفهم.

وهذا نقض لما رأوه من قصر الفصاحة على اللفظ من جهة نطقه لا من جهة ما يحمل من المعنى.. وقد ضربوا مثالاً على ذلك بقول **عباس بـــن الأحنف**: [من الطويل]

سأطلب بُعْد الدار عنكم لتقربوا ** وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

وسبب خفاء الدلالة في هذا البيت عندهم هو أنّ الشاعر جعل جمود العيْن ناتجاً عن فرحة اللقاء بعد الفراق. فهل يكون القرْب والسرور سبباً في جمود العيْن ؟

إنّ هذا مما لم تعهده العرب في كلامها، إذ الجمود في عُرف لسان العرب كناية عن عدم البكاء في الحالات التي توجبه. ومنه قول **الخنساء** في رثاء أخيها صخْر، وهي تناشد عينيها أن لا تبخلا عليها بالدموع: [من المتقارب]

أعينـــيّ جودا ولا تجمـــدا ** ألا تبكـــيان لصخر النّـــدى

ألا تبكيان الجـــريء الجميل** ألا تبكـــيان الفـــتى السّـــيّدا

---

[1] ابن الأثير : المثـــل السائر : ص ٢٧ وما يليـــها .

ومادام الأمر هكذا - على رأي البلاغيين - فإنّ قول **الأحنف:** [سأطلب.. (البيت)] فيه خروج عن سنن العرب في كلامها بجعْله جمودَ العيْن ناتجاً عن التلاقي لا عن البخل بالبكاء. وهذا الخروج عن أساليب العرب في كلامها — ومنه الخروج عن الكناية ههنا — نتـــج عنه تعقيد في المعنى وبُعْد عن المغزى من الكلام .

وههنا لديْنا مسألتان :

أولاهما أنّ بعض البلاغيين الذين نسبوا الفصاحة إلى اللفظ دون المعنى، ثمّ جعلوا التعقيد المعنوي من العيوب المخلّة بالفصاحة وقع لديهم بعض التداخل الذي نتـــبيّن من خلاله أنّ الفصاحة تشمل اللفظ والمعنى معاً؛ أو لنَـــقُلْ إنّ الفصاحة تشمل اللفظ بما يحمل من المعنى. ولا ينبغي قصرها على اللفظ من حيث النطق وحسب.

وثانيتهما أنّ ما اعتبروه مخلاًّ بالفصاحة من تعقيد معنوي بسبب مخالفته لسنن العرب في كلامها وأساليبها فيه مبالغة منهم، لأنّ ادّعاءهم هذا يحدّ من الأساليب الإبداعية التي يمكن أن تنتجها عقول البشر ومخيّلاتهم عبْر الزمن. إذْ لا يمكن أنْ يُقنّن الإبداع إلاّ في حدود سلامة اللغة لعدم الخروج عن النهج الصحيح. أمّا ما يتعلّق بالإبداع والبراعة الفنية فلا حدود له إلاّ بحدود قدرة المنشئ على الإبداع، خصوصاً في لغة الشعر.

ولذلك فإنّ استحداث الجديد - إنْ كان يوافق النهج اللغوي الصحيح- هو أمر مقبول، بل إنه من قبيل التطور والإبداع والافتنان. ذلك

أنّ الإبداع الخلاّق والابتكار الفنّي المبْنِي على تنوّع الأذواق أمْر أكبر من أنْ يوضَع له قانون يحدّه أو إحصاء يعدّه .

والحقيقة أنّ الفصاحة فصاحتان: **فصاحة لفظية** هي تلك التي تداولها البلاغيون وقصروها على اللفظ دون المعنى، وجعلوها متصلة بالآلة، وتعنى بوضوح الكلمة وظهورها من حيث النطق. **وفصاحة معنوية** تركيبية تتعلّق بالألفاظ مع ما تؤديه من المعاني، فهي فصاحة بيانية فنّـــية تتجاوز حدود النطق بالألفاظ إلى علاقة هذه الألفاظ فيما بينها، على مستوى التراكيب. وهذه الفصاحة التركيبية مرادفة للبلاغة متصلة بها، ولا سبيل إلى فصلها عنها، لأنها تعنى بالمعاني المستفادة من الألفاظ.

ولا يمكن الوقوف في تحديد مفهوم الفصاحة عند المستوى الأول (أي: المستوى اللفظي) ذلك أنّ الكلمة المفردة ربما لا تكون فصيحة فصاحةً ظاهرةً بيّـــنةً من جهة النطق، ولكنها تكون فصّيحة بليغة إذا انضمّتْ إلى غيرها من الكلمات على المستوى الثاني (أي: المستوى التركيبي) على صورة مخصوصة، لأنها تحوز عندئذ سمـــة البلاغة. فما الفصاحة الأولى (اللفظية) إلاّ مستوى أول للانتقال إلى المستوى الثاني من الفصاحة المعنوية التركيبية، أي: البيانية التي تتصل بالبلاغة ولا تنفصل عنها.

وعلى هذا، فإنّ الفصاحة والبلاغة تصدران من معين واحد وإنْ اختلفتا في المعنى اللغوي ذلك أنّ كلاًّ منهما يختص بإبانة الكلام وإظهار معناه وتقديمه في أحسن صوره.

وليس من الصواب القول بأنّ البلاغة منفصلة عن الفصاحة، بدعوى أنّ البلاغة وحدها تستأثر بالمعنى، وأنّ الفصاحة تتضمن معنى الآلة فهي مقصورة على النطق، وأنها تتوقف عند حدّ الكلمة المفردة.

وانظر كيف يميّز آخرون بين بيتيْن من الشعر فيرون الأول فصيحاً وبليغاً لأنه اشتمل في نظرهم على نعوت الجودة مع الفخامة والجزالة. ويرون الثاني بليغاً وليس بفصيح لأنه اشتمل على نعوت الجودة دون فخامة وجزالة.

والبيـــتان هما قول الشاعر [١] : [من الطويل]

تمرّ الصّبا صفحاً بساكنة الغضى ** ويصدع قلبي أن يهبّ هبوبها

قريبـــة عهد بالحبيب وإنما ** هوى كل نفس حيث حلّ حبيبها

فهل يجوز- في تمييـــيز البليغ من الفصيح- قبول هذا المقياس، مقياس الفخامة والجزالة فقط؟ بل كيف يمكن أنْ الحُكْم على البيـــتيْن بالجودة ثـــم يقال إنّ أحدهما بليغ ولكنه غير فصيح ؟ أليس البيتان مشتركيْن في المعنى المراد تبليغه من الشاعر ؟ ألا يخدم كلّ منهما الآخر لبلوغ هذا الغرض ؟ ثم ألسنا نرى وضوح المعنى وجمال العبارة في البيت الثاني بما اشتمل عليه من تلاؤم بين صدره وعجزه ؟ ومن جهة أخرى نلاحظ في قولهم أنهم قابلوا البلاغة بالجودة ، وقابلوا الفصاحة بالفخامة والجزالة. وهذا الزعم فيه من المبالغة ما لا يخفى إذْ لا اعتبار- على ما في هذا الزعم- لما قد يتّسم به الكلام من المواصفات الأخرى- غير الفخامة والجزالة - كالرّقّة والعذوبة وما إلى ذلك.

---

[١] البيـــتان لإبراهيم بن العباس الصولي (الصبا : ريح تهب من مطلع الشمس ؛ والغضى : شجر من نبات الرمل ؛ ويصدع : يشقّ)

ومحصول القول أنّ الفصاحة في الحقيقة فصاحتان: فصاحة لفظية تتصل بالنطق والوضوح الصوتي في إيراد اللفظ على اللسان. وهذا ما أشار إليه كثير من البلاغيين الذين قصروا الفصاحة على اللفظ.. وفصاحة معنوية بيانية تتصل بالمعنى وطرق إيراده، وهذه مرادفة للبلاغة، إذ تعنى بالطابع الفنّي للتراكيب. فما الفصاحة الأولى إلاّ مستوى أوّل يعْقبه المستوى الثاني المتمثل في الفصاحة المعنوية. وهذا المستوى الثاني هو الذي عليه المعتمَد في بيان مزايا الكلام، وهو البلاغة عينُها.

مقتضـــى الحـــال:

إنّ الفكرة الرئيسة التي تقوم عليها البلاغة العربية هي: مطابقة الكلام لمقتضى الحـــال. وهذا ما توصل إليه **القزويني** إذْ ميّـــز بين بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم. وقال بأنّ. " بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته." [١] ومقتضى الحال مختلف.. وتطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذي يسمّه **عبد القاهر** بالنظم. [٢]

تتألف هذه العبارة من جانبيْن : **المقتضى والحال.** فما المقتضى؟ وما الحال؟ قبل توضيح ذلك يجدر بنا أن نشير إلى أنّ الكلام يصل من المتكلم إلى المخاطَب.ولا يوصف بالبلاغة إلاّ بقدر ما يكون عليه من

---

[١] الإيضاح: ص٩ ؛ والتلخيص: ص ٣٣

[٢] ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها للدكتور أحمد مطلوب – مكتبة لبنان – ناشرون – بيروت – لبنان / ط٢ (١٩٩٦م) ص٢٣٦

الوضوح والتأثير في ذهن المخاطب. فالمخاطَب إذاً هو الهدف الأول في عملية التواصل.

وعلى هذا فإنّ المقتضى هو ما تقتضيه حال المخاطَب الذي يُراد إيصال الكلام إليه. والحقيقة أنّ الحال تسبــق المقتضى في واقع العملية التواصلية. إذْ نقول: إذا كانت حال المخاطَب كذا فإنها تقتضي كذا..ولنضرب مثالاً على ذلك فيما يأتي:

إذا كان المخاطَب ذكيّاً فهذه حال تقتضي من المتكلم أن يوجه إليه كلاماً مطابقاً لها، كأنْ يكون كلامه شديد الإيجاز أوفي شكل إشارات ورموز وإيماءات، وما إلى ذلك من أشكال الخطاب التي لا يتيسّر إدراكها إلاّ من ذلك المخاطَب أو مَنْ كان على شاكلته، لكن دون إغفال ما يوجد من سياقات وملابسات تحيط بالكلام.. فهذه حال أيضاً، أو مقام يتعلّق بمستوى الخطاب ونوعه وطبيعته.

وقد يكون المخاطَب في حال تأثّر من حادثة معيّنة، كتعرضه لمصيبة أو كارثة أو ما إلى ذلك. فهذه حال تقتضي من المتكلم أن يوجه إليه خطاباً مطابقاً لهذه الحال، كأن يقوم بمواساته أو تذكيره بالإيمان، والصبر وما له من فوائد.. وغير ذلك ممّا كان من هذا القبيل. ولو خاطبه بكلام غير مناسب لهذه الحال لما وجد استحساناً لديه، ولا تأثيرا إيجابياً عليه..

وقد يكون المخاطَب متردداً في أمر ما، فهذه حال تقتضي من المتكلم تأكيد كلامه حتى يقنع المخاطَب ويزيل ما بذهنه من التردد.

وإنْ كان المخاطَب منكِراً لمضمون الخطاب اقتضتْ هذه الحال من المتكلم زيادة في توكيد الكلام بقدر يتلاءم مع درجة الإنكار لدى المخاطَب

وهكذا، فأحوال المخاطَب كثيرة لا يمكن إحصاؤها، وكلّ حال منها تقتضي خطاباً معيّـــناً. فههنا لدينا حال وما تقتضيه من خطاب. وعلى المتكلم أن يصدر كلامه للمخاطَب وفق ما تقتضيه حاله، لكي يكون كلامه بليغاً واقعاً في موقعه ميصيباً لموضعه.

نستنتج من هذا أنّ كلّ كلام يتميز عن الآخر بحسب ما تكون عليه حال المخاطَب الذي يوجه إليه هذا الكلام. والمتكلم البليغ هو الذي يراعي هذه الحال، ويعرف ما يختاره لها من الخطاب الذي يناسبها..

والخلاصة أنّ حال المخاطَب أنواع متعددة تشمل الحالة النفسية والحالة الثقافية والحالة العلمية والحالة الاجتماعية. وغيرها. والمقتضى هو ما يكون عليه الكلام وما يحمله من مواصفات، بحيث يكون كل كلام مناسباً لحال المخاطَب التي سيق من أجلها.

والخطابات بين الناس تختلف باختلاف مقاماها، فلكلّ مقام مقاله الذي يلائمه " ومقامات الكلام متفاوتة. فمقام التنكير يباين مقام التعريف. ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد. ومقام التقديم يباين مقام التأخير. ومقام الذّكْر يباين مقام الحذف. ومقام القصر يباين مقام خلافه. ومقام الفصل يباين مقام الوصل. ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة. وكذا خطاب الذّكيّ يباين خطاب الغبيّ. وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام. " [١]

---

[١] معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : ص٢٣٦

ويجدر بنا أن نشير إلى أنّ البلاغة هي فن التواصل. وأنّ هذا التواصل يشمل كل المتكلمين والمخاطبين. لذا فإنّ المتكلّميـــن أنواع، كما أنّ المخاطَبين أنواع. وذلك بحسب تنوع مجالات التواصل والتخاطب.. ولذلك قالوا: لكل مقام مقال.

النظـــــم:

النّظم هو ارتباط الكلمات بعضها ببعض داخل النّسق الكلامي وترتيبها بحسب المعاني والأغراض الكامنة في نفس المتكلّم، على أن يكون ذلك وفق الأحكام و القوانين النّحوية. فهو على هذا ضرب من التأليف المحْكَم بين الكلمات وليس مجرد جمع بينها كيفما اتفق. فلا نظم إذاً إلاّ بهذا التأليف والاتساق بين الألفاظ على مستوى التراكيب.

وقد بيّن **الجرجاني** حقيقة النظم بقوله : " ... اعلم أن ليس النّظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجتْ فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمتْ لك فلا تخـــلّ بشيء منها ... فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه إلاّ وأنت تجـــد مرجـــع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزيـــة وذلك الفضـــل إلى معاني النحو وأحكامه ...وقال أيضا : ليس النّظم شيئا غير توخّي معاني هذا العلْـــم و أحكامه

فيما بين الكلم . " . ([1]) فالنظم عند الجرجاني لا ينفصل عن النحو بل إنّ النظم هو النحو في أحكامه و معانيه.

إنّ الكلام عن فكرة النظم كان قد بدأ مع **الجاحظ** ، بل قبله، إلاّ أنّ معالمها الأولى بدأت تتّضح عنده في كلامه عن اللفظ و المعنى إذ يقـــول : "... ومتى شاكل اللفظ معناه و أعرب عن فحواه وكان لتلك الحالة وَفْقًا ولذلك القدْرِ لِفْقًا ... كان قمينًا بحسن الموقع و بانتفاع المسمع... " فهو يتكلّم عن اختيار الألفاظ المناسبة للمعاني المرادة ، و لكل نوع من المعـــاني نوع يلائمه من الألفاظ .

وتناول فكرة النظم علماء كثيرون **كأبي جعفر النحاس** و **أبي سعيد السيرافي** و **الخطّابي** و**أبي هلال العسكري** و **الباقلاّني** و **القاضي عبـــد الجبّار** و غيرهم. وذلك قبل أن يتناولها **عبد القاهر الجرجاني** الذي كان لـــه فضل جمع شتات الأفكار السّابقة له وتنظيمها في إطار نظريّة نحويّة بلاغيـــة متكاملة عرفت (بنظرية النّظم). وقد اعتبر **القزويني** أن فكرة النظم عنـــد **الجرجاني** هي (تطبيق الكلام على مقتضى الحال). ولـــم يفد عبد القاهر **الجرجاني** من هؤلاء الذين بحثوا في الإعجاز القرآني فحسب، بل أفاد كذلك من جهود النّحاة قبله، والدّليل على ذلك تلك الشّـــواهد النحويّة التي استند

---

[1] عبد القاهر الجرجاني : دلائل لإعجـــاز في علم المعانـــي – عناية الدكتور ياسين الأيوبي – لمكتبة العصرية ـــ بيروت – لبنان) ط١ (١٤٢١هـــ / ٢٠٠٠م)

إليها في كلامه عن النظم وبيان أسراره، فقد تناول أمثلة النّحاة ليدعّم بهـــا نظريته، وصرّح بذلك عدة مرات.

وممّا دفع **عبد القاهر** إلى البحث في شأن النظم قـــضية الإعجـــاز وقضية اللفظ والمعنى . فقد تتبّع مختلف الأساليب وأسرارها ودرجاها إلى أن تصل إلى حدّ الإعجاز. كما نظر إلى اللفظ والمعنى على أنهما كلّ متكامل، إذْ قيمة للجزء منفصلا عن الكلّ. ويمكننا أن نلخص مزايا النّظم فيما يأتي:

- النظم هو عبارة عن تعليق الكلمات بعضها ببعض (أي تعلّق اسم باسم أو اسم بفعل أو تعلّق حرف باسم أو تعلق حرف بفعل)
- لا كلام من جزء واحد (أي أنه لابد من مسند و مسند إليه للحصول على كلام مفيد)
- يكون وضع الألفاظ بحسب القواعد النحويّة والأحكام المتعارف عليها في سنن العربية. فالصواب والخطأ في النظم مرجعهما إلى إصابة معاني النحو أو عدم إصابتها.
- لا يقف مفهوم النظم عند حدود الصحة التركيبية أو الوظيفة الإعرابية بل يتجاوزها إلى مراتب الحسن والجمال الأدبي والفنّي، وتلك هي مزايا الإبداع التي لا حدود لها. وعلى هذا فهو درجات يترقّى بعضها فوق بعض .
- لا قيمة للكلمة المفردة قبل دخولها في التأليف، إذْ تعبّـــر – مع غيرها من الكلمات – عن مختلف الأغراض والمعاني الكامنة في النفس.
- إذا أمكن استعمال كلمات مفردة مؤدية لمعان بعينها في سياقات معينة، فإنّ ذلك سيكون حتماً بربط هذه الكلمات المفردة المنطوقة بأخرى منوية

غير منطوقة، وبهذا لا يمكن اعتبارها مفردة لأنها مرتبطة بتلك الكلمات المنوية التي لم تنطق لغرضٍ ما، كالتخفيف والاختصار وغير ذلك.

- تقاس فصاحة اللفظة بحسب مكانها من النّظم ومدى ملاءمة معناها لمعاني الكلمات المجاورة لها. والدليل على ذلك أنّ الكلمة الواحدة قد تروق السّامع في موضع و لا تروقه في موضع آخر.

- يكون ترتيب الألفاظ في النطق أو في الكتابة وفق ترتيبها في الذهن وانتظامها في العقل في شكل أفكار أولاً. وهذه الفكرة تندرج ضمن جدلية العلاقة بين اللغة والفكر وأيّهما الأسبق، وهي من القضايا البارزة في حقل الدراسات الحديثة. وقد فصل فيها **الجرجاني** بإقراره لقوّة العلاقة بين اللغة والفكر مع أسبقية الفكر على اللغة، إذْ بيّنَ أنه إنما يؤتى بالكلام للتعبير والإفصاح عمّا يكمن في النفس من المعاني والأغراض. وذلك هو الرأي الراجح في دراسات علم النفس اللغوي، فيما يختص بقضية اللغة.

- الغرض من النظم هو إدراك وجوه التعبير، وطرقه المختلفة وما بينها من فروق معنوية (كقولنا : زيد منطلق و زيد هو المنطلق و المنطلق زيد... وغيرها) ويكون ذلك في أبواب المعاني حيث تنوع التراكيب.

- إذا لم ترتبط الكلمة المفردة بما يحيط بها من الكلمات الأخرى السابقه أو اللاحقة لها فإنها تبقى صوتا لا يحمل أي فائدة إخبارية، وليس له قيمة بلاغيّة أو نحويّة. وإنّما تظهر فائدة الكلمة وقيمتها من خلال استعمالها في الجملة ضمن كلام مؤلّف قد أُختيرتْ كلماتُه اختياراً.

- إنّ وضع الكلمات وترتيبها داخل التأليف ليس اعتباطياً وإنما هو مبنيّ على مقاصد النفس، وفقاً لقوانين النحو وأحكامه، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما أمكن أن تؤدي الكلمات الفائدة المرجوّة التي يتحقق بها التفاهم. أمّا الحروف فليست مثل الكلمات لأن نظمها ليس بمقتضى معنى أو قصد معيّن، وإنمـــا اُصطُلح على وضعها وترتيبها اصطلاحاً.

أنواع النظـــم: النظم ثلاثة أنواع، هي: نظم الإعجاز ونظم الافتنان والبراعة والنظم البسيط ونبـــينها فيما يأتي :

أولاً : نظم الإعجـــاز :

وهو النظم القرآني المتمثل في كلام الله الذي لا يصل إليه كلام البشر. وهذا النوع من النظم هو الذي كان دافعاً **للجرجاني** إلى تأليف كتابه دلائل الإعجاز، كما يدل عليه عنوانه، ليبيّن ما ينطوي عليه هذا التأليف من الأسرار واللطائف التي لا توجد في غيره. فهذا النوع من النظم فيه توخّي معاني النحو فيما بين الكلم بحسب الأغراض والدّواعي، ولكن بطريقة فريدة معجزة يختص بها الأسلوب القرآني. ذلك أنّ فيه روعةَ في الوصف وبلاغةَ في التصوير وفصاحةَ في التعبير وتناسقاً في المعنى والدلالة بين ألفاظه وتراكيبه بحيث لا يوجد مثيل له.كما أنّ نظم القرآن يتميّز بإيقاعه الفريد من خلال تلك الفواصل التي تسمو على سجع النثر وتعلو على وزن الشعر وقوافيه.

ثانـــياً : نظم الافتنان والبراعة : أو (النظْم الفنّـــي):

ويتمثل فيما كان راقيـــاً بديعاً من الشعر والنثر من حيث جمالُ التصوير وحسنُ اختيار الألفاظ ومواقعها وبراعة سبك التراكيب.. وهو

يشمل مختلف أشكال التعبير عن المعاني، كما ألوان البيان والبديع من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية، وطباق ومقابلة وغير ذلك من الأبواب البلاغية المتنوعة.. غير أنّ هذا النوع – مهما كانت درجة الافتنان والبراعة فيه – يبقى دون مستوى نظم الإعجاز.. وهو ما يتجلى من خلال الأسلوب الأدبي الذي يقوم على حسن اختيار العبارة عند التصريح، ومهارة الإيحاء والإشارة عند التلميح..

ومن هذا النوع (نظم الافتنان) مثلا قول **البحتري**:[من الطويل]

إذا ما نهى الناهي فلجّ بي الهوى ** أصاختْ إلى الواشي فلجّ بها البحر

فحسن النظم هنا يكمن في المزاوجة بين المعاني عن طريق حسن التنسيق وجمال الوضع و لطف الموقع الذي اختاره الشّاعر.. فقد ذكر السبب والنتيجة في صدر البيت، ثم قابلهما في عجُز البيت بما يترتب عليهما من السبب والنتيجة..

ثالثـــاً : النظم البســيط :

هو أقلّ أهمية لأنّ الناظم لا يبتغي من ورائه تخيّر ألفاظه و معانيه، و لا يأتي منه بعد فكر ورويّة، فيبقى له الفضل في خلوّه من التكلّف، وفيما يحمل من معنى. وهو خال من الصّنعة الدقيقة التي تنطوي على أسرار ومقاصد يبتغيها الناظم من نظمه.

ومن هذا النوع الأخير مثلا ما يعطف من الكلام فيجمع بعضه إلى بعض من غيْر أنْ يحوز من القول بيانًا ولا يثير في النفس استحساناً. وهو ما

يمكن أن يتجلى من خلال ما يسمى بالأسلوب العلمي الذي يخلو من آثار الخيال الخلّاق، والتصوير الفنّي الذي يستدعي الأذواق..

نموذج من نظم القرآن الكريم :

قال الله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يا أرضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أقْلعي وغِيضَ الماء وقُضِيَ الأمر واسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِي وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .﴾ [هود/٤٤] وقد وقف **الجرجاني** على ما في هذه الآية من الإعجاز الذي يتجلّى في ارتباط الكلمات بعضها ببعض، فكلّ كلمة فيها نالت مزية الحسن والشرف بعلاقتها بالتي بعدها إلى آخر الآية... ولو أخذنا أيّ كلمة من هذه الكلمات وجعلناها منعزلة فإنّها لا تحمل من الفصاحة والحسن ما تحمله وهي في مكانها من الآية مع غيرها من الكلمات الأخرى. فالإعجاز ظاهر ههنا في نداء الأرض (يا أرض). ثمّ أمرها (ابلعي) . ثمّ نداء السّماء (يا سماء) ثم إضافة الماء إلى الكاف (ماءك) ثم إسناد بلع الماء إلى الأرض (ابلعي ماءك) . وقد جاء نداء الأرض في الآية مشفوعاً بأمرها في قوله تعالى (يا أرض ابلعي ماءك) وذلك بما هو من شأنها. كما جاء نداء السّماء أيضاً مشفوعاً بأمرها في قوله تعالى (يا سماء أقلعي) وذلك بما هو من شأنها أيضاً. ثمّ جاء الفعل مبنيّا للمفعول (غِيضَ) وفي هذا دلالة على أمرِ آمرٍ وقدرةِ قادر.. ثمّ جاء تأكيد ذلك الأمر بقوله تعالى: (و قضي الأمر) ثم جاء ذكر فائدة هذه الأمور بقوله تعالى (واستوت على الجودي .) وأضمر

السّفينة قبل الذّكر دليلاً على عِظَم الشّأن، ثمّ قابلَ الفعل (قيل) في النّهاية بمثله (قيل) في البداية. ([1])

وكذلك تحدّث **السكاكي** من بعده عن أسرار هذه الآية، ولكنه أدخلها في حيّز الأقسام التي وضعها للبلاغة، إذ تناول هذا الأنموذج القرآني نفسَهُ في كلامه عن الفصاحة - بعد أن عرّف البلاغة — إذْ تكلّم عن الفصاحة اللفظية والفصاحة المعنوية. ثم قام ببيان مزايا هذا الأنموذج من خلال هاتيْن الفصاحتيْن، وكذلك من جهة علم المعاني وعلم البيان، فقال: " والنظر في هذه الآية من أربع جهات: من جهة علم البيان، ومن جهة علم المعاني، وهما مرجعا البلاغة. ومن جهة الفصاحة المعنوية، ومن جهة الفصاحة اللفظية. أمّا النظر فيها من جهة علم البيان، وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها...وأمّا النظر فيها من حيث علم المعاني، وهو النظر في فائد كل كلمة منها، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جُملها.. وأمّا من حيث النظر إلى ترتيب الجُمل فذاك أنه قد قدّم النداء على الأمر، فقيل: ياأرض ابلعي ماءك و ياسماء أقلعي، دون أن يقال: ابلعي يا أرض وأقلعي ياسماء جرياً على مقتضى اللاّزم فيمن كان مأموراً حقيقة، من تقديم التنبيه ليتمكّن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادَى..وأمّا النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى: نظمٌ للمعاني لطيف، وتأدية لها ملخصة مبينة، لا تعقيد يعثر الفكْر في طلب المراد، ولا التواء يشيك الطريق إلى المرتاد...وأمّا النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية: فألفاظها على ما

---

[1] ينظر: دلائل الإعجاز : ص٩٨

ترى عربية مستعملة، جارية على قوانين اللغة، سليمة من التنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة على العذبات، سليسة على الإسلات كل منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرِّقّة... ولا تظنّنّ الآية مقصورة على ما ذكرت، فلعلّ ما تركت أكثر مماّ ذكرت، لأنّ المقصود لم يكن إلاّ مجرّد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان..." ([1])

وسلك **علي** بن محمد **الجرجاني** نهج **السكاكي**، إذ نظر في الآية من جهات: علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع. فأولها ما " يتعلق بعلم المعاني وذلك باعتبارين: باعتبار التقديم والتأخير وتعيين الألفاظ، وباعتبار الاختصار والإطناب...وفيما يتعلق بعلم البيان إنّ القول في قوه (قيل) كناية عن إرادة انكشاف وجه الأرض عن الماء...والأرض مشبهة بإنسان مطيع لأوامر الْمَلِك..و(البلع) استعارة عن النضوب لأنّ أصله أن يكون للحيوان، لكونه حركة أراد به النضوب، فاستُعير لنضوب الماء لجامع السّتر...وفيما يتعلق بالبديع ليس في الآية من محاسن البديع سوى المطابقة والتجنيس اللفظي، والمطابقة هي: ذكْر السماء مع الأرض، فإنهما باعتبار جهتي فوق وتحت من المتقابلات. والتجنيس، قوله: ابلعي وأقلعي. ولكون الآية جامعة لمحاسن العلوم الثلاثة، مانعة لأضداد الفصاحة والبلاغة المذكورة في صدر الكتاب، قيل في وصفها: إنها عذبة على العذبات سلسة على الأسلات، كل من

---

(١) مفتاح العلوم: تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي: ص٥٢٧ وما بعدها.

كلماتها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرّقّة. والله أعلم بالصواب." ([1])

لعلّ المتأمّل لكلام عبد القاهر **الجرجاني** ثم كلام **السكاكي** ومَن جاء بعدَه يلحظ أنّ النهج الذي سلكه **عبد القاهر** غير الذي سلكه اللاحقون له. فلقد اهتمّ **عبد القاهر** في تحليله للآية بما بين الكلمات من علاقات نحوية وما ترتّب عن هذه العلاقات من بديع النظم وجمال التأليف، مبيناً قيمة كلّ علاقة على مستوى هذا النظم القرآني المُعجِز، ومنبّهاً على ما يتبدّى من المعاني والدلالات الناتجة عن التنوّع التركيبي. وأمّا تحليل **السكاكي** ومَن تبعه فقد كان في إطار علوم البلاغة الثلاثة، وهي المعاني والبيان والبديع، مع الالتزام بالحدود المنطقية لهذه العلوم. وهو ما لم يلتزم به **عبد القاهر** – وإن كان قد راعى في تحليله جوانب المعاني والبيان – لذلك كان مجال تحليله أوسع وأرحب، وكان منهج تفكيره إلى الفنّ أقرب.

نموذج من الشعر عن جودة النظم :

قال الشاعر **إبراهيم بن العبّاس:** [من الطويل]

فلو إذ نَبَا دهر و أنكر صاحب ** وسلّط أعداء و غاب نصيرُ

تكون عن الأهواز داري بنجوةٍ ** ولكن مقاديرٌ جرتْ و أمور ([2])

---

[1] محمد بن علي الجرجاني: الإشارات والتنبيهات – تحقيق الدكتور عبد القادر حسين – مكتبة الآداب – القاهرة (١٤١٨هـ/١٩٩٧م) ص٢٢٨ وما يليها..

[2] الأهواز: أسماء لمناطق بين البصرة وبلاد فارس ؛ والنجوة: ما ارتفع من الأرض .

إنّ حسن النّظم في هذين البيتين يكمن في تقديم الظرف (إذ) على عامله (تكون) ، فهو لم يقل : (فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر) ؛ وفي قوله (تكون) بدل قوله (كان) ؛ وفي تنكير لفظ (الدهر) فهو لم يقل : فلو إذ نبا الدهر ؛ وفي تنكير ما بعد كلمة دهر (صاحب ، أعداء ، نصير ، مقادير ، أمور) ؛ وفي قوله: و أنكر صاحب (و لم يقل: فأنكرت صاحبا): أي في إسناد الإنكار إلى الصاحب ؛ وفي الكناية عن البعد باستعمال لفظ النجوة في صدر البيت الثاني..

نموذج عن فساد النّظم و اختلاله :

يتجلى فساد النظم واختلاله من خلال ما يكون من الشعر أو النثر مخالفاً لسنن العربية وأحكامها وضوابطها المستقاة من الكلام العربي الأصيل. فكل خروج عن ذلك يؤدي إلى فساد النظم، إلاّ ما كان من قبيل الإبداع، فهو مما يزيد جودة النظم. ويكون اختلال النظم وفساده على مستوى المعاني أو البيان أو البديع. ومن أمثلة ذلك من جهة المعاني قول الفرزدق: (١) [من الطويل] وما مثله في النّاس إلاّ مملّكا ** أبو أمّه حيّ أبوه يقاربه

وحاصل المعنى: أنّ **إبراهيم** (**الممدوح**) لا يشبهه في الناس حيّ إلاّ ابن أخته الذي هو **هشام** (**المملّك**) وهذا ما يسمّونه " **التعقيد** " بسبب

---

(١) هذا البيت قاله **الفرزدق** في مدح **إبراهيم بن هشام** (خال هشام بن عبد الملـــك بـــن مروان) ومعناه : و ما مثل الممدوح (إبراهيم بن هشام) في النّاس حيّ يقاربه في فضائله إلاّ صاحب مُلْك أبو أمّه ، أي أبو أمّ صاحب الملك، أبوه . أي : أبو هذا الممدوح (فالهاء في : أمّه عائدة إلى المملّك ؛ والهاء في : أبوه عائدة إلى الممدوح وهو **إبراهيم بن هشام**)

الخلل في النظم وتأليف الكلام. وهو من التعقيد المعنوي في عُرْف البلاغيين. وقد كان فساد النظم هنا في المعاني على مستوى التقديم والتأخير، إذْ لم يتوخّ الشاعر معاني النحو وأحكامه عندما استعمل التقديم على غير ما هو معهود في كلام العرب، فقدّم أداة الاستثناء والمستثنى على المستثنى منه الذي له موقع التقديم عليهما لا التأخير.. ثم وضع هذا المستثنى منه المتأخر فاصلاً بين أجزاء الكلام الأخرى بما زاد من فساد النظم واختلاله. ومن أمثلة اختلال النظم عند البلاغيين قول **المتنبّي**: [من الكامل]

ولذا اسم أغطية العيون جفونها ** من أنّها عَمَلَ السّيوف عواملُ

أراد بالجفن : هنا غمد السّيف ، فهو يعلّل تسمية جفون العيون بأنها تعمل في القلوب عمل السّيف وهو من التعقيد المعنوي أيضــاً.. كما أنه قدّم المعمول وهو المفعول المطلق (عمَلَ) على عامله وهو اسم الفاعل في الجمع (عوامل). وقد استعاض باسم الفاعل عن الفعل..إذ المراد: (من أنها تعمل عملَ السيوف) ثم استبدل الفعل (تعمل) بالاسم (عوامل) أي: (من أنها عوامل عَمَلَ السيوف) ثم أخّره على المفعول المطلق وهو المصدر (عَمَلَ).

غير أنّنا لا نرى ههنا اختلالاً يصل إلى حدّ التعقيد والغموض الذي يذهب بالمعنى ويؤدي إلى فساد النظم.. وعلى هذا يمكن أن نعدّه من الإبداع ما دام المعنى المراد ظاهراً جليّاً، حتى وإنْ كان في ذلك بعض المخالفة للغة، إذْ يمكن اعتبار هذا النوع من التعبير من قبيل فنّ القول وبلاغة العربية، إذْ لا ثقل فيه ولا غرابة، وإنما هو من ضروب التعليق وحُسْن التصرف في الكلام.

*****

الباب الأول

فنـون المعانـي

الباب الأول : فنــون المعانــي

التعريف بعلم المعاني:

يعــرّف **السكاكي** علم المعانـــي بأنه " تتـــبع **خواص تراكيب** الكلام في **الإفادة** وما يتصل بها من **الاستحسان** وغيره **ليحترز** بالوقوف عليها **عن الخطأ في تطبيق الكلام** على ما **يقتضي الحال** ذكره." [١] ولم يضف **القزوينـــي** شيئاً جديداً على المفهوم. فعلم المعانـــي عنـــده هو " علم يعرف به **أحوال اللفظ** العربي التي بها يطابق **مقتضى الحال**." [٢]

والملاحظ على تعريف **السكاكي** أنه تناول فيه التراكيب والجمل، وأشار إلى الإفادة (أي أداء المعنى) وهذا جانب نحوي، ثـــم ذكر ما يتصل بذلك من الاستحسان وغيره، وهذا جانب بلاغي فـــنّي. ثم ذكر الداعي إلى مراعاة هذين الجانبيْن، وهو الاحتراز عن الخطأ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال. ومعنى ذلك أنّ الدراسة النحوية تشترك مع الدراسة البلاغية – ويظهر هذا الاشتراك من خلال علم المعانـــي – من أجل أداء الكلام وفق ما تقتضيـــه حال المخاطَب.. ومن هذا نستخلص انّ **السكاكي** في تعريفه لعلْم المعانـــي كان يراعي جانب النحو، وهو في رأينا أفضل وأدلّ من عبارة **القزويني** الشاملة لأحوال اللفظ من غير توضيح. وهذا على عكس

---

(١) – السكاكي: مفتاح العلوم: ص٧٠

(٢) – القزويني: الإيضاح: ص ٩

ما يرى بعضهم من أنّ " عبارة **القزويني** أوجز لفظاً وأجمع حدّاً من عبارة **السكاكي** التي تميزت ببعض الطول وإنْ كانت قد أوفت بالغرض." [١]

لقد ركز **السكاكي** على عدة جوانب مهمة تتمثل في خواص التراكيب وتنوعها وتمايزها فيما بينها والمعاني التي تفيدها، مع مراعاة صحة هذه التراكيب، ثم في ما بين هذه التراكيب من التفاضل في الدلالة، وذلك بناء على الاختيارات التعبيرية التي تختلف من متكلم إلى آخر.

ولا بد من مراعاة هذه الجوانب كلها لضمان مطابقة هذه التراكيب لما تقتضيه حال المخاطَب؛ وتلك هي الغاية من البلاغة.

وقد ظلّ البلاغيــون محافظين على هذا التعريف مع شيء يسير من الزيادة أو النقصان. إذْ بقي علم المعاني عندهم هو " أصول يعرف بها أحوال الكلام العربي التي بها يكون مطابقاً لمقتضى الحال، بحيث يكون وفق الغرض الذي سيــق له." [٢] فهذه الأصول تشمل ما تحدّث عنه **السكاكي** من صحة التراكيب وما تفيده من المعاني المتنوعة تبعاً لاختلافها. والغاية من ذلك هي إنما هي مطابقة الكلام لما تقتضيه حال المخاطَب وفق المقامات التي يساق لها الكلام، والأغراض المراد تحقيقها من كل خطاب.

---

[١] د/ سعد سليمان حمودة: البلاغة العربية- دار المعرفة الجامعية – القاهرة- مصر (١٩٩٦م) ص ٣٢٢

[٢] السيد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت – لبنان (١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) ص ٣٩

١

موضوع علم المعاني وفائدته:

موضوع علم المعاني عند البلاغيين هو " اللفظ العربي من حيث إفادته للمعاني الثواني ([1]) التي هي الأغراض المقصودة للمتكلم من جعل الكلام مشتملاً على تلك اللطائف والخصوصيات التي بها يطابق مقتضى الحال." [2]

وهذه المعاني لا تستفاد من الألفاظ المفردة، بل من التراكيب المختلفة كالتوكيد والشرط والاستثناء والقصر، والتقديم والتأخير والحذف والذكر والتعريف والتنكير زالفصل والوصل؛ أو من الأساليب المتنوعة سواء ما كان منها خبريا أو ما كان إنشائياً، أو ما امتزج فيه الخبر والإنشاء.

وهذا يعني أنّ علم المعاني يعنى بدراسة دلالات التراكيب، ويمكن أن نطلق عليه عندئذ (علم التراكيب).

وأمّا الفائدة من دراسة علم المعاني فهي " الكشف عن أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال حتى يكون المقال على قدر المقام." ([3]) أي أنّ المتكلّـــم عندمـــا يستعمل من الظواهر البلاغية ما يدخل تحت إطار علم المعانـــي فإنـــه يسعى إلى أن يكون كلامـــه في لفظـــه ومعنـــاه وفق ما

---

(١) المقصود بالمعاني الثواني: الأغراض التي يساق الكلام من أجلها زيادة على المعاني الأُوَل التي تدل عليها التراكيب في أصل الوضع.. والمعنى الأول يمثله المستوى النحوي للكلام، أما المعنى الثاني فيمثله المستوى البلاغي.

(٢) المرجع نفســـه: ص٣٩

(٣) د/ محمد طاهر الحمصي: مباحث في علم المعاني: ص ٣

يتطابق مع ما تقتضيه حال المخاطَب، ووفق سياقات الكلام وما يحيط به من قرائن وملابسات.

وعبارة (علم المعاني) أطلقها **السكاكي** على ما كان **عبد القاهر الجرجاني** من قبل قد سمّاه (معاني النحو). وقد أعطاه **السكاكي** صفة العلْم لمـــا له م ن قيمة بلاغية فنّـــيّة، وسعـــة في موضوعاته ومجالاته بحيث لا يمكن أن يح اط بـــه.. وهذا العلْم عنده " يدور على الجملة فيبحث مافيها من حذف أو ذكْر، وتقديم أو تأخير، وتنكير أو تعريف، والفرق بين الجملة الاسمية والفعلية. ولا يخرج إلى أكثر من الجملة إلاّ عند البحث في الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب. ويرى **السكاكي** أنّ علم المعاني واسع جدّاً ولا يمكن الإحاطة به أبداً. وذلك لأنّ مبنا على التتبع لتراكيب الكلام واحداً فواحداً، والعثور على ما لكل منها من لطائف النكت مفصلة، لا تـــتمّ الإحاطة بها إلاّ لعلاّم الغيوب، ولا يدخل كنه بلاغة القرآن إلاّ تحت علمه الشامل. " ([1])

وقد أشار بعض البلاغيين إلى الفائدة من دراسة هذا العلْم. فهذا **بهاء الدين السبكي**– وهو صاحب أحد الشروح المفيدة لكتاب التلخيص **للقزويني**– يطرح تساؤلاً حول هذه الفائدة ثم يجيب عليه ببيانها، بعد أن يذكر أنّ علوم العربية اثنا عشر علْماً، وأنّ أصول هذه العلوم أربعة اثنان يتعلّقان بالمفردات، وهما: اللغة والتصريف. ويليهما النحو للمركبات التي

---

[1] السكاكي: مفتاح العلوم: ص ١١٩

هي نتيجة لهما. ثم يليها علم المعانــي.. إذْ يقول عنه : " ولعلّك تقول: أيّ فائدة لعلْم المعاني، فإنّ المفردات والمركبات علّتْ بالعلوم الثلاثة: اللغة والنحو والصرف. وعلْم المعاني غالبه من النحو؟ كــلاّ! إنّ غاية النحويّ أن يترل المفردات على ما وُضِعتْ لــه ويركبها عليها. ووراء ذلك مقاصد لا تتعلّق بالوضع ممّا يتفاوت به أغراض المتكلم على أوجه لا تتناهى. وتلك الأسرار لا تُعْلَــم إلاّ بعلْم المعاني... واعلمْ أنّ علميْ أصول الفقه والمعاني في غاية التداخل." ([1])

مباحث علم المعاني وموضوعاته:

يتفق علماء البلاغة- انطلاقا من عمل **السكاكي**- على أنّ مباحث علم المعاني وموضوعاته ثمانية هي:

١. أحوال الإسناد الخبري
٢. أحوال المسند إليه
٣. أحوال المسند
٤. أحوال متعلقات الفعل
٥. القصر

---

[1] بهاء الدين السبكي: كتاب عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: تحالدكتور عبد الحميد هنداوي – المكتبة العصرية : صيدا – بيروت: ١/ ٤٧ وما بعدها.. (وقد ذكر ذلك مع كلام القزويني عن علم البلاغة بأنّه علم : " به تعرف دقائق العربية وأسرارها، ويكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستارها."

٦. الإنشاء

٧. الفصل والوصل

٨. الإيجاز والإطناب والمساواة

وهذا المنهج الذي سلكه **السكاكي** في تقسيم البلاغة إلى ثلاثة علوم، وارتضاه البلاغيون من بعده ووصلتْنا البلاغة على منواله، قد سجّل عليه الباحثون والدارسون المحدثون مآخذَ متعددة، منها كثرة الأقسام والفروع بما يُذْهِبُ على القارئ متعة تذوّق البلاغة العربية باعتبارها فــنّاً ذا طابعٍ جماليّ ذوقــيّ.. وكذلك فصل هذه العلوم بعضها عن البعض، على الرغم مــمّا بينها من التداخل والتقاطع. وقد غلب على منهج **السكاكي** الاتجاه العقلي المنطقي الذي طغى على مذهب الفن والذوق والإبداع والابتكار في زمانه.

ويرى بعضهم أنّ **السكاكي** " لــم ينجح في هذا التقسيم الذي بناه على المنطق فحصر به موضوعات المعاني حصراً مزّق فيه أوصالها تمزيقاً أفقدها كلّ روح، وباعد بينها وبين ما يتطلبه الفن الأدبي الذي ينبغي أن يعتمد – أول ما يعتمد – على الذوق لا على علم المنطق ومقاييسه العقلية..قسّم مباحث المعاني حسب ركني الجملة – المسند إليه والمسند – وعلى هذا الأساس ذكر التقديم – مثلاً – في المسند إليه مرة، وفي المسند تارة أخرى. وقد فعل هذا في الموضوعات الأخرى كالتأخير، والحذف والذِّكْر، والتعريف والتنكير وغيرها. وكان من الدقة أن يبحث كل موضوع وحده، فيتكلم على التقديم والتأخير في فصل واحد، والذّكْر والحذف في

فصل آخر، والتعريف والتنكير في فصل ثالث. وبذلك تجمع أوصال الموضوع الواحد في بحث يستوفي أجزاءه ويجمع شتاته. أمّا أن يوزع أقسام الموضوع الواحد هذا التوزيع الذي لا مبرر له، ويذْكر عنه في كل باب نتـــفاً يســـيرةً لا تفيد الدارس والناقد شيئاً، فهذا ما لا يمكن الأخذ به والاعتماد عليه. و[إنّ] مقارنة بسيطة بين ما كتبه **السكاكي** في هذه الموضوعات وما كتبه عبد القاهر **الجرجاني** أو ضياء الدين **بن الأثير** لتوضّح مدى إفساد **السكاكي** هذه المباحث والجور عليها. فبعد أن كنّا نقرأ في (دلائل الإعجاز) أو في (المثل السائر) موضوعات فيها ذوْق ومتعة، وفيها ريّ للقارئ لـــما اشتملت عليه من تفصيل وتحليل ومن جمع لأجزاء الموضوع الواحد جمعاً يخرج الدارس منه بنتيجة وفكرة واضحة، بعد هذا كلّه ترانا نقرأ في (مفتاح العلوم) موضوعات فرّقتْ أجزاؤها وتناثرت أوصالها في عدة أبواب لا يخرج الدارس منها إلاّ بصور حائلة وقواعد جامدة... وكانت نتيجة عمل **السكاكي** أنْ بتـــر الموضوعات وشوّه معالمها وما فيها من رونق. وذلك بإحالة القارئ إلى فـــنّ آخر ليجد تكملة الموضوع الذي يقرأ فيه. وكثيراً ما نجد عنده هذه العبارة: (وأمّا الحالة التي تقتضي تأخيره عن المسند فهي إذا اشتمل على وجه من وجوه التقديم كما سترد عليك في الفن الثالث) وغيرها من العبارات." ([1])

---

(1) البلاغة عند السكاكي: ص ١٤٢- ١٤٣

ولكن على الرغم ممّا يوجد من المآخذ على منهج **السكاكي** في تقسيمه لموضوعات البلاغة فإنّ من الإنصاف القول بأنّ **السكاكي** قام بعمـــلٍ عظيمٍ.

وقد شهد له بذلك علماء البلاغة الأفذاذ الذين انكبّوا على مفتاحه شرحاً وتوضيحاً وتوسيعاً. ولم نرهم ردّوا عليه هذا المنهج أو رمـــوه فيه بالتقصيـــر أو بإفساد البلاغة وتمزيقها وتقطيع أوصالها.. مع أنّ هؤلاء كانوا على علْم ودراية بمنهج عبد القاهر **الجرجاني** وابن **سنان** وابن **الأثير**.. وغيرهم. ولكنهم – مع ذلك – لم يقبلوا على عملهم بالشرح والإيضاح والدراسة والتعليق إقبالهم على مفتاح **السكاكي**..

ولقد أثنى عليه العلماء قديماً. إذْ وصفه **ياقوت الحموي** بأنه علاّمة وإمام في العربية والمعاني والبيان والأدب والعروض والشعر، وأنه مكين في علم الكلام وفي الفقه، وأنه متفنّن في علوم شتّى.. ([1])

ثمّ إنّ عصر **السكاكي** عرف بانتشار المنطق الذي امتدّ تأثيره إلى البلاغة كما امتـــدّ إلى سائر العلوم الأخرى..ولا يخفَى أنّ مسيرة التطور العلْمي تقتضي مسايرة العصر بكل خصوصياته.. فما كان **للسكاكي** – والحال هذه – إلاّ أن يطبع أعماله بطابع عصره وبيئتـــه..

وعلى هذا، فإنّ فضل **السكاكي** غيْر خافٍ، إذْ نراه يجمع في مفتاحه موضوعات البلاغة والنحو والصرف والعروض والقوافي.. وقد استطاع أن

---

[1] ينظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي: ٣٠٦/٧ ؛ وبغية الوعاة للسيوطي: ص٤٢٥

يفرض على الكتب التي تلتْه أن تتبع مفتاحَه وتصنع له من حلقاتها وشاحَه.. وألزمها أن تسير على نهجه ولا تحيد عنه إلى يوم الناس هذا.. غيْــر أنّ ما يلاحظ على منهج **السكاكي** في مباحث علم المعانـــي هو أنه قد وقع لديه تداخل في الموضوعات، واضطرّ إلى تكرار بعضها، ومعالجة المبحث الواحد أحياناً أكثر من مــرّة، بحيث يخرج منه إلى مبحث آخر، ثم لا يلبث أن يعود إليه من جديد..

إنّ ما اعتبره بعض الباحثين خللاً لدى **السكاكي** لا يعدو أنْ يكون في المنهج الذي سلكه **السكاكي**، من حيث تصنيفُ المباحث وترتيبُها من جهة، ومن حيث كثرةُ تقسيمها وتفريعها من جهة أخرى. ثمّ امتدّ هذا التأثير إلى الموضوعات والمضامين.

والملاحظ أنّ هذا التداخل يكون أمراً حتمــيّاً في بعض المباحث. فالكلام عن المسند، مثلاً، يكون من حيث تقديمُه تارة ومن حيث حذفُه تارةً، ومن حيث تنكيرُه تارة أخرى.. والتقديم والحذف والتنكير مباحث مستقلّ كل منها عن الآخر.

فلا سبيل إذاً إلى تجنّب هذا التداخل إذا أريد التطرّق إلى هذه الجوانب كلّها. فإمّا أن يتمّ تناول موضوع الإسناد ضمن الموضوعات الأخرى التي ذكرناها، وإمّا أن يتمّ تناول هذه الموضوعات ضمن موضوع الإسناد. أي أنّ **السكاكي** لو تجنّب تكرار موضوعات التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف والذّكْر.. ما كان له أنْ يَسْلَم من تكرار آخر

هو تكرار المسند والمسند إليه بدلاً من تكرار هذه الموضوعات، إذْ يكون الكلام عنهما (أي: المسند والمسند إليه) في كل باب منها. فالتكرار إذاً واقع لا محالة.

وأمّا اختيار **السكاكي** لهذه المباحث في جوهرها، وما أثاره من قضايا حولها في كلّ الفنون فذلك عملٌ حـــريٌّ بأنْ يُشْـــهَد لصاحبه بغزارة العلْم وكثرة الفضل على العربية وطول الباع فيها..

فليس ثمة من أحد قبلـــه تبلورتْ لديْه هذه العلوم واستقرّتْ مصطلحاتها عنده، كما وقع لدى **السكاكي**، وذلك على الرغم من تداولها باستفاضة لدى سابقيـــه **كالخفاجي والجرجاني وابن الأثير والزمخشري والرازي**، وغيرهم من الذين أسهبوا في مسائلها..

تصنيفنا لمباحث المعاني:

هذا التصنيف الجديد الذي نقدمه، نجعل فيه فنون المعاني ضمن تسعة مباحث تسهيلاً للبحث والدراسة.. وذلك بإفراد مبحث خاصّ يتناول الإسناد وحقيقته وركنيْه وما يتصل بهما من القضايا البلاغية وغيرها..

أمّا ما يتعلّق بهما من حيث الحذف والتنكير والتقديم وما يقابل ذلك فيتم تناوله مع متعلقاتهما ضمن الأبواب الأخرى، بحيث نضع كلاًّ في بابه؛ ونجعل مبحثاً للأساليب الخبرية؛ وآخر للأساليب الإنشائية؛ ثم يأتي مبحث الذكْر والحذف؛ ومبحث التعريف والتنكير؛ ومبحث التقديم والتأخير؛ ثم

مبحث القصْر؛ ومبحث الفصل والوصل؛ وفي الأخير يأتي مبحث الإيجاز والإطناب والمساواة.. وذلك على الترتيب الآتي:

١. المبحث الأول: الإسناد وقضاياه
٢. المبحث الثاني: الأساليب الخبرية
٣. المبحث الثالث: الأساليب الإنشائية
٤. المبحث الرابع: الذّكْر والحذف
٥. المبحث الخامس: التعريف والتنكير
٦. المبحث السادس: التقديم والتأخير
٧. المبحث السابع: القَصْر
٨. المبحث الثامن: الفصل والوصل
٩. المبحث التاسع: الإيجاز والإطناب والمساواة

على أن تتناول الدراسة هذه الموضوعات والمباحث من عدة جوانب، فلا تقتصر على الأغراض مثلاً من غير مراعاة لنسيجها اللغوي وسبكها النحوي التركيبي..

كما ينبغي الاهتمام بالتراكيب المختلفة في هذه الأبواب وما تدل عليه من المعاني، وما توحي به من الدلالات. لتكون هذه الدراسة متكاملة مستمَدة من روح العربية مستلهَمة من فنوها الراقية وبلاغتها السامية. أو لنقل بعبارة أخرى: ينبغي أن تجمع هذه الدراسة بين الجوانب اللغوية

والنحوية من جهة، والجوانب البلاغية والنقدية من جهة أخرى، في تكامل وتواشج بين هذه الجوانب كلها.

ولا يفوتنا أن ننــبه على أنّ البحث في المعاني لا يقتصر على هذه المباحث دون غيرها، وإنما يمتد إلى موضوعات أخرى تدخل ضمن هذا الإطار، كالتوكيد والاستثناء والشرط والإثبات والنفي، وغيرها من أشكال التراكيب؛ غير أنّنا ذكرنا ههنا المباحث الرئيسة حرصاً منّا على تسهيل الدراسة لدى الطلاب، مع توضيح فكرتنا في هذا الكتاب.

مباحث المعــاني

مباحث المعــاني

المبحث الأول : الإسنـــاد وقضاياه

تعريف الإسناد وأركانه:

الإسناد هو نسبة أمر إلى آخر أو بناؤه عليه أو وصفه به. وهو في مجال اللغة نسبة اسم أو فعل أو جملة تؤول إليهما- وهذا هو المسنَد- إلى اسم أو جملة تؤول إليه- وهذا هو المسنَد إليه – وينتج على هذه العملية نوع من أنواع التراكيب هو التركيب الإسنادي.إذ المعلوم أن ثمة تراكيب أخرى غير إسنادية كالتركيب الإضافي والتركيب المزجي.فالتركيب الإسنادي إذاً هو ما كان ناتجاً عن عملية الإسناد القائمة على مسند إليه محكوم عليه، ومسند محكوم به. بحيث لا تتحقق الفائدة، ولا يتمّ معنى الكلام، ولا تستقيم الجملة بتمامها إلاّ بوجود هذيْن الركنيْن.

والإسناد هو الحكم والنسبة التامة، بمعنى واحد، ويضم الإخبار والإنشاء والوقوع واللاّوقوع، والإسناد أصله أن يكون للإخبار. فقد قالوا في تعريف الإسناد الخبري: هو ضم كلمة أو ما يجري مجراها إلى أخرى بحيث يفيد أن مفهوم إحداهما ثابت بمفهوم الأخرى، أو منفي عنه.. وصدقه مطابقته للواقع، وكذبه عدمها (١).

إنّ الإسناد يتصل بالمعنى قبل أن يتجسد في اللفظ، فهو على هذا عمل ذهني فكري في المقام الأول. وهو " أهمّ معنى نحوي في النظم، ولا يتمكن المتكلم من تأليف أية جملة ما لم تبْـــن على الإسناد. ومن هنا جاءت

---

(١) – الشريف الجرجاني: التعريفات: ص ٢٣

تسمية النحاة لركني الإسناد: المسند والمسند إليه (بالعمدة) أي أنهما العماد في بناء الجملة. والدليل على ذلك أن المتكلم لا يصل إلى التعبير عن أي جزء آخر يراه مهمّاً غير المسند والمسند إليه، كالمفعولات أو الحال أو غير ذلك مما يدخل في بناء الجملة، ما لم يفكر بالإسناد.." (١)

وعلى هذا فليس الإسناد مجرد قرينة نحوية كما زعم الدكتور **تمام حسان**، وإنما هو باب كبير يشمل سائر الأبواب الأخرى، ولهذا يجب أن يتسع نطاق دراسته أكثر من اعتباره قرينة معنوية. ذلك أنّ القرينة مصاحبة للكلام وليست أساسية فيه، ويؤتى بها للزيادة في إيضاح المعنى وبيان المراد من العبارة، وربما احتيج في ذلك إلى قرينة واحدة أو أكثر لبلوغ هذا الغرض، وربما تمّ الاستغناء عنها إذا لم تكن ثمة حاجة إليها.

والمسنَد في الجملة الاسمية هو الخبر، ويشمل ما كان اسماً صريحاً أو ما كان مصدراً أو صفة أو غير ذلك من فروع الاسم. أمّا المسند إليه فهو المبتدأ سواء أكان مسبوقاً بالنواسخ الحرفية مثل قولنا: (إنّ المحسنَ فائز بالأجر العظيم) أو النواسخ الفعلية، مثل قولنا: (أمسى المريض معافى) أم كان مجرّداً من النواسخ، مثل قولنا: (المحسنُ فائزٌ بالأجر العظيم).

---

(١) د/ سناء حميد البياتي: قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم– دار وائل للنشر/ الطبعة الأولى (٢٠٠٣م) ص٣٢

والمسند في الجملة الفعلية هو الفعْل. أمّا المسنَد إليه فهو الفاعل أو نائبه ، مثل: (فاز المحسنُ بالأجْر ؛ وعوقبَ المسيءُ.) ولا بدّ من هذيْن الركنيْن (المسند والمسند إليه) لوجود الجملة وتمام المعنى وتحقيق الفائدة التواصلية..

هذا، ويصلح الاسم بحسب الوضع أن يكون مسندا أو مسندا إليه. والفعل يكون مسندا لا مسندا إليه. والحرف لا يصلح لأحدهما. فالاسمان يكونان كلاما لكون أحدهما مسندا والأخر مسندا إليه. وكذلك الاسم مع الفعل لكون الفعل مسندا والاسم مسندا إليه. والفعلان، والفعل والحرف لا مسند إليه فيهما ([1]).

وقد يُحْذَف أحد هذيْن الركنيْن، لوجود ما يدلّ عليه في الجملة أو من خلال السياق.ويُحْذَف لغرض التخفيف والاقتصاد في الكلام. وعلى هذا يكون المحذوف منوياً ومقصوداً في المعنى وإنْ غاب لفظه.. وقد يُــحذَف الركنان كلاهما إذا وُجد ما يدلّ عليهما، ويكونان منويــيْن في الكلام بحيث لا يُفْهَم المعنى إلاّ باستحضارهما في الذهن..

أهمية الإسناد وحاجة كل ركن إلى الآخر:

لأهمية الإسناد ودوره في الجملة، أفرد له إمام النحاة "**سيبويه**" بابا خاصا سماه (باب المسند والمسند إليه) إذ يقول: " ..هما ما لا يغنى واحد منها عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بدا، فمن ذلك الاسم المبتدأ، والمبني عليه.وهو

([1])- ينظر همع الهوامع السيوطي: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ج١/ الطبعــة الأولى (١٩٩٨) ص ٤٥ - ٤٦

قولك (عبد الله أخوك ، وهذا أخوك) ومثل ذلك (يذهب عبد الله) فلا بد للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بد من الآخر في الابتداء. ومما يكون بمنـــزلة الابتداء قولك (كان عبد الله منطلقا، وليت زيدا منطلق) لأن هذا يحتاج إلى ما بعده كاحتياج المبتدأ إلى ما بعده. واعلم أن الاسم أول أحواله الابتداء، وإنما يدخل الناصب والرافع سوى الابتداء والجار على المبتدأ. ألا ترى أن ما كان مبتدأ قد تدخل عليه هذه الأشياء حتى يكون غير مبتدأ ولا تصل إلى الابتداء ما دام مع ما ذكرت لك إلا أن تدعه، وذلك أنك إذا قلت (عبد الله منطلق) إن شئت أدخلت (رأيت) عليه فقلت (رأيت عبد الله منطلقا) أو قلت (كان عبد الله منطلقا أو مررت بعبد الله منطلقا) فالمبتدأ أول جزء كما الواحد أول العدد.."(١)

يشير **سيبويه** إلى قوة العلاقة بين ركني الإسناد، ويتناول ذلك على مستوى الجملة الفعلية والجملة الاسمية سواء أكانت مسبوقة بالنواسخ أم تجرّدت منها. فالإسناد لا يزول عن الجملة مهما طرأ عليها من التغيير، لأن الفائدة فيها متأتيــــة لها منه.

وقد قرر النحاة أن كثرة الاستعمال لبعض العبارات تؤدي إلى الإيجاز والحذف، فلكل جملة خبرية أو إنشائية ركنان، مسند ويسمى: محكوما به أو مخبرا به ؛ ومسند إليه ويسمى: محكوما عليه أو مخبرا عنه . وما زاد على ذلك فهو قيد لا يدخل في العملية الإسنادية.. غير أنّ هذا لا

---

(١)- سيبويه : الكتاب: تحقيق: عبد السلام محمد هارون/ ط: دار الجيل بيروت: ١/ ٢٣

يعني أنّ ما سوى المسند والمسند إليه لا قيمة له من جهة المعنى، وإنما المراد بذلك كونه غير أساسي في الإفادة الأصلية المستفادة من العلاقة القائمة بين طرفي الإسناد. لأننا إذا نظرنا إلى المعنى العام للتركيب فإننا قد نجد ما يسمى بالقيد، أو ما يسمى بالفضلة هو المقصود من الكلام، ويكون الإسناد حاصلاً من أجل بلوغ المعنى المستفاد ممّا هذا القيد أو الفضلة.

والدلالة التركيبية هي كل لا يتجزأ، فعلاقة الإسناد هي علاقة واحدة، بمعنى أنه لا يتصور مسند دون إسناد حتى يتصور الفصل بينهما وردّ كل منهما إلى جهة غير التي يرتد إليها الآخر.

فالكلمة المفردة لا توصف بحقيقة أو مجاز خارج النظم، ومقتضى ذلك أن الكلمة التي تشغل موقع المسند، لا توصف بالحقيقة أو المجاز لذاتها، بل لعلاقتها مع ما ألفت معه وأسندت إليه. والعلاقة الإسنادية هي إحدى علاقات النحو، وتلك العلاقات هي أنماط عقلية مجردة لا تتبدى إلا في كلام ولا تتجسد إلا في لغة منطوقة. (١)

وينبغي التفريق بين نوعين من الإسناد: أحدهما جملة والآخر مركب اسمي يعد عنصرا في جملة. ويسمي بعضهم النوع الأول "بالإسناد الجملي" وتحته أنواع. ويسمي الآخر "بالإسناد الإفرادي" فالإسناد الجملي هو الرابطة المعنوية الكبرى بين طرفي الإسناد ولو تجرد الكلام من الإسناد (٢)

---

(١)- د/حسن طبل: المعنى في البلاغة العربية: دار الفكر العربي/ ط١(١٩٩٨م) ص ١٠٥

(٢)- د/ محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية ،دار غريب (٢٠٠٣) ص ٧٨

وظيفة المسند بالنسبة إلى المسند إليه:

يختلف منهج النحاة عن منهج البلاغيين في هذه المسألة. فالنحاة يرون أن المبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين فأيهما قدمت فهو المبتدأ.. أمّا البلاغيون فمذهبهم أن الخبر هو "المسند" دائماً لا يتغيّر بتقديم أو تأخير أو تعريف أو تنكير.. ذلك أنّ المسند إليه موصوف بالمسند. فالمبتدأ موصوف بالخبر، والفاعل موصوف بالفعـــل.. وليس في عرْف أن يكون الابتداء بالصفة قبل ذكْر موصوفها. وعلى هذا فمذهب البلاغيين في هذه المسألة هو الراجح.. ويرى **الفخر الرازي** أنّ المبتدأ موصوف، والخبر صفة، وكما وجب أن يكون أحدهما في الوجود أولى بأن يكون موصوفا، والآخر بأن يكون صفة ، فكذلك اللفظ فإن قلنا (الله خالقنا) و (محمد نبينا) فالخالقية صفة الله تعالى. والنبوة صفة لمحمد صلى الله عليه وسلم...([1])

إنّ الإسناد يُدرَك من جهة المعنى، لذا وجب النظر إليه من هذه الجهة لا من غيرها. فالمسند إليه موصوف بالمسند، ومخبَر عنه به، ومحكوم عليه به. وبهذا نستطيع التمييز بينهما.لا بتقديم هذا أو تأخير ذاك. إذ التقديم والتأخير لا يكونان إلاّ لغرض معين وهدف مقصود.

وعلى هذا الأساس فليس من الصواب، في نظرنا، ما ذهب إليه النحاة من أنّه يُبْـــتَدأ بالنكرة إذا كانت معتمدة على نفي أو استفهام – حتى وإنْ كانت صفة – كما في قوله تعالى على لسان أبي إبراهيم الخليل

([1]) د/ رجاء عيد: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور: منشأة المعارف بالإسكندرية: ص ٦٥

عليه السلام: ﴿ قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ﴾ [مريم/٤٦] فقد اعتقدوا أنّ الصفة " (أراغب) مبتدأ، و(أنت) رفع بفعله وهو الرغبة، ويسدّ مسدّ الخبر، وحسُن الابتداء بنكرة لاعتمادها على ألف الاستفهام قبلها." (١) أي أنّ (أنت) فاعل لـ(راغب) وخبر له في الوقت نفسه. وبهذا تكون الصفة (راغب) مؤدية لوظيفتيْن هما: وظيفة الفعل ووظيفة المبتدأ..والصواب أنّ (راغب) ما دامت صفةً – على ما قدّمْنا – فهي التي تؤدّي وظيفة المسند (خبر مقدم) الذي يُخبَر به عن المسند إليه. و(أنت) مسند إليه (مبتدأ مؤخر)، مخبَر عنه بـ(راغب).وقد تقدّمت الصفة (المسند) على الموصوف (المسند إليه) لغرض التعبير عن التشديد في إنكار الأب على ابنه تلك الرغبة والعزوف عن الآلهة التي كان يعبدها آباؤه..ذلك أنّ المخاطَب المقصود الذي وجّه إليه الكلام معروف، لكنّ الصفة التي تميّز بها- وهي الرغبة عن الأوثان والأصنام – هي الأمر العظيم الذي وقع التشديد والإنكار على إبراهيم من أجله. فجاء هذا الأمر العظيم مقدّماً في الذّكْر تبعاً لتقدّمه في نفس المتكلم، وهو الأب المنكر. ولذلك فالاستفهام هنا ليس على حقيقته، وإنما سيق لغرض بلاغي ومعنى في نفس المتكلم يريد التعبير عنه، وهو الإنكار..

---

(١) – أبو محمد مكي القيسي القيرواني(ت: ٤٣٧هـ): مشكل إعراب القرآن– تحقيق وتعليق : ياسين محمد السواس– اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع/ ط٢ (١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) ص ٤٣٠

وإذا كان المعنى هو مناط الفائدة التي تفرزها الدلالة التركيبية في الكلام، فمن الطبيعي أن يكون الإسناد أهم وسائله والخصيصة الجوهرية في الدلالة عليه وعلى هذا الأساس تنقسم الكلمة عند الجرجاني إلى قسمين مؤتلف: وهو الاسم مع الاسم والفعل مع الاسم . وغير مؤتلف: وهو ما عدا ذلك كالفعل مع الحرف والحرف مع الحرف.. (١)

الإسناد الاسمي والإسناد الفعلي:

ميّز البلاغيون بين نوعيْن من الإسناد: الإسناد الاسمي والإسناد الفعْلي. أي الإسناد باستعمال الجملة الاسمية، والإسناد باستعمال الجملة الفعلية.. فالإسناد الاسمي يفيد ثبوت الحكم للمسند إليه وحسب من غيْر تجدّد واستمرار لهذا الحكْم.. أمّا الإسناد الفعْلي فيفيد – إلى جانب ثبوت الحكْم للمسند إليه تجدّد هذا الحكم شيئاً بعد شيء..

فإذا قلنا "زيد منطلق" فقد أثبتنا الانطلاق من غير تجدد. أمّا إذا قلنا "زيد ينطلق" فهذا يدلّ على أنّ الانطلاق يقع من زيد متجدداً شيئاً بعد شيء. أي أنّ فعل الانطلاق يقع مرة بعد أخرى.. وهذا التجدد في الإسناد الفعلي متأتٍّ له من دلالة الفعل الزمنية. إذْ الزمن جزء من الفعل إلى جانب الحدث. وهذا ما لا نجده في الاسم الذي إن دلّ على الحدث لم يكن الزمن جزءاً منه، كما هو الشأن في المصدر مثلاً..

(١) – د/ حسن طبل: المعنى في البلاغة العربية: ص ٦٧

وبهذا يتضح الفرق بين الإسناد باستعمال الاسم والإسناد باستعمال الفعل. وقد علّق على ذلك أستاذنا الدكتور **عبد الحكيم راضي** مبيناً أنه لهذا الفرق بين الفعل والاسم "ارتبط الإخبار بالاسم، أو الوصف به عموماً بالدلالة على ثبات الصفة واستمرارها؛ أمّا الفعل فبسبب ارتباطه بالزمن، ولما تصوّروه من أنّ الزمن يخضع لعملية من التحوّل، يكون مستقبلاً ثم يصبح حاضراً ثم ماضياً، أي يوجد بعد أن لا يكون موجوداً، ثم ينتهي بعد حال الوجود.. لهذا التصور للزمن ولارتباط الفعل به، أي حدوثه في زمن ما، قيل إنّ الفعل يدل على الحدوث والتجدّد، فالحدوث يعني انه يوجد بعد أن لا يكون موجوداً، والتجدّد يعني أنه يقبل أن يحْدُث مرة بعد مرة.

ولما كانت الكائنات والأحداث تختلف في صفاقا، ولما كان من المستحبّ في مقام أن يوصف الشيء بصفة تدل على الثبات والاستمرار؛ وفي مقام آخر بصفة تدل على الحدوث والتجدّد. لذلك عقد البلاغيون هذا المبحث للفرق بين الإخبار بالاسم: أي أن يجيء الخبر اسماً.. والإخبار بالفعل: أي أن يجيء الخبر فعلاً.

ويبقى أن نقول: إنهم – أعني البلاغيين – ينسبون نفس الدلالة أو المعنى، أو الإفادة، التي للاسم والفعل، ينسبونها إلى الخبر حين يكون جملة؛ فهذه الجملة قد تكون اسمية، فيحمّلونها دلالة الثبات والاستمرار، وقد تكون فعلية فيحمّلونها دلالة الحدوث والتجدّد." (١)

---

(١)- د/ عبد الحكيم راضي: نصوص بلاغية من مباحث المعاني: ص١٢٢

إنّ الفعل هو الذي يمنح الجملة تلك الدلالة على التجدّد، بما يدلّ عليه من الحدث الذي لا ينفصل عن زمن معيّن يتصل إمّا بالمضيّ أو الحال أو الاستقبال، وهو ما لا يتحقق في الاسم الذي لا يدل على زمن بعينه. وعلى هذا فالدلالة الزمنية للفعل هي الأداة المحركة للحدث، وحركة الحدث هذه هي التي تمنح الجملة صفة التجدد. " فإذا وقع الفعل في جملة الخـــبر أفاد الحدوث في الزمن الماضي إن كان ماضياً، والتجدّد والاستمرار إن كان مضارعاً، والحدوث في المستقبل إن اقتـــرن بما يدل على الاستقبال. أمّا إذا خلت جملة الخبـــر من الفعل فإنّ معنى الثبـــوت يكون غالبـــاً عليها ظاهراً فيها. "(١)

(١)- د/ محمد طاهر الحمصي: من نحو المباني إلى نحو العاني (بحث في الجملة وأركانها): دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق/ ط١ (١٤٢٤هـــ / ٢٠٠٣م) ص١٠٠

المبحث الثانــي : الأسلوب الخبــري

مفهوم الخبر وأقسامه :

الكلام العربي إمّا خبر أو إنشاء.. والخبر هو النبأ الآتي عن المخبر عنه، ويرد في شكل سرد أو وصف أو تقرير أو تأكيد. وهو ما احتمل التصديق والتكذيب. و الإنشاء ما لم يكن كذلك . والحكم على الخبر بصدقه أو بكذبه إنّما يكون بالنّظر إلى مطابقته للواقع ، فإذا كانت النسبة الكلامية (أي : نص الخبر) مطابقة للنسبة الخارجية (أي : الواقع) كان الخبر صادقًا و إن لـــم تحدث هذه المطابقة كان الخبر كاذبا. و مثال ذلك قولنا : **المطر ينـــزل.** فهذا خبر يحتمل أن يكون صادقا إذا كان مطابقا لما في الواقع بأن يكون المطر ينـــزل بالفعل.. كما يحتمل أن يكون كاذبا إذا لم يكن مطابقا لما في الواقع (أي : إذا لم يكن المطر ينـــزل بالفعل).. وقِـــسْ على هذا.

وقد ربط المعتزلة صدق الخبر أو كذبه باعتقاد المخبِر (أي: المتكلّم) فإذا اعتقد صدق شيء ما و أخبر به فهو صادق، حتى و إن لم يطابق الواقع. أمّا غذا اعتقد خطأه و أخبر به فهو كاذب، حتّى و إن كان مطابقا للواقع.

و لم يكتف **الجاحظ** بفكرة الصدق و الكذب في الخبر، إذ اعتبر الخبر أقساما ثلاثة هي: (خبر صادق – خبر كاذب –خبر لا صادق و لا كاذب) فالصادق هو الذي يطابق الواقع مع اعتقاد المتكلم صدقه كما أسلفنا.

والكاذب هو الذي لا يطابق الواقع مع اعتقاد المتكلّم كذبه. وأمّا الذي لا هو صادق ولا كاذب فينقسم إلى أربعة أقسام :

أ – خبر مطابق للواقع مع اعتقاد المتكلّم بأنه مطابق له .

ب – خبر مطابق للواقع دون وجود اعتقاد للمتكلّم بمطابقته أو عدمها .

جـ – خبر غير مطابق للواقع مع اعتقاد المتكلم بأنه غير مطابق له .

د – خبر غير مطابق للواقع دون وجود اعتقاد للمتكلّم بمطابقته أو عدمها

وجاء في كتاب (نقد النّثر) المنسوب **لقدامة** بن جعفر أن الخبر أيّا كان نوعه هو القول الذي يستفيد منه المخْـبَـر به علما بشيء لم يكن معلوما لديه عند إلقاء هذا القول عليه. و أن الصدق في الخبر هو إثبات شيء لشيء يستحقّه أو نفي شيء عن شيء لا يستحقّه و الكذب عكس ذلك (أي : إثبات شيء لشيء لا يستحقّه أو نفي شيء عن شيء يستحقّه) .

ولا يخرج **ابن فارس** (في كتابه الصاحبي) [1] عن فكرة الصّدق والكذب في الخبر فيرى أنّه ما جاز تصديقه أو تكذيبه. و يضيف على ذلك بأنّه إفادة المخاطب أمرًا [2] في ماض من الزمان أو مستقبل أو دائم كقولنا : (قام زيد، وقائم زيد) . ثم يجعل **ابن فارس** الخبر ثلاثة أقسام هي : الخبر الواجب والخبر الجائز والخبر الممتنع .

أ– فالواجب نحو قولنا (النار محرقة)

ب– و الجائز نحو قولنا (لقي زيد عمْرًا)

---

(١) - الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: ص ١٧٩

(٢) - كلمة (أمراً) هنا ليس المقصود بها فعل الأمر بل معناها (شيئا)

ج- و الممتنع نحو قولنا (حملتُ الجبلَ)

والملاحظ على هذه الأنواع الثلاثة أن التسميات فيها مبنية على الخصائص أو الوظائف أو الدلالات. فخبـــر(النار محرقة) هو واجب من جهـــة أنـــه لا بـــدّ للنـــار من أن تكون كذلك.فهذا من وظائفها أو خصائصها.. وخبر (لقي زيد عمراً) جائز من جهـــة أنّ هذه الجملة مستقيمة مستعملـــة في الكلام العربي، وهي تحمل دلالة واضحة انطلاقاً مـــن حدث واقع.. وخبـــر (حملت الجبل) ممتـــنع من جهـــة أنّ هذه الجملة من الكلام المحـــال غير المستقيم الذي لـــم تستعمله العرب لفســـاد دلالته بسبب عدم إمكانية حدوثه في الواقع..

أركان الجملة الخبـــرية:

أ – المحكوم عليه و هو المخبر عنه (أي المسند إليه)

ب – المحكوم به و هو المخبر به (أي المسند)

– **فمثال الأول** (المخبر عنه) (المسند إليه): المبتدأ واسم النواسخ كان وأخواتها وإنّ و أخواتها في الجملة الاسمية .. والفاعل ونائبه، والمفعول الأول لظن وأخواتها في الجملة الفعلية.

– **ومثال الثّاني** (المخبر به) (المسند):خبر المبتدأ وخبر النواسخ كان وأخواتها وإنّ وأخواتها في الجملة الاسمية. والفعل في الجملة الفعلية، واسم الفعل.

وما زاد على المخبر عنه و المخبر به (أي على ركني الإسناد) فهو قيد في الجملة، ومثال ذلك أدوات النفي، وأدوات الشرط والنواسخ

والمفاعيل والتمييز والحال وضمير الفصل والتوابع . فكلّ منها يقيــد أركان الجملة بمعنى خاص يدل عليه. وهذه كلها أمور زائدة على الإسناد تابعة له، يؤتى بكل منها لغرض معين.

والإخبار يكون بالجملة الاسمية كما يكون بالجملة الفعلية ، فإذا كان بالاسمية يكون التركيز فيه على المبتدأ لتقديمه في الرتبة والغرض من ذلك تمكين المعنى في ذهن المخاطب والتأكيد على المتقدّم بحيث لا يبقى مجال للشّك في غيره. وهذا ما لا يكون في الجملة الفعلية .

ويرى **الجرجاني** أن الفرق بين الإخبار بالاسم والإخبار بالفعل هو أنّ الاسم يثبت المعنى من غير أن يقتضي تجدّده، أمّا الفعل فيفيد إلى جانب تثبيت المعنى تجدّدَه مرّة بعد أخرى، ويضرب مثالا لذلك بقوله تعالى:﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف/١٨] فيرى أنّه يمتنع مجيء الفعل (يبسط) بدل (باسط) لأن ذلك لا يؤدي المعنى المراد إذْ إن استعمال الاسم ههنا (باسط) غرضه إثبات صفة الكلب وهيئته. أمّا الفعل فيجعله يزاول عملا متجدّدا يحدث مرّة بعد أخرى و ليس هذا هو المراد. [١]

(١) - سبق الحديث عن هذه المسألة في مبحث الإسناد وقضاياه.

والخلاصة أنّ الخبر هو ما احتمل التصديق و التكذيب بغض النظر عن اعتقاد المتكلّم لمطابقته أو عدم مطابقته للواقع. فالعبرة في تمييـــز الخبـــر إنما تكون بتحقق المناسبة والاتفاق ، أو عدم تحققهما بين الكلام و الواقع.

أنمـــاط الخبـــــر:

للخبر أنماط عديدة، فقد يرد في شكل سرد أو وصف أو تقرير.. وقد يأتي مثبتا من غير تأكيد، أو مؤكّدا بإحدى الأدوات، أو مؤكّداً ت،كيداً ضمنياً، أو منفيّا نفْياً صريحاً بأدوات النفي المعروفة.. أو نفْياً ضمنيّاً من خلال سياقات بعض الأساليب كالاستثناء والقصر والاستفهام وغيرها.

كما قد يأتي الخبر اسميا أو فعليا. وقد يجتمع في الكلام الخبر و الإنشاء معا، وتكون الجملة خبريـــة لغلبة الخبر على الإنشاء في المعنى، وقد يغلب الإنشاء على الخبـــر فتكون الجملة إنشائية؛ هذا في حال اشتراكهما في المعنى. أمّا إذا لم تشتركا فيه فتكون كل منهما مستقلة بخبريتها أو إنشائيتها.

أضرب الخـــبر :

يتحدّد ضرب الخبر بالنظر إلى حال المخاطب وذلك على النحو الآتي:

إذا كان المخاطب خالي الذهن من مضمون الخبر الذي يلقى إليه، فإنّ الخبر في ذه الحال يلقى إليه خاليا من المؤكّدات، وهذا الضرب من الخبر يسمّى: **الخبر بتدائي** ومثال ذلك من النثر ما كتبه **معاوية** إلى أحد عمّاله قائلا :

" لا ينبغي لنا أن نسوس النّاس سياسة واحدة لا نلين جميعا فيمرح النّاس في المعصية و لا نشتدّ جميعا فنحمل الناس على المهالك، و لكن تكون أنت للشدّة والغلظة و أكون أنا للرأفة والرحمة ".

ومثاله من الشعر قول **المتنبي**: [من البسيط]

لا اشرئب على ما لم يفُتْ طمعاً **ولا أبيتُ على ما فالت حسرانا

أمّا إذا كان لدى المخاطب بعض الشّك أو التردّد أو الحيرة في مضمون الخبر الذي يلقى إليه وفي مدى صحّته فإنّ المتكلّم يسعى إلى إزالة ذلك الشّك أو التردّد أو الحيرة من ذهن المخاطب فيعمد إلى تدعيم الخبر بمؤكّد واحد، لأنه كاف لتحقيق ذلك.وذلك ما تتطلبه حال المخاطَب. ويسمّى الخبر عندئذ : **الخبر الطلبي**. ومثاله هذا الضرب من الخبر في القرآن الكريم قول الله تعالى:﴿ إنّ الله لا يغفر أن يُشرَك به و يغفر دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء/٤٨] ومثاله من الشعر قول **النّابغة:** [من الطويل]

ولستَ بمستبق أخاً لا تَلُمُّه ** على شعث أيُّ الرجال المهذّبُ ؟

وأمّا إذا كان المخاطب يعلم الخبر، لكنه على درجة كبيرة مـــن الـــشّك والتردّد إلى درجة إنكار مضمون الخبر، أو اعتقاد خلافه. فإنّ المـــتكلّم يحتـــاج عندئذ إلى أكثر من مؤكّد واحد، لإزالة هذا الإنكار من ذهن المخاطب. ويسمى الخبر في هذه الحال **الخبر الإنكاري**. ومثاله من القرآن الكريم قولـــه تعـــالى:﴿ لتبلونّ في أموالكم وأنفسكم ولتسمعُـــنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن

الذين أشركوا أذىً كثيراً وإنْ تصبروا وتتقوا إنّ ذلك من عزم الأمـــور﴾ [آل عمران/١٨٦]. ومثاله من الشعر قول أحدهم : [من السريع]

والله إنّي لذو همّـــة ** تسمو إلى المجد ولا تفتر

تـــنبـــيـــه:

يلاحَظ أنّ خلوّ ذهن المخاطَب من مضمون الخبر يقابله خلوّ الخبر من المؤكدات. كما نلاحظ أنّ وجود بعض الشك والتردد لدى المخاطب حول مضمون الخبر يقتضي وجود قدْر قليل من التوكيد يناسب درجة الشك والتردد عند المخاطب. أمّا إذا ازداد الشك والتـــردد لدى المخاطب حتى بلغ درجة الإنكار فإن ذلك يقتضي الزيادة في التوكيد بقدر كبيرٍ يزيل هذا الإنكار فالذي يظهر ههنا هو تلك الملاءَمة والملازمة بين حـــال المخاطب وضـــرب الخبـــر الذي يُـــلْقَى إليه.

خروج الخبر عن مقتضى الظاهر:

قلنا إنّ ضرب الخبر يتحدّد بحسب ما تكون عليه حال المخاطب، فهي المرجع في ذلك ليكون الخبر ابتدائيًّا أو طلبيّا أو إنكاريّا.. ولكن لا يمكن حصر الكلام الخبري البليغ في هذه الأضرب الثلاثة إذ إنّ مردّ هذه الأنواع الثلاثة إنّما هو إلى الحالة الذهنية الظاهرة للمخاطَب.. لكنّنا قد نجد الخبر يخرج عمّا تقتضيه حال المخاطب الظّاهرة من الأوضاع المذكورة، فيحْدث أن يخاطَب خالي الذهن بخبر طلبي أو إنكاري، أو يخاطَب المنكر بخبر ابتدائي أو طلبي. وما إلى ذلك من تنوعات الخبـــر على غيْـــر ما يبـــدو من حال المخاطب.

غير أنّ ذلك لابدّ أن ترافقه قرائن معيّنة، قد تكون حالية وقد تكون لفظية.. فلا يكون إذًا إلاّ لاعتبارات بلاغية تفهم من السيّاق، وهي التي تكشف الحال الحقيقية غير الظاهرة للمخاطَب.

ولذلك فإنّنا نجد الخبر عندئذ مطابقا لما تقتضيه الحال غيـــر الظاهرة للمخاطَب؛ وتكون هي الحال الأصلية. وعليه فلا خروج عن القاعدة التي مفادها: أنّ البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

مثال على ذلك :

مخاطبة المنكر للخبر بخطاب خالي الذهن: في قولنا للمسلم الذي لا يصوم رمضان وينكر ذلك : (فرض الله علينا صوم رمضان) خبر خالٍ من المؤكّدات على الرغم من كونه موجّها إلى مخاطَب منكِر له. والقرينة المسوِّغة لعدم توكيد الخبر ههنا هي كون المخاطب مسلمًا يعلم الخبر، ولديه من الأدلة ما يكفي لأنْ يقنعه، فلا داعي إذًا لتأكيد الخبر له لأن ذلك لا يزيده تأثيرًا. بل ليس من البلاغة تأكيد الكلام في موضع لا يحسن فيه التوكيد. وهذه قرينة حالية تجعل الخبر يخرج عمّـــا تقتضيـــه حال المخاطَب الظاهرة إلى حال خفية يوجد ما يدل عليها فيما يرافق الكلام من القرائن.

وهكذا تتعدّد الأمثلة بحسب القرائن المرافقة للكلام والسياقات التي من خلالها تعرف الحال الحقيقية للمخاطب إنْ ظاهرة أو غير ظاهرة .

أمثلة عن خروج الخبر عن مقتضى ظاهر حال المخاطب:

يمكن أن نستنتج عدة أضرب أخرى للخبر حيث يكون على خلاف ما تقتضيه الحال الظاهرة للمخاطب، وهذه الأضرب ناتجة من تداخل الأضرب الثلاثة المعروفة التي سبق الكلام عنها. وسنذكر بعضاً من هذه الأضرب التي يتم تحديدها وفق حال المخاطَب غير الظاهرة:

– **مخاطبة منْ يعلم الخبر وينكره بخطاب الجاهل به، وذلك لعلمه بما تضمّنه:**

ومثال ذلك قولنا للطالب الذي لا يهتم بتحصيل العلْم : " أفضـــل شيء يرفـــع شأنك هو تحصيلك للعلْم وجدّك فيه." فهذا خبر خالٍ من أدوات التوكيد، لأنّ المخاطَب يعْلم الخبر وما تضمّنه. فلا داعي لتأكيده له، لأنّ ذلك ليس من بلاغة القول. كما أنّ الموجود من الأدلة بالرؤية والمشاهدة والمعايشة ما يغني عن تأكيد الكلام بالأدوات.

– **مخاطبة خالي الذهن (الذي لا يعلم الخبر) بخطاب الشاكّ المتردّد :**

مثال ذلك قول **بشّار:** [من الخفيف] في عجُز البيت:

بكّرا صاحبيّ قبل الهجير ** **إنّ ذاك** النجاح في التبكير

فقد استعمل الشاعر كلاماً مؤكداً في عجُز هذا البيت، مع أن الخبـــر ملقَـــى إلى من لا علم له بالخبر قبل إلقائـــه.. ولمّا سئل بشار عن سبب توكيد كلامه من غير داعٍ إلى ذلك قال: " إنّما قلتُها أعرابية وحشية." (١) أي أنّـــه

---

(١) - ضمير الهاء في: (قلتها) عائد إلى القصيدة التي أراد الشاعر أن يأتي بها على طريقـــة الكلام البدوي الأكثر توكيداً ومتانة في أسلوب التعبير .

أراد التعبير بلغـــة عرب البادية الذين يميلون إلى تأكيد الكلام، والحرص على بلوغ الوصية. فجاء كلامه مؤكداً على الرغم من عدم وجود منكر لخطابه.. فالقرينة المسوغة لتأكيد الخبر هنا هي الحرص على ترسيخ مضمون الخبر وتثبيته في ذهن المخاطَب، وذلك لأهمّيته عند المتكلم.وهي قرينة حالية.

ومثاله ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ يا أيّها الناس اتقوا ربّكم **إنّ** زلزلة السّاعة شيء عظيم.﴾ [الحج/٠١] فالله سبحانه ينبـــه الناس على أهمّيـــة ما تضمّنته الآية من الالتزام بالتقوى قبل فوات الأوان وحلول هول قيام الساعة. فجاء الخبر مؤكّداً لهذا الغرض.. كما أنه تضمن تذكير الناس بيوم اللقاء ولحساب حتى لا يغفلوا عنه. وهذا اعتبار يدل على أنّ الناس يعرفون هذا الأمر، ولكنهم يغفلون عنه فلا يستعدّون له.

٣- مخاطبة خالي الذهن بخطاب من يعلم الخبر وينكره: ويكون ذلك عندما يتطلّب الخبر بعض التأمل والتمعّن فيه، أو عندما يأتي تبشيرا بأمر كبير الأهمّية بالغ القيمة والشأن؛ ومثال ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ ألا إنّ أوليّاء الله لا خوف عليهم و هم يحزنون.﴾ [يونس/٦٢] فهذا خبر إنكاري في ظاهره لاشتماله على مؤكّدين اثنين هما (**ألا** و **إنّ**) غير أنّه بعد التمعّن في الآية الكريمة نعلم أنّ أولياء الله لا ينكرون هذا الخبر، إذْ هم يصدّقون بأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فهذا التأكيد إذاً ليس لإزالة الإنكار من أذهان المخاطبين. وهذه القرينة الحالية، هي التي تبيّن لنا

أن الخبر جاء مؤكّدًا بمؤكّدين لا لإزالة إنكار المخاطَب، وإنما لبيان أهمّيّة الخبر وما يحمله من البشرى وخير الجزاء الذي هو ثابت لأولياء الله.

ومنه أيضاً قوله تعـالى: ﴿ ثمّ إنّكـم بعـد ذلـك لميّتـون﴾ [المؤمنون/١٥] فالمخاطبون لا ينكرون ذلك لكنّهم يتـصرّفون وكـأنّهم سيخلدون. فلهذا الأمر البالغ الأهمية جاء الخبر مؤكـداً بمؤكدين. وكأنه موجه إلى من ينكره. وما هو إلاّ تعبير عن أهمّية وعِظَم ما تتضمّنه الآية من التذكير بنهاية الإنسان وبعثه ونشوره.

٤- **مخاطبة منكر الخبرِ بخطاب خالي الذهن:** وذلك إذا كان الخبر بطبيعته مستغنياً عن التوكيد، أي أن يكون مؤكّداً بمضمونه من غير حاجـة إلى أداة لتوكيده. ومثال ذلك قوله تعالى:﴿ وإلهكم إله واحد﴾ [البقرة/١٦٣] فوحدانية الله أمر مؤكّد بما يدلّ عليه من ظواهر الكون وعلامات القدرة والجبروت، وذلك بما لا يحتاج إلى توكيد بالأداة. حتى وإنْ كان المخاطَب منكراً لهذا الخبر، فإنّ هذا الخبر لا يحتاج إلى تأكيد لفظي لأنـه مؤكَّـد بمضمونه أقوى تأكيد.

٥- **مخاطبة المنكِر للخبر بخطاب المتردّد:** وذلك إذا كانت درجة إنكاره قليلة. أو كان المؤكّد الواحد كافياً لتحقيق غرض المتكلم من الخبر. ومنه قوله تعالى:﴿ ثمّ إنّكم يوم القيامة تبعثون ﴾ [المؤمنون/١٦] ففي هذه الآية مؤكد واحد هو (إنّ) مع أنّ الخطاب موجه إلى من قد ينكرون البعث.

وقد اُكْتُفِيَ بمؤكد واحد لكونه كافياً لإبلاغ المنكرين، فإذا ما حكّموا عقولهم أدركوا هذه الحقيقة..

مؤكّدات الخـــبر :

الأدوات التي تستعمل في توكيد الخبر كثيرة نوجزها فيما يأتي:

١- إنّ :كقوله تعالى: ﴿ **إنّ** الله لا يغفر أن يُشرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[النساء/٤٨]

ومن الشعر قول بعض العرب: [من الرجز]

فغنّها وهي لك الفداء ** **إنّ** غناء الإبل الحُداء

٢- لام الابتداء : كقوله تعالى ﴿ إنّ ربّي **لـــــــ**ـسميع الدّعاء﴾

[إبراهيم/٣٩] ومثال ذلك من الشعر قول أحدهم:[من الكامل]

إنّ الكلام **لــ**ـفي الفؤاد وإنما ** جُعلَ اللسان على الفؤاد دليلا

٣- أمّا الشرطية : كقوله تعالى:﴿ فــ**أمّا** الذين آمنوا فيعلمون أنّه الحقّ من ربّهم و**أمّا** الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ [البقرة/٢٦]

ومن الشعر قول أحدهم: [من الطويل]

و لم أر كالمعروف أمّا مذاقه ** فحلْوٌ وأمّا وجهه فجميل

٤- قد التي للتحقيق:(يأتي بعدها فعل ماض) كقوله تعالى:﴿ **قد** أفلح المؤمنون﴾ [المؤمنون/٠١]

٥- ضمير الفصل : كقوله تعالى : ﴿ إن الله **هو** الرزّاق ذو القوّة المتين .﴾ [الذاريات/٥٨]

٦ – **القَسَم** بحروفه الثّلاثة:(الواو ، التاء ، الباء)كقوله تعالى:﴿ **وتـــالله** لأكيدنّ أصنامكم ﴾ [الأنبياء/٥٧] أو باستعمال لفظ آخر مثل (لعَمْر.)

ومثاله من الشعر قول الشّاعر **لبـــيد** : [من الطويل]

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى** ولا زاجرات الطير ما الله صانع

٧– **السين** : كقوله تعالى : ﴿ أولئك **ســـــ**يرحمهم الله .﴾ [التوبة/٧١]

ومثال ذلك من الشعر قول **المتنبي** مفتخراً على خصومه أمام الأمير سيف الدولة الحمداني: [من البسيط]

ســـيعلم الجمع ممّن ضمّ مجلسنا ** بأنّني خير من تسعى به قدمُ

٨– **سوف** :كقوله تعالى:﴿كلا **سوف** تعلمون ثم كلاّ **سوف** تعلمون ﴾ [التكاثر/٣–٤] ومنه قول الشّاعر: [من الطويل]

وكل أناس سوف تدخل بينهم ** دويهية تصفرّ منها الأنامل

٩ – **نونا التوكيد** (الخفيفة و الثّقيلة) كقوله تعالى:﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنـــ**نّ** و ليكو**نًا** من الصّاغرين ﴾ [يوسف/٣٢]

١٠– **حروف التّنبيه** (ألا ، هلا ، ها ، أما ، ما) كقوله تعالى: ﴿ **ألا** إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس/٦٢].

ومن ذلك قول الشاعـــر: [من الطويل]

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ** وكل نعيم لا محالة زائل

١١– **الحروف الزّائدة:** مثل: (إنْ ، أنْ ، ما ، لا ، الباء ، منْ) وهي زائدة لفظاً لا معنى لأنها تؤدّي وظيفة التوكيد. وفيما يأتي بيان ذلك:

- **أَنْ** (بفتح الهمزة و سكون النّون): تزاد بعد لمّا: كما في قوله تعالى:﴿فلمّا **أنْ** جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدّ بصيرا ﴾ [يوسف/٩٦]

- **إنْ** :(بكسر الهمزة و سكون النّون) كقولنا: ما **إنْ** حضر الخطيب حتى صعد المنبر وأخذ الكلمة.

- **مـــا** : كقول **الشّابي**: [من المتقارب]

إذا ما طمحت إلى غاية ** لبست المنى وخلعت الحذر

- **لا**: كقوله تعالى: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الحديد/٢٩] وقوله تعالى:﴿ فَــ**لا** أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ [الواقعة/٧٥]

- **مِنْ** : كقوله تعالى : ﴿ما تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ **مِن** تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى **مِن** فُطُور ﴾ [الملك/٣]

- **الباء** : كقوله تعالى ﴿ لّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ.﴾ [الغاشية/٢٢].

ويضاف إلى المؤكّدات السّابقة تراكيب وأساليب أخرى تؤدي وظيفة توكيد معنـــى الخبر ومضمونـــه :كالتقديم والقصر و التكرار. وتستعمل بحسب المقام والسياق والقرائن المحيطة بالكلام.

أغراض الخبـــــر :

أولا : الغرض الحقيقي من الخبـــر:

الغرض من الخبر بمختلف أنماطه **هو إفادة المخاطب** بما تضمّنه، وهو غرض مباشر يتعلّق بالحالة التي يكون فيها المخاطب جاهلا لمضمون الخبر

قبل إطلاقه، أو قبل اطّلاعه عليه، فيكون إلقاء الخبر إليه من أجل إفادته بأمر جديد ليعلمه.ويسمى هذا الغرض عند أهل البلاغة **فائدة الخبـــر.**

ومثال هذا قول **عمر رضي الله عنه:** « الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه.» . فهو يقدّم خبراً عن شيء علمه وتوصل إليه، وأراد أن يُعْلم به غيره.

والغرض الثّاني من الخبر غير مباشر ويتعلّق بالحالة التي يكون فيهـــا المخاطَب عالما بمضمون الخبر قبل إطلاقه، غير أنّه (أي: المخاطب) لا يعلـــم أن المتكلّم عالم بالخبر. فيكون إلقاء الخبر من المتكلم إلى المخاطَب عندئذ لا لإفادته بأمر جديد، وإنّما لإفادته بالأمر الذي لزم هذا الخبر وهـــو إعـــلام المخاطَب بأنّ المتكلّم يعلم الخبر ويقع في نفسه موقعا معيناً. ويسمّى هـــذا الغرض عند أهل البلاغة **لازم الفائدة.**

ومثال ذلك قول **أبي الطيّب** في سيف الدّولة: [من الطويل]

وقفت وما في الموت شك لواقف ** كأنك في جفن الردى وهو نائم

فالأمير سيف الدولة كان يعلم ما يقوله **المتنبي،** إذْ كان يدرك وجوده في موضع الخطر وهو في قلب المعركة. لكن المتنـــبي ما أراد أن يخبره بهذا الذي يعرفه، ونما أراد أن يبين له أنه (أي: المتنبي) يعْلم ذلك الموقف من سيف الدولة ويقدّره أيّما تقدير، لأنه موقف الأبطال. ويعزز هذا القول ما جاء في بيت آخر من القصيدة نفسها، وهو قوله: [من الطويل]

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة ** ووجهك وضّاح وثغرك باسم

ممّا سبق نتبين أنّ الغرض من الخبر في الأصل يتمّ تحديده بحسب ما تكون عليه حال المخاطب، وهو إمّا غرض مباشر، يتصل بإعلام المخاطَب بالخبر، ويسمّى فائدة الخبر. أو غير مباشر، يتصل بعلْم المتكلم بالخبر وإرادة تبليغ المخاطَب بذلك، ويسمّى لازم الفائدة.

ثانياً: الأغراض البلاغية (المجازية) التي يخرج إليها الخـــبر :

يمكن أن يخرج الخبر عن غرضه الأصلي (الحقيقي) إلى أغراض أخرى بلاغيّة (مجازية) تفهم من سياق الكلام والقرائن المحيطة به..

وإذا كنّـــا ندرك أضرب الخبـــر انطلاقاً من حال المخاطَب وما يحيط بها.. فإنّ الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الخبر تُدرك انطلاقاً ممّا تكون عليه حال المتكلّم. أي أنّنا نتعرف على الغرض من الخبر من معرفتنا بحال المتكلم ونفسيته، وما يريد الوصول إليه من المقاصد والتعبير عنه من المعاني. وهذه الأغراض كثيرة أهمّها:

١- **الاسترحام و الاستعطاف** : كقول **إبراهيم بن المهدي** مستعطفاً الخليفة المأمون : [من المجتث]

أتيتُ جرما شنيعا ** و أنت للعفو أهلُ

فإن عفوتَ فمـــنّ ** و إن قتلتَ فعدل

و قول **جريـــر** أيضاً: [من البسيط]

إنّا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ** من الخليفة ما نرجو من المطر

وقول **يحيى البرمكي** مخاطبا **هارون** الرّشيد : [من الكامل]

إنّ البرامكـــة الذيـــ ** ـــن رُمُوا لديك بداهيَهْ
صُفر الوجوه عليهمُ ** خُلَـــع المذلّة باديـــهْ

٢- **إظهار الضعف** : كقوله تعالى على لسان **زكريّاء** :
﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا.﴾ [مريم/٤]

وقول الشّاعر: [من السريع]

إنّ الثمانيـــن وبُلّغـــتُها ** قد أحوجتْ سمعي إلى ترجمان

و قول **المتنبّي** يصف مرضه : [من الوافر]

عليل الجسم ممتنع القيام ** شديد السكْر من غير المدام

٣- **التحسّر إظهار الأسى والألم:** كقول **المتنبّي** يرثي جدّته [من الطويل]

أتاها كتابي بعد يأس و ترحة ** فماتت سرورا بي فمتّ بها غمّا
حرام على قلبي السّرور فإنّني** أعدّ الذي ماتت به بعدها سُمّاً

و قوله في رثاء **أبي شجاع** فاتك : [من الكامل]

الحزن يقلق و التجمّل يردع ** والقلب بينهما عصيّ طّيع
يتنازعان دموع عين مسهّد ** هذا يجيء بهـــا وهذا يرجع

وقول الآخر : [من الطويل]

ولّما دعوت الصّبر بعدك والأسى** أجاب الأسى طوعًا و لم يجب الصّبرُ
فإن ينقطع منك الرّجاء فإنّه ** سيبقى عليك الحزن ما بقـــي الدّهر

٤- **النّصح و التوجيه و الإرشاد** : و مثاله قول **الحطيئة** : [من البسيط]

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ** لا يذهب العرف بين الله والناس

٥ – **الافتخــار** : كقول **عمْرو بن كلثوم** : [من الوافر]

إذا بلغ الفطام لنا صبيّ ** تخرّ له الجبابر ساجدينا

٦– **المدح** : كقول **المتنبّي** : [من الطويل]

أرى كل ذي ملك إليك مصيره ** كأنّك بحر و الملوك جداول

إذا مطرتْ منهم ومنك سحائب ** فوابلهم طلّ وطلّك وابــل

٧– **الهجاء** : كقول الشاعر : [من الطويل]

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذْ عوى ** وصوّت إنسان فكدتُ أطير

٨– **إظهار الفرحة** : كقول الشّاعر : [من الطويل]

هناء محا ذاك العزاء المقدّما ** فما عبس المحزون حتى تبسّما

٩– **الحثّ على السّعي و الجدّ**: كقول شوقي : [الوافر]

وما نيل المطالب بالتمــنّي ** ولكن تؤخــذ الدنيا غلابا

وما استعصى على قوم منال ** إذا الإقدام كان لهم ركابا

١٠– **التهديد و الوعيد** : كقول بشّار : [من الطويل]

إذا ما غضبنا غضبة مضرية ** هتكنا حجاب الشمس أو قطرتْ دما

١١– **التوبيخ** : كقول الشّاعر :[من الطويل]

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني ** وأشمتّ بي مَن كان فيك يلوم

١٢– **الأمر**:كقوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾.[البقرة/٢٣٣]

١٣- النّهي:كقوله تعالى: ﴿لا يمسّه إلاّ المطهّرون ﴾ [الواقعة/٧٧]

١٤-الدّعاء والرجـــاء:كقولنا في سورة الفاتحة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين﴾ [الفاتحة/٥]. ونشير إلى أنّ الأغراض البلاغية من الكثرة بحيث لا يمكن إحصاؤها إحصاءً دقيقاً.. غير أنّ ثمّـــة أغراضاً كثيرة التداول في الكلام العربي وأساليبه.هي التي ذكرناها ههنا. كما نشير إلى أنّ بعض الأغراض قد يقع بينها تداخل، فيحتمل الكلام هذا الغرض أو ذاكْ.. بل قد يحتمل غرضيْن أو أكثر في آن واحد. ولذلك نجد الاختلاف فيها بادياً أحياناً بيْن أهل البلاغة .. ومن جهة أخرى نود لأن نبيّن مسألة تتعلّق بغرض الدعاء والرجاء لم نر من البلاغيين من أشار إليها أو نـــبّه عليها. وهي أنّ الدعاء لا يكون إلاّ إلى الله ، فإنْ كان معه رجاء فهو في معناه (أي في معنى الدعاء).. أمّا الرجاء فقد يكون مع الدعاء كما ذكرنا فيكون من الإنسان إلى الله. وقد يكون من الإنسان إلى الإنسان، فلا يكون حينئذ دعاءً. وقد خلط البلاغيون بيْن هذيْن الغرضيْن فاعتبروا الدعاء رجاءً والرجاء دعاءً في كل الأحوال.

والخلاصة في هذه المسألة أنّ الرجاء يكون من الإنسان إلى الإنسان، وقد يكون من الإنسان إلى الله فيقترب عندئذ من الدعاء أو يقترن به. أما الدعاء فلا يكون إلاّ إلى الله وحسب. وهذا غيْر ما يراه أكثر البلاغيين الذين لا يفرّقون بين هذا وذاك، فيرون كل رجاء دعا. والحق أنّ كلّ رجاء دعاء، ولكنْ ليس كلّ دعاء رجاءً. فالدعاء أخص من الرجاء، والرجاء أعمّ.

المبحث الثالث : الأسلوب الإنشائي

تعريــف الإنشاء وأنواعه :

الإنشاء هو الكلام الذي لا يؤتى به على سبيل الإخبار، و لكن من أجل طلب شيء على سبيل الإيجاب (كما في الأمر) أو على سبيل السلب (كما في النهي) وهو ما لا يحتمل التصديق و التكذيب. لأن النظر فيه يكون إلى الكلام ذاته لا إلى ما يستلزمه من خبر . والإنشاء نوعان : طلبي و غير طلبي.

فالطلبـــي: هو ما استدعى مطلوبا لـــم يكن حاصلا وقت الطلب، وهذا يشمل أقساما خمسة هي(الأمر والنهي والاستفهام والتمنّي والنداء). فهذه كلها أساليب تتضمن معنى الطلب غير أنها تختلف في صياغته.

وأمّا غير الطلبي : فهو ما لم يستدع مطلوبا، وإنما يعبَّر فيه عن حالات نفسية انفعالية نتيجة مشهد من المشاهد، أو حدث من الأحداث الحاصلة. وله صيغ كثيرة أهمّها (القسم والتعجّب والرجاء وصيغ المدح والذّم وصيغ العقود و الجمل المصدّرة بِـ (ربَّ) أو بِـ (كم الخبريّة).

فالملاحَظ أنّ الكلام في الإنشاء الطلبي يكون سابقاً عن حدوث الفعل المطلوب، لأنّ هذا الفعل لا يأتي إلاّ مترتباً على الطلب. أمّا الكلام في الإنشاء غير الطلبي فيلأتي لاحقا لحدوث الفعل الذي لم يترتب على طلب، فيكون عندئذ تعبيراً عمّا يتركه الفعل أو المشهد من أثر في نفس المتكلم.

والإنشاء الطلبي أكثر ثراءً وتنوعاً في معانيه وأغراضه من الإنشاء غير الطلبي، ولذلك حظي باهتمام أكبر لدى البلاغيين. بل إنّ بعضهم عدّ الإنشاء غير الطلبي نمطاً من أنماط الأسلوب الخبري، باستثناء الترجي.

الإنشــاء الطلــبي : أولاً : الاستفهـام

تعريف: الاستفهام أحد أقسام الإنشاء الطلبي، وهو طلب الفهم والمعرفة والعلم بشيء لـــم يكن معلوما من قبْل الطلب .

هذا عن الاستفهام الحقيقي، أمّا الاستفهام البلاغي (المجازي) فلا يساق لطلب الفهم والمعرفة والعلم بالشيء، و إنّما يساق لمعان و أغراض متعدّدة ومتنوّعة تدرك من خلال سياقات الكلام و ملابساته و قرائنه.

أمّا أدوات الاستفهام فكثيرة منها ما هو حرف كـــ (هل) و(الهمزة) ومنها ما هو اسم كأسماء : العاقل (مَنْ) ؛ و غير العاقل (ما) ؛ والتمييز والتعيين (أيّ) ؛ و العدد (كم) ؛ و الحال (كيف) ؛ والمكان (أين) ؛ والزمان (متى) ؛ و (أنّى) التي تكون بأحد ثلاثة معان هي: (متى) و(كيف) و (من أين) ؛ و (أيّان) التي تختصّ بالدلالة على الزمن المستقبل .

أغراض الاستفهام :

سبق القول إنّ الغرض المراد من الاستفهام إذا كان حقيقيا هو طلب الفهم والعلم بالشيء كقولنا: من الفائز بالجائزة ؟ بقصد معرفة الفائز.. فيجاب على ذلك بذكْر اسم الفائز، كأنْ يُقال مثلاً: محمد أو فاطمة.

لكن الاستفهام البلاغي المجازي يساق لإفادة أغراض ومعان متعددة يدل عليها سياق الكلام وقرائنه. ويدرَك ذلك من خلال حال المتكلّم وما ينوي التعبيـــر عنه. وهذه أهمّ أغراض الاستفهام البلاغية (المجازية):

١- **التقرير** : وهو حمل المخاطب على الإقرار بشيء يعرفه. وهذا استفهام منفي يجاب عليه في حال الإيجاب بـــ (بلى) وفي حال النفي بـــ (نعَم).
ومنه قوله تعالى:﴿ أَلَـــمْ منشرح لك صدرك .﴾ [الانشراح/١] والجواب هنا بالإيجاب هو: **بلَى**. ومثاله من الشعر قول جرير : [من الوافر]

ألستم خير من ركب المطايا ** وأندى العالمين بطون راح

٢- **التّحقير** : ويكون الاستفهام هنا دلالة على تحقير المسؤول عنه والاستخفاف به.. ومنه قوله تعالى على لسان الكفّار: ﴿ **أهذا** الذي بعثَ الله رسولا.﴾ [الفرقان/ ٤١]

و قد يكون التحقير للمسؤول نفسه لا المسؤول عنه.ومثالـــه مـــن الشعر قول **المتنبي** يهجو كافورًا : [من البسيط]

من أيّة الطُّرْق يأتي مثلكَ الكرم ** أين المحاجم يا كافور والجلم

٣- **العرض** : وهو الطلب برفق و لين ، ويكون بأدوات الاستفتاح .. ومنه قوله تعالى :﴿ **ألا** تحبّون أن يغفر الله لكم .﴾ [النور/ ٢٢]

٤- **الأمر** : وهو أن يتضمّن الاستفهام أمراً بفعل سيء معين. كقوله تعالى : ﴿ **فهل** أنتم منتهون.﴾ [المائدة/ ٩١] أيْ : انتهُوا.. وقوله تعالى: ﴿ **فهل** أنتم مسلمون.﴾ [هود/ ١٤ و الأنبياء/ ١٠٨] أي: أسلِموا..

٥- **التشويق** : ويكون المراد منه تشويق المخاطب للإقبال على أمرٍ ما. ومنه قوله تعالى:﴿ **هل** أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ [الصف/ ١٠]

٦- **التهديد و الوعيد**: وهو أن يدرك المخاطب من خلال الاستفهام أن التهديد والوعيد موجّهان إليه ..ومنه قوله تعالى : ﴿ **أَلَـمْ** تر كيف فعل ربّك بعادٍ .﴾ فالتهديد هنا للإنسان الذي لـم يعتبر بما قصه الله عليه من قصة عاد وما أصابهم من العذاب لـمّا كذّبـوا.

٧-**التوبيخ والتقريع**:وهو أن يتضمن الاستفهام توبيخا وتقريعًا للمخاطب على أمر اقترفه كقولنا مثلاً: **أَتَـردُّ** الإحسان بالإساءة ؟

٨- **التّهكّم و السّخريّة** : و يكون ذلك بإظهار عدم المبالاة بالمتهكَّمِ منه ، سواء أكان يستحقّ ذلك أم لايستحقه. ومنه قول **المتنبّي**:[من الطويل]

أفي كل يوم تحت إبطي شويعرٌ ** ضعيف يقاويني قصير يطاولني

٩ – **الإنكار**: و يكون ذلك تعبيرا عن عدم الرضى تُجاه أمر معيّن. ومنه قوله تعالى : ﴿ **أتعبدون** ما تنحتون.﴾ فالله تعالى ينكر على العباد أن يعبدوا التماثيل التي ينحتونها بأيديهم، ويعرضوا عن عبادته، وهو سبحانه خالقهم وبارئهم ومصورهم..

١٠- **الاستبعـاد** : وهو استبعاد وقوع أمرٍ ما أو نُدْرَته. ومنه قـول **أبي تمام**[من الكامل]

من لي بإنسان إذا أغضبته ** وجهلتُ كان الحِلمُ ردّ جوابه

١١- **التمـني** : وهو تمني شيء لا يحصل أو يكون حصوله صعبًا، ومنه قوله تعالى على لسان النادمين:﴿ **فهل** لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ﴾ فهم يتمنون أن يجدوا شفعاء، ولات حين شفيع..

ومنه قول أحد الشعراء: [من الخفيف]

يا طيور السماء هل من سبيل ** تصل النفس بالليالي السعيدة

١٢- **التعجّب**: وهو أن يتضــمّن الاستفهام معنـــى التعجّب أو الاندهاش من أمـــر مـــا.. ومنه قوله تعالى على لسان النبي سليمان : ﴿ **مالي** لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين !.﴾ [النمل/ ٢٠] ومثاله من الشّعر قول **كثيّر** عـــزّة : [الطويل]

فيا عجبا للقلب **كيف** اعترافه ** وللنفس لّما وُطّنتْ **كيف** ذلّت

١٣- **النفي** : وهو أن يكون الاستفهام لغرض نفـــي شيء ما.. وفي هذا النوع من النفي قوة تتجلّى في إثبات المعنى بالضـــدّية. كقوله تعالى : ﴿ **هل** جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ﴾ فكأنما قال: (ما جزاء الإحسان إلا الإحسان أو ليس جزاء الإحسان إلا الإحسان) ومثاله من الشعر قول **المتـــنبّي** : [من الكامل]

يفنى الكلام ولا يحيط بفضلكم ** **أيحيط** ما يفنى بما لا ينفد؟

١٤- **التعظيم**: وهو أن يكون التعبير بالاستفهام عن أمر عظيم يستفاد من السياق. ومنه قول **أبي فراس** مفتخراً : [من الوافر]

أضاعوني و**أيّ** فتى أضاعوا ** ليوم كريهة وسداد ثغـــر

١٥- **التحسّر** : وهو أن يكون غرض المتكلم التعبير عن حسرتـــه وأساه. ومنه قول **البارودي** في رثاء زوجته : [من الكامل]

يا دهر **فيم** فجعتني بحليلة ** كانت خلاصة عدّتي وعتادي

١٦- **الاستبطاء** : ويكون تعبيرا عن استبطاء حدوث شيء منتظر، ومثال ذلك قول **البهاء** زهير : [من الطويل]

أمولاي إني في هواك معذّب ** و**حتّام** أبقى في العذاب وأمكث

ومن كذلك قول **المتنبي** : [من البسيط]

حتّام نحن نساري النجم في الظّلَم**وما سراه على خفّ ولا قدَم

هذه أهمّ الأغراض البلاغيّة التي يدلّ عليها الاستفهام المجازي، ومردّ فهمها إلى سياق الكلام وقرائن الكلام وأحواله، ومقاصد المتكلّم ونواياه..

ثانيا : الأمـــر

تعريف : هو طلب القيّام بالفعل على وجه الاستعلاء والإلزام ، فإذا كان الأمر كذلك يسمّى أمرا حقيقيّا و إن لم يكن فيه استعلاء أو إلزام أو كلاهما سمّي أمرا بلاغيّا. والأمر البلاغي هو الذي لا يكون مقصوداً لذاته وإنما يُـــراد بـــه غرض آخر ومعنى غير الذي يظهر فيه.

صيغ الأمر :

أ – فعل الأمر: كقوله تعالى:﴿**خُذْ** من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكيهم بها.﴾

ب – المضارع المقرون بلام الأمر: كقوله تعالى:﴿ **لينفقْ** ذو سعة من سعته﴾

ج – اسم فعل الأمر : كقوله تعالى : ﴿ **عليكم** أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم .﴾ [المائدة/١٠٥]

د – المصدر النائب عن فعل الأمر: ومثاله قول الشاعر **قطري بن الفجاءة**: [من الوافر]

فصبْراً في مجال الموت **صبْراً** ** فما نيْل الخلود بمستطاع

الأمر الحقيقي : هو طلب حصول الفعل على سبيل الاستعلاء و الإلزام – كما ذكرنا – والمراد بالاستعلاء أن يكون الآمر أعلى منزلة من المأمور، فإذا تساويا أصبح الأمر بلاغيّا غرضه الالتماس، وإن كان الآمر أدنى منزلة من المأمور أصبح الأمر بلاغيّا كذلك غرضه الرجاء أو الدعاء([1]). كما ينبغي أن يكون هناك إلزام من الآمر إلى المأمور في الأمر الحقيقي.

([1]) سبق توضيح الفرق بين غرضي: الرجاء والدعاء. في باب الأغراض البلاغية للخبر.

ففي قوله تعالى:﴿ **خذ** من أموالهم صدقة تطهّرهم و تزكّيهم بها.﴾ [التوبة/ ١٠٣] وقوله تعالى:﴿ يا يحيى **خذ** الكتاب بقوّة.﴾ [مريم /١٢] أمر حقيقي فيه استعلاء من الله سبحانه الآمر على أنبيائه وعباده المأمورين. وفيه كذلك إلزام منه لهم بالقيام بما أمرهم به، كما هو الشأن ههنا.

– **الأمر البلاغي (المجـــازي)**: يكون الأمر بلاغيًّا إذا لم يكن فيه استعلاء أو إلزام.. فيخرج عندئذ إلى معان و أغراض بلاغيّة تفهم من سيّاق الكلام وقرائنه. وهذه الأغراض كثيرة أهمها :

١– **الدّعاء**: ويكون الأمر فيه من الأدنى إلى الأعلى.والأدنى هو الإنسان والأعلى هنا هو الله. لأنه لا يُتوجَّـــه بالدعاء إلاّ إلى الله تعالى.

ومثال ذلك قوله تعالى على لسان نوح : ﴿ ربّ **اغفر لي** و لوالديّ و لمن دخل بيتي مؤمنا ﴾ [نوح/ ٢٨] فهذا دعاء من سيدنا نوح عليه السلام إلى خالقه يسأله المغفرة لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمناً. ولا يمكن أن يكون الدعاء موجهاً لغير الله سبحانه.

٢– **النصح و الإرشاد** : وذلك عندما يكون الأمر من أجل توجيه النّصح والإرشاد..كقول **أبي العتاهية** :[من السريع]

نافسْ إذا نافسْتَ في حكمــــة ** آخِ إذا آخيْتَ أهلَ التُّـــقَى

٣– **الالتماس** : وذلك عندما يتساوى الآمر و المأمور في المترلة كقول **امرئ القيس** لصاحبيه: [من الطويل]

قفا نبْك من ذكرى حبيب ومنـــزل ** بسقط اللّوى بين الدخول فحومل

٤- **التمنّي** : ويكون في الأمور التي يستحيل وقوعها أو يصعب. ويخاطَب به عادة من لا يعقل. ومثاله قول الشاعر : [من مجزوء الرجز]

يا ليْل **طـــلْ** يا نومُ **زُلْ** ** يا صبحُ **قفْ** لا تطْلُـــعِ

فالشاعر هنا لا يخاطب الليل أو النوم أو الصبح منتظراً إجابة أو ردًّا على طلبه، وإنما فعل ذلك تعبيراً عن قوة تمنّيـــه لما ذكره في طلبه. والحقيقة أنّ الليل لا يطول والنوم لا يزول والصبح لا يقف عن الطلوع امتثالاً لأمر الشاعر أو انتهاء عمّا نهى عنه. وأمثلة هذا كثيرة في الشعر العربي، وهي من الصور الجميلة التي تعكس أحاسيس الشعراء، وتفصح عمّا في مخيلاتهم.

٥- **التهديد** : و يكون في حال عدم رضى الآمر عمّا يأمر به.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **اعملوا** ما شئتم ﴾ [فصلت/٤٠] فهذا الأمر سيـــق للتهديد، فالله سبحانه عير راض عن كل أعمال المأمورين. فهو يهدّدهم بعد أن نصحهم ورغبهم بما يقيم الحجة عليهم يوم اللقاء.

٦- **التعجيز** : وذلك بتوجيه أمر يعجز عنه المأمور إظهارًا لضعفه. ومنه قوله تعالى:﴿ **فأتوا** بسورة من مثله ﴾ [البقرة/٢٣] فالغرض المستفاد هو أنهم عاجزون عن الإتيان بسورة من مثله.

٧- **التسويّة** : وتكون عندما يتوهّم المأمور أحد أمرين. فيؤتى بها لبيان استوائهما، وأنّ عليه أن يختار أحدهما. كقول **المتنبّي**: [من الخفيف]

عشْ عزيزاً **أو متْ** وأنت كريم ** بين طعن القنا وخفق البنود

٨- **الإباحـــة** : وذلك عند توهّم المأمور أن ما أُمِرَ به محظور عليه، فيؤتَى بالأمر مبيحا له ذلك ومنه قوله تعالى : ﴿ **وكلوا** و **اشربوا** حتّى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾ [البقرة/ ١٨٧] فهنا إباحـــة للصائمين بالفعل الذي تضمّنـــه الأمر. أي بأن يأكلوا ويشربوا إلى بداية ظهور ضوء الفجر.

٩- **الإهانة و التحقير**: ويكون ذلك لاستصغار المأمور والتقليل من شأنه.
كقوله تعالى : ﴿ **ذُقْ** إنّك أنت العزيز الكـــريم .﴾ [الـــدخان/ ٤٩]
فالأمر سيق هنا لأجل الإهانة وتحقير من كان عنيداً يعتقد أنه قوي جبّار لا يُقْهَـــر. فجاء الأمر بهذه الصيغة قصد التصغير من شأنه وبيان عاقبته.

١٠- **التخيـــير**: وذلك عندما يكون المراد بالأمر تخيير المأمور بين شيأين أو أكثر لكن دون الجمع بينهما. ومنه قول **بشّار**: [الطويل]

فعشْ واحدا أو صلْ أخاك فإنه ** مقارف ذنب تارة ومجانبُه

فلا بد للمأمور من العيش وحيدا إنْ كان لا يحتمل من أخيه أي خطأ أو زلل، أو فليكن اختياره قبول أخطاء إخوانه والعيش معهم على ما هم عليه بين الخطأ والصواب. وهذا هو الأحسن.

١١- **الإكرام**: ويفهَم من الكلام عندما يتضمن الأمرُ ما يكرّم به المأمور.
ومنه قوله تعالى : ﴿ **ادْخُلُوهَا** بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر/٤٦] وكذلك قوله تعالى:﴿ **ادْخُلُوهَا** بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾[ق/٣٤] فهذا إكرام من الله لعباده المؤمنين المتقين على ما قدّموا. ويا له من إكرام بدخول جنات الخلود.

ثالثاً : النـّهْي

تعــريف :

النهي هو طلب الكفّ والامتناع عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام. وللنهي صيغة واحدة هي : الفعل المضارع المقرون بِـــ(لا الناهية) الجازمة .كقولنا : **لا تصاحبْ** لئيما و **لا** تعادِ كريمًا .

أغــراض النهـــي :

الغرض الحقيقي من النهي :

الغرض الحقيقي من النهي هو طلب الكفّ عن الفعل بتوفّر شرطي الاستعلاء والإلزام. فالاستعلاء أن يكون النّاهي أعلى منـــزلة من المنهيّ. والإلزام أن يكون مراد المتكلّم (الناهي) هو ما يظهر من كلامه من النهي عن الفعل (أي أن يكون غرضه طلب الكفّ عن الفعل و ليس غير ذلك) فإذا اختلّ أحد هذيْن الشّرطين خرج النهي عن غرضه الحقيقي إلى أغراض بلاغية أخرى.

الأغراض البلاغية (المجازية) من النهي :

قد يخرج النهي عن غرضه الحقيقي إلى أغراض بلاغيّة أخرى تفهم من سيّاق الكلام ، واختلاف القرائن المحيطة به ، و أهمّ هذه الأغراض:

١- **الدّعـــــاء**: وذلك بأن يكون النهي من العبد متّجها إلى خالقه، لغرض دعائه ورجائه. فهو يبدو نهياً في لفظه، وما هو بنهي.

كما في قوله تعالى: ﴿ربّنا **لا** تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾[البقرة/٢٨٦]

٢- **الرّجاء والاستعطاف**: ويكون فيه النهي من الأدنى إلى الأعلى، أو من الضعيف إلى من هو أقوى منه أو من الصّغير إلى من هو أكبر منه، وما شابه ذلك ([1]) ومثاله قول الشاعر : [من البسيط]

لا تأخذنّي بأقوال الوشاة فلم ** أذنبْ وقد كثرتْ فيّ الأقاويل

٣- **الالتماس**: وذلك حين يتساوى النّاهي و المنهيّ في المترلة.ومثاله قول الشّاعر: [من الطويل]

لا تقتليني إنْ رأيت صبابتي ** إليك، فإنّي لا يحلّ لكم قتّلي

٤- **النصح والتوجيه والإرشاد** : وهو أن يكون النهي لغرض توجيه المتكلّم نصحه و إرشاده للمخاطب ليدله على سلوك قويم أو نهج سليم أو سبيل مستقيم، و مثاله قوله تعالى: ﴿ **لا** تسألوا عن أشياء إن تبْدَ لكم تسؤكم.﴾ [المائدة/١٠١] ومنه قول الشّاعر :

ولا تجلس إلى أهل الدّنيا ** فإنّ خلائق السّفهاء تُعدِي

٥- **التمنـــّي** : ويكون بتوجيه النهي إلى غير العاقل للتعبير عن شيء يتمنّاه المتكلّم.. ومثاله قول الشّاعر :

يا ليلة الأنس **لا تنقضي** ** فإنّ الكريم علينا رضي

٦- **التـــيئـــيس**: وهو أن يبيّن المتكلّم للمخاطب أنّه (أي المخاطب) لا يمكنه أن يحقّق شيئا ما ولا يستطيع أن يصل إليه (وكأنّه يقول له: لا داعي لذلك فإنّه أمر ميؤوس منـــه)

([1]) ينظر الفرق بين غرضي: الرجاء والدعاء. في باب الأغراض البلاغية للخبر.

ومثاله قوله تعالى: ﴿**لا** تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم.﴾ [التوبة /٦٦]

والتيئيس قريب من التعجيز وقد يجمع بينـــهما، كما في قول الشّاعر: [من الكامل]

لا تعرضنّ لجعفر متشبّها ** بندى يديه فلست من أنداده

فقد يكون الغرض هنا هو التيئيس على اعتبار أنه لا يمكن للمخاطب أن يصل إلى ما وصل إليه جعفر من الكرم و السّخاء و الجود .. و قد يكون الغرض هو تعجيز المخاطب (أي إظهار عجزه أن يكون مثل جعفر) وهما غرضان متقاربان إلى حدّ أنه يمكن اعتبارهما غرضا واحدا. فيقال إنّ الغرض هو التيئيس والتعجيز.

٧ – **التحقـــير**: وهو ضرب من الهجاء، يقلّل فيه المتكلم من شأن المخاطب ويحطّ من مترلته.. ومنه قول الشّاعر : [من البسيط]

دع المكارم **لا ترحل** لبغيتها ** واقعد **فإنّك** أنت الطّاعم الكاسي

و قول آخر : [من البسيط]

لا تطلب المجد إنّ المجد سلّمَه ** صعب وعشْ مستريحا ناعم البال

٨– **التهديد** : و هو أن يتضمّن النهي إنذارًا و وعيدا و تخويفا من المتكلم للمخاطب إن لـــم يقم بأمـــر ما أو إنْ لـــم يكف عـــن أمر مـــا.

ومثاله قولنا : **لا** تستقم، وتحمّل العواقب.. فالنهي هنا للتهديد، والمراد بـــه: إنْ لـــم تستقم فستكون عواقبك وخيمة، وعليك تحمُّلها..

رابعاً : التمنــي

تعريف : التمنّي أحد أقسام الإنشاء الطلبي، وهو طلب أمر محبّب إلى النفس لا يتوقّع حصوله، إمّا لكونه مستحيلا، أو أنــه لا يُطمع في نيله .

أ- فمن الأول (المستحيل) قول الشاعر: [من الوافر]

ألا **ليت** الشباب يعود يوماً ** فأخبره بما فعل المشيب

فالشباب لا يمكن أن يعود، وإنْ تمــنّاه الشاعر. فلم يبق له إلاّ الحنين إلى هذا الأمر المحبب الذي لم يعُد ممكناً. وقد عادتْ به الذكرى إلى ما كان عليه وهو في شبابه، وما صار إليه بعد أن أدركه المشيب..

ب - ومن الثاني (الذي لا يُطمع فيه) قوله تعالى على ألسنة البعض من قوم قارون: (يا **ليت** لنا مثل ما أوتي قارون.) فامتلاكهم لمال كالذي عند **قارون** أمر ممكن الوقوع، غير أنــه مــمّا لا يُطمع فيه لصعوبته.. وشتان بين ما هو مستحيل، وما هو ممكن لكنه صعب.. هذا عن التمنّي الحقيقي الذي تستعمل فيه الأداة (**ليت**) أمّا التمني البلاغي فيكون بها وبغيرها، كما سنبين:

التمــنّي البلاغــي:

يكون التمنّــي البلاغــي بالأداة الأصلية (ليت) وبأدوات أخرى كثيرة التداول مثل: (هل ، لعلّ ، لو) وكذلك بأدوات أخرى أقل تــداولاً، مثل: (هلاّ ، ألاّ ، لولا ، لوما):

- **مثال عن: (هل ، لعلّ ، ليت)** قول الشّاعر : [من الطويل]

أسِرْبَ القطا **هل** من يعير جناحه ** **لعلّي** إلى من قد هويت أطير

فالشاعر يتمنى لو أنّ في سرب القطا قطاةً تعيره جناحها ليتمكن من الطيران كالقطا حتى يصل إلى مَنْ يهواه. وقد استعمل الأداة (هل) وكأنه يسأل ويبحث عمّا إذا كان ثمة من يعيره جناحه. والغرض من هذا التمنّي هو التعبير عن شدة الشوق إلى المحبوب والمعاناة من البعْد عنه.

ويستعمل الشاعر الأداة (لعلّ) للتمنّي، وهي موضوعة في الأصل للدلالة على الترجّي. لكنها دلتْ ههنا على شيء يستحيل وقوعه من جهة استعارة الجناح من القطا والطيران به.. ودلّتْ على ما يصعب وقوعه من جهة الوصول إلى المحبوب. وكلاهما من قبيل التمنّي.

فالأداة (لعلّ) قد دلّتْ ههنا على التمنّي لا على الترجّي. مع أنها تدلّ في الأصل على ما يُرْجَى وقوعه ويكون تحقيقه ممكناً.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **لعلّ** الله يُحدث بعد ذلك أمراً ﴾ [الطلاق/١]

وكما تستعمَل (لعلّ) للتمنّي بمعنى ليت، كذلك قد تستعمَل (ليت) للترجّي بمعنى (لعلّ) إذا كان الغرض هو تقديم ما يُترجّى كأنه مستحيل، وذلك لإظهار صعوبة نيله وتحقيقه. ومن ذلك قول الشاعر: [من الطويل]

فيا **ليت** ما بيني وبيْن أحبّتي ** من البُعْد ما بيني وبيْن المصائب

فما يتمناه الشاعر ههنا أمر ممكن، وهو يرجو وقوعه ويرنو إليه، غير أنّه يراه أمراً صعب الوقوع. فهو بعيد عن أحبته، ويتمنى بُعْد المصائب عنه بمقدار بُعْد أحبّته. وهذا دليل منه على أنه مشتاق إلى وصل أحبته بعدما

ألّمتْ به المصائب، فانبرى يتذكّرهم ويبدي جزعه من حلول المصائب بـــه. فجاء تعبيره بالحرف (**ليت**) الذي يدل على تمنّـــي ما هو صعب الحصول بالنسبة إليه، بدلاً من الحرف (**لعل**) الذي يدل على رجاء وقوع ما يتمنى لقُرْب حدوثه. وهذه الظاهرة كثيرة في الشعر العربي.

- **مثال عن (لـــو):**

تستعمَل (**لو**) فـــي التمنّي للتعبير عن قيمة الشيء المتمنَّى وأهمّيته في نفس المتمـــنّي. ومثال ذلك قوله تعالى على لسان من تولوا ثمّ ندموا: ﴿ **لو** أنّ لنا كرّة فنكون من المؤمنين.﴾ [الشعراء/١٠٢]

– **مثال عن (هلاّ):** قول **عنترة** : [من الكامل]

هلاّ سألت الخيل يا ابنة مالك ** إن كنت جاهلة بما لم تعْلمي

فعنترة يرجو لو أنّ عبلة سألت عنه الفرسان الذين كانوا معه وشهدوا قوته وشجاعته في مواجهة الأعداء، لتعرف بطولته. فكأنـــه يحثّـــها على ذلك ما دام ممكنـــاً، لو أنـــه حصل فـــي أوانـــه..فالغرض البلاغي المستفاد من (**هلاّ**) في هذا البيت هو أنّ الشاعر أراد التعبير عن رغبته في حصول أمر كان يرجوه، مع إبدائه لهذا الحرص عليه..

تنبيـــهات :

– قد يبدو المستحيل أمرا ممكنا في التمنّي البلاغي، ويقاس ذلك بحسب ما تكون عليه حال المتكلّم (الذي يتمنّى) فقد يبدي حرصه وشغفه بالشيء الذي يتمنّاه حتى لكأنّه أمرٌ ممكنٌ أو قريبُ الوقوع .

- الأصل في التمنّي أن يكون بالأداة (**ليت**) والأصل في الترجّي أن يكون بالأداة (**لعلّ**) وقد يقع التبادل بينهما كما بيّنّا. فتحمل (**ليت**) معنى (**لعل**) وكذلك العكس.. فهما الأداتان الأصليتان في باب التمنّي والترجي.

- وأمّا الأدوات الأخرى فهي فرعية في باب التمنّي.. لأنّها في الأصل إمّا للشرط مثل (**لو**) وإمّا للاستفهام مثل (**هل**). إذْ إنّ بقيـــة الأدوات مأخوذة من هاتـــيْن الأداتيْن. فـــ(**لولا و لـــوما**) مأخوذتان من (**لـــو**). و(**هـــلا و ألا**) مأخوذتان من (**هل**) مع قلب الهاء همزة في (**ألا**).

خامساً : النـــداء

– **تعريف** : النداء من الإنشاء الطلبي. وهو طلب الإقبال بحرف من حروف النّداء ينوب عن الفعل (أدعو) أو (أُنادِي) أو (أطلُبُ) أو ما في هذا المعنى. **وحروف النداء قسمان** :

– ما ينادى به القريب مثل: (الهمزة ؛ أيْ)

– ما ينادى به البعيد مثل : (يا ؛ أيا ؛ هيا ؛ آي ؛ وا)

فمثال نداء القريب قولنا: (**أيْ بُـــنيَّ !** إليك نصيحتي فاعمل بها.)

فالظاهر ههنا أنّ الابن قريب من والده، إذْ ناداه نداء القرْب لا نداء البُعْد. ومثال نداء البعيد قول الشّاعر : [من الطويل]

هيا غائبا عنّي وفي القلب عرشه ** أما آنَ أنْ يحظى بوجهك ناظري

أمّـــا نداء الشاعر هنا فهو نداء البُعْد لا نداء القُرْب. والسياق يزيد ذلك تبـــياناً، إذْ قابل بيْن البُعْد الحسّي المستفاد من قوله (يا غائباً) إذ الغياب دليل على هذا البُعْد. وبيْن القُرْب المعنوي المستفاد من قوله (وفي القلب عرشه). ثم يؤكّد ذاك البُعْـــد وهذا القُرْب بما جاء في عجُز البيت، إذْ جمع بيْن البُعْديْن ضمنياً..

تـــنـــبـــيـــه:

هناك بُعدان وقُربان : بُـــعد حسّي و بُـــعد معنوي ؛ و قُرب حسّي وقُرب معنوي. وقد يجتمع اثنان من هذه الأربعة، على اتفاق بينهما أو على اختلاف.. أي أنه قد يجتمع قربان: أحدهما حسّي والآخر معنوي ؛ أو

بعدان: أحدهما حسّي والآخر معنوي ؛ أو قرب حسّي وبُعْد معنوي ؛ أو قُرب معنوي وبُعْد حسّي..

النــداء البــلاغــي:

يكون النداء البلاغي تارةً باستعمال أداة مكان أخرى لغرض مقصود، كأن ينادَى القريب بأداة البعيد أو العكس.. ويكون تارةً أخرى بخروج النداء عن مجرد توجيه الدعوة للإقبــال والحضور، إلى أغراض بلاغيــة تُــدْرك من سياقات الكلام وقرائنه المحيطة به..

وعندئذ يكون القصد من النداء التعبير عن حالة نفسية تنتاب المنادِي (المتكلم) أو خاطر يخالجه، أو شعور يراوده. ويكون ذلك على صورتيْن:

– الصورة الأولى :

قد ينادَى القريب بأداة البعيد أو العكس، ويدرك ذلك بناءً على اعتبارات بلاغية تتعلق بحال المتكلّم (المنادي) ومثال هذا قول **أبي نواس** مستعملا أداة البعيد وهو يريد التعبير عن قربه الشديد من ربّه:[من الكامل]

يا ربّ إن عظمت ذنوبي كثرة ** فلقد علمت بأنّ عفوك أعظم

فالشاعر وإن استعمل أداة البُعْد (يــا) فهو يريد التعبير عن قربه من ربّه، بتوبته وأوبته إليه، وهذا قُرْب معنوي. وهو ما يدل عليه السياق بوضوح، إذ الشاعر فــي مقام الندم والرجاء والتضرّع إلى الله.

ومثاله أيضا مناداة البعيد بأداة القريب كقول الشاعر: [من الطويل]

أسُكّانَ نعمان الأراك تيقّنوا ** بأنّكُمُ في رَبْع قلبيَ سُكّان

فالشاعر هنا ينادي سكّان نعمان الأراك - وهم بعيدون عنـــه – بأداة القُـــرْب. ويؤكّد بُعْدَهم عنه بُعْداً حسّيّاً إذْ قابل هذا البُعْد بقُرْب معنوي بأنْ جعل قلبه سكـــاً لهم. وفي ذلك كناية عن شدة اتّصاله وارتباطه بهم..

والملاحظ في تبادل النداء بين القرْب والبُعْـــد أنّنا نبقى دائما في حدود النّداء ؛ وإنّما الذي يتغيّر هو التبادل الحاصل بين البعيد والقريب للتعبيـــر عن غرض معين ومعنى مقصود في نفس المتكلّم.

– الصورة الثانيـــة :

قد نخرج عن حدود النّداء، لنجد أغراضا جديدة مخالفة لطلب الإقبال، أي أنّ الأدوات ربما لا تدلّ على بعيد أو قريب، و إنّما تحمل دلالات وأغراضا أخرى تفهم من خلال السيّاق، وسنذكر أهمّ هذه الأغراض فيما يأتي :

١– التعجّب : كقول الشاعر : [من الطويل]

أيا شجر الخابور مالك مورقا ** كأنّك لم تجزع على ابن طريف !

فالشاعر هنا يريد أن يبدي تعجّـــبه من إيراق شجر الخابور، مع أنّ ابن طريف قد مـــات. فكأنه يريد من هذا الشجر أن يجزع لوفاة هذا الرجل.وقد اشترك الداء مع الاستفهام في التعبير عن هذا التعجب. وغرض الشاعر من هذا أنّه من العجب أنْ يُرَى من لا يجزع على ابن طريف. وما نسبة الجزع إلى هذا الشجر الدائم الإيراق إلاّ كناية عن شدة تأثر الشاعر وجزعه هو على ابن طريف.

وقد أراد الشاعر أن ينقل هذا إلى ما حوله، فوجد ذلك الشجر المورق فكان بالنسبة إليه أفضل ما يبث فيه جزعه ويلقي إليه عتابه، إذْ رآه على غيْر ما رأى عليه باقي الشجر. وما هذه الظاهرة في الحقيقة إلاّ متنفَّس للشاعر يلجأ إليه ليبث فيه شكواه، ويعبّر منن خلاله عن مغزاه.

الاستغاثة : كقول الشاعر: [من الخفيف]

يا لَـــقومي و **يالـــ**أمثال قومي ** **لـــ**أُناس عتوّهم في ازدياد

في الاستغاثة يؤتَـــى باللام مفتوحةً فيما بعد النـــداء.. ويؤتَـــى باللام مكسورة في الجواب..والشاعر هنا يستغيث بقومـــه وبأمثالهم ممّن عتوهم في ازدياد. فهو لا يوجه النداء إلى قومه وأمثالهم للإقبال، وإنما يريد أن يعبّر عن حاجته إليهم واستغاثته بهم. وما النداء إلاّ أسلوب عمد إليه الشاعر للتعبير عن غرضه هذا وما استعمال أداة البُـــعْد (يـــا) إلاّ دليل على حاجته إلى قومه، وأنهم بعيدون عنه. وهو يرجو استجابتهم له..

٣- الزّجـــر : و مثاله قولنا : [من البسيط]

يا نفس لا ترغبي فيما غدا حُلما ** يا نفس أو ترغبي عن سالف القدر

فنداؤنا في هذا البيت ما هو إلاّ تعبير عن زجْر النفس كي لا ترغب فيما كان بعيداً عنها حتى صار كالحُلُم. وقد قابلنا ذلك بزجْر آخر لها حتى لا ترغب عمّا كان قدراً لها. فلدينا ههنا زجر للنفس على رغبتيْن: رغبةٍ فيما ليس لها فلا سبيل إلى تحققه لها، ورغبةٍ عمّا هو من قدرها فلا يخطئها.

٤- التحسّر : كقول الشاعر : [من الطويل]

فيـــا قبر مَعْن كيف واريت جوده ** و قد كان منه البَرّ والبحر مترعا

إنّ ظاهر كلام الشاعر هنا هو التحسّر عن تواري جود مرثـــيّه. والحقيقة أنّه يتألّم ويتحسّر لرحيل صاحب الجود الذي توارى في القبْـــر. وذلك كناية عن موتـــه، إذْ نسب التواري إلى الجود لا إلى الجواد. وهذا من بديع الشعر الذي يدركه أهل الفنّ والذّوق وبُـــعْد النظر..

وقد عبّر الشاعر عن تحسّره باستعمال أسلوب النداء بأداة البُـــعْد **(يا)** التي توحي بعمْق تأثّره بالراحل، وما كان عليه الراحل من الجود والكرم الذي انتشر في الآفاق. وقد كنّى الشاعر عن هذا الانتشار بأنّ جوده قد شمل البـــرّ والبحر. وفي هذا دليل على مكانته بين الأجواد.

٥- الإغراء : ومثاله قول **المتنبي** معاتباً الأمير سيف الدولة:[من البسيط]

يا أعدل الناس إلاّ في معاملتي ** فيك الخصام وأنت الخصم والحَكَمُ

يريد **المتنبي** من خلال استعمال النداء هنا أن يغري سيف الدولة بوصفه بالعدل في كل شيء إلاّ في معاملته، فكان مع الإغراء عتاب ظريف، إذْ شهد له بالعدل أوّلاً، ثم عرض عتابه له بلطف، ثم قابل ذلك في العجُز بنسبة الخصومة فـــالحكْم إليه. فهو يشكو منه إليه، وكأنه يقول له: إنك عادل ولكنك لم تعدل فـــيَّ. وإنك خصمي ولك الحُكْم عليّ أمام الوشاة؛ فأنا بن يديك معترف لك بالسيادة والقوة. ومادمت عادلاً فلْتحْكُمْ لي على

خصومي، وليس العكس.. وهنا استمالة من **المتنبي** لسيف الدولة ليحفظ لــه مكانته المرموقة عنده. تلك التي حسده الواشون عليها.

٦- **الندبـــة** : ومنه ما يقوله المشيع لمن يفقده من ذويه مثلاً، ومنه: (**وا** زوجاه ؛ **وا** أبتاه... إلخ) ففي هذا القول ندب من الفاقد للفقيد. ومـــا استعمال النـــداء ههنا إلاّ لغرض التعبير عن التأثّر الشديد من الفاقد على إثر مفارقة فقيده. وقد جاءت **الواو** دالة على هذا التأثر . وهذه الندبة تدلّ على شدة الجزع من الفاجعة.

٧ - **الدعاء و التوسّل** : كقول المؤمن مناجيًا خالقه : (**يا ربّ** لا تعذّبني بالذي د كان منّي، فإنّك عفوّ غفور رحيم .) إذْ يناجي المؤمن ربـــه بالدعاء والتضرّع إليه. وعندما يناديه فهو يريد التعبير عن قوة رجائه لـــه وطمعـــه فيـــه. والياء في هذا النداء بامتداد صوهًا دليل على امتداد رجاء العبْد المؤمن لربه، ومدى حاجته إليه. فهي لا تـــدلّ على البُـــعْد ههنا، وإنما تـــدلّ على امتداد الوصل واستمراره بين المؤمن وخالقه. وهذا من أسرار أساليب العربية ولطائفها..

الإنشاء غيـر الطلبي

تعـــريف:

الإنشاء غير الطلبي هو ما لم يستدع مطلوباً غير حاصـــل وقـــت الطلب. ويكون بعدة صيغ كالقسَم والتعجب والرجاء وصيغ المدح والـــذم وصيغ العقود. وسنبين فيما يأتي أهمّ الصيغ المستعملة في الإنشاء غير الطلبي:

أولاً: القسَـــم:

القسم من الإنشاء غير الطلبي. وقد يكون بجملة فعلية، كما في قولنا: **أقسم بالله** لأفعلنّ.. كما يكون بجملة اسمية مثل قولنا: **يمين الله** لأفعلن.. أو يكون بالأدوات الجارة لما بعدها..

وحرف **الباء** هو الأصل في القسم لأنه الحرف الذي يتـــمّ به الحلف، فيقال : **أحلف بالله**..و: **أقسم بالله**.. كما أنّ حرف الباء يدخل على المضمـــر كما يدخل على المظهر.. فنقول : **بالله لأقومن.. وبالله لأفعلن..**

و هناك واو القسم التي لا تدخل إلاّ على المظهر ولها شروط ثلاثة هي:

- حذف فعل القسم معها فلا يقال: أقسم والله.
- أن لا تستعمل في قسَم الطلب فلا يقال: "والله أخبرني".
- أن لا تدخل على ضمير (١).

وقد يكون القسَم صريحاً، وهو ذلك المعروف بأدواته وأركانه. فالأدوات هي التي ذكرناها (الباء والواو والتاء) وأمّا الأركان فهي: الأداة

---

(١) – ينظر: الأساليب الإنشائية في النحو العربي لعبد السلام هارون : ص ١٦٢

والمقسَم به والمقسَم عليه الذي هو جواب القسَم. كما في قول الشاعر: [من السريع] والله إنّي لأخو همّة ** تسمو إلى المجْد ولا تفتُر

فأداة القَسَم هي الواو. والمقسَم به هو لفظ الجلالة " **الله** " . والمقسَم عليه (جواب القَسَم) هو قولـــه: (إنّي لأخو همّـــة..)

هذا عن القَسَم الصريح. وأمّا القَسَم غيْر الصريح فهو الذي يُفْهَم من ضمن الكلام وسياقاته وقرائنه.. إذْ لا أداة تدلّ عليه، ولا أركان له يُعْرف من خلالها. اللّهمّ إلاّ وجود بعض الحروف أو الأسماء التي تُـــتَّخذ كدلائل عليه وإشارات إليه. كما في قولنا مثلاً: (لقد أدركتُ أنّ الله لا يخيب سائله.) فمن خلال الحرفين (اللام و قـــد) وكذلك ذكْر اسم الجلالة (**الله**) ثم من خلال مضمون الجملة ندرك أنّ في هذا الكلام قَسَماً غيْر صريح.. أو لنقُلْ إنّ مثل هذا الكلام هو بمنـــزلة كلام فيه قَسَم.. بناءً على ما ذكرناه من القرائن. وهذا ما يدخل في باب أغراض الكلام الخفية، إذ الغرض ههنا هو القَسَم، وإنْ لم يكن ظاهراً.

حذف جملـــة القَســـم:

قد تُحذف جملة القسَم ويبقى ما يدل عليها من خلال جواب القَسَم. ومن ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿ **لئن** أشركت **ليحبطنّ** عملك ولتكوننّ من الخاسرين﴾ [الزمر/٦٥] فالتقدير:(والله لئن اشركت ليحبطنّ عملك..) وما يؤكّد وجود قَسَم محذوف هو التحذير من الشرك وما يترتب عليه. وهل هناك ما هو أعظم من الشرك إثماً. وقد قال الله تعالى فيه: ﴿ إنّ الله لا

يغفر أنْ يُشْرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ [النساء/ ٤٨] وقال تعالى:﴿ إنّ الله لا يغفر أنْ يُشْرَك بــه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ [النساء/ ١١٦].

والملاحَظ أنّ جواب القَسم كثيراً ما يقترن باللام. وتكون اللام المتصلة بأداة الشرط (إنْ) لام قَسَم. ولكن ليس كل ما ابتُدِئَ بهذه اللام يدخل في باب القَسَم. كما أنّ هذه اللام لا تكون دائماً للقَسَم.. فقد تكون للابتداء دون القَسَم.. ومردّ ذلك إلى ما يمليه سياق النص أو الآية..

حذف جواب القَســـم:

قد يحذف جواب القَسَم من غير أن يخلّ حذفــه بالمعنى. إذْ يبقى سياق الكلام دالاًّ عليه. ومثال ذلك قوله تعالى:﴿ ص والقرآن ذي الذّكْــر ﴾ [ص/١٠] فتقدير الجواب عند بعضهم: إنــه لمعجزة (١) (أي القرآن). وقوله تعالى: ﴿ والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبْحاً فالسابقات سبقاً فالمدبرات أمراً يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة يقولون أئنا لمردودون في الحافرة.. ﴾ [النازعات/١-١٠]فجواب القَسَم محذوف تقديره: لَتُبْعَثُنَّ ولَتُحاسَبُنَّ(٢) والأكثر صواباً في نظرنا هو أنْ يكون الجواب المقدر بصيغة الغائب ليتلاءَم

---

(١) جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن: ص٦٣

(٢) بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن: ص١٩٢

مع سياق الآيـــة، فيكون عندئذ: لَيُبعَثَنَّ الناسُ وليُحاسبنَّ.. لأنّه ذكَر بعد ذلك ردَّهم إليه وما تكون عليه قلوبهم وأبصارهم وما يكونون عليه من التساؤل والاندهاش حينذاك..

ثانيـــاً: التعجـــب :

التعجّب هو الاندهاش من وقوع أمر غير مألوف. وهو حالة نفسية تنتاب الإنسان عند حصول أمر لم يكن يتوقعه، أو لم يسبق له معرفته. إمّـــا عن طريق السماع أو المشاهدة..

وهو شعور داخلي تنفعل به النفس حين تستعظم أمراً نادراً لا مثيل له أو مجهول الحقيقة أو خفي السبب.. ولا يتحقق التعجب إلا باجتماع هذه الأمور كلها.(١)

وثمّـــة تعجب قياسي وتعجّب سماعي: فالتعجب القياسي يكون باستعمال صيغ معلومة مشتقة من الفعل الذي يستوفي عدة شروط. كـــأنْ يكون ثلاثياً متصرفاً قابلاً للمفاضلة تاماً مثبتاً، و أن لا يكون مبنياً للمفعول. وأن لا تأتي الصفة منه على وزن (**أفعَل**) في المذكر، الذي وزنه (فعلاء) في المؤنث.. وبهذا يخرج منه ما كان على وزن (أفعل) من الألوان، لأنّـــه وصف مذكر ومؤنثه على وزن (فعلاء).

وأمّا التعجّب السماعي فلا يكون بهذه الصيغ المعلومة، ولا يخضع لقياس. وإنما المرجع فيه إلى حال المتكلم وما تكون عليه، وما يحيط بها.. ولا

---

(١) المعجم المفصل في النحو العربي: ص ٣٥.

يمكن إحصاء الأشكال التعبيرية في باب التعجب، لكن يمكن تحديد عدة أشكال من التعبير التعجّـــبي السماعي وردت في الاستعمال العربي، منها:

- **لله درك**: مثل قولنا: لله درّك من رجل كريم.!

فعبارة (لله درك يراد بها التعجب مما يتصف به الرجل من الجود والكرم. ولولا كثرة جوده وكرمه لما كان من المتكلم مثل هذه العبارة التعجبية..وثمة معنى آخر يُفْهَم مع التعجب في هذا المثال، وهو المدح والثناء.

- **يالــــه**..(**بما يشبه النداء**): مثل قولنا: **يالـــه** من مشهد جميل! **ويالـــها** من ليلة مباركة! والضمير متغير بحسب المتعجب منه. فقد يكون مفرداً وقد يكون مثنّى وقد يكون جمعاً..

- **صيغة الأمر**(مع حرف اللام أو إلى)كقولنا: **أعجبْ لـــ**لمؤمن صابراً **واسمع إليـــ**ه ذاكراً **وابتهج لــ**ـه حامداً شاكراً..

تـــنـــبـــيــــه:

فعل الأمر في حال التعجب السماعي لا يخضع للشروط التي يخضع لها في التعجب القياسي. واللام تكون في السماعي كالباء في القياسي.

- **صيغة الاستفهام**: نحو قوله تعالى ﴿ **كيف** تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجَعون ﴾ [البقرة/٢٨].

فكيف هنا للتعجب من كفْر الناس وقد أنعم الله عليهم بالحياة بعد الموت مرتيْن، ثم يكون رجوعهم إليه. فأنّى يُكْفَر به سبحانه وقد أدرك الناس عظمته وشهدوا دلائل قدرته!

- **صيغة اسم الفعل:** نحو قول الشاعر :

واهاً لسلمـــى ثم **واهاً واهَا** ** ....

فهذا تعجب سماعي من الشاعر باستعمال اسم فعل مضارع. وقد يكون بغير ذلك من اسماء الأفعال، كما يكون بغيرها من الصيغ.

فالتعجب السماعي يُدْرَك إذاً بالنظر في المعاني والأغراض التي تدل عليها الأشكال التعبيرية على اختلافها.وذلك بحسب ما يقتضيه السياق ومـــا يدل من القرائن على أنّ ثمّة أسلوباً تعجّبياًّ..

ثالثـــاً: صيـــغ الـــعقــــود :

صيغ العقود نوع من التعبيـــر يُـــراد به الإيجاب والقبول بين طرفين فـــي مختلف المعاملات، سواء أكان ذلك في البيع أم فـــي الشراء؛ أم في الشركات والمشاريع؛ أم في عقـــود الزواج؛ أم في إيجار المساكن؛ أم غير ذلك ممّا يقتضي عقد الاتفاق بين طرفيْـــن..

ويكون هذا الاتفاق انطلاقاً من إرادة كلّ من الطرفيْن. وعلى كل منهما أن يفصح عن هذه الإرادة بشكل من أشكال الإفصاح الذي يكون مشهوداً.. ونموذج ذلك عقود الزواج التي وضّح الشرع ألفاظها وصيغها بحيث تبدأ بجملة الإيجاب كما في قول الخاطب: (زوجني ابنتك) فيعبّر وكيلها (أبوها أو مَن يتولى شؤونها) عـــن قبوله قائلاً: (قبلت زواجك منها أو زواجها منك) أو يقول: (قبلت زواجكما) أو يقول: (قبلت

تزويجـــك إياها أو تزويجها إياك) أو ما إلى ذلك من مثل هذه الصيغ التي يفهم منها تمام الاتفاق بالقبول والإيجاب.

إنّ الخاطب عندما يطلب الفتاة للزواج باستعمال صيغة الأمر مثلاً بقوله: (زوجني ابنتك..) أو صيغة النهي بقوله (لا تردّ طلبي للزواج من ابنتك.) أو ما إلى ذلك من الصيغ الإنشائية.. فهذه الصيغ ليست صيغاً طلبية على رأي متأخري البلاغيين، وإنما هي صيغ إنشائية غير طلبية لأنها متصلة بإجراء عقود مترتبة عليها.

ولكننا عندما ننظر في الغرض الحقيقي منها نجده يتمثل فـــي الطلب المقدم وإجراء العقد، لأنه هو المقصود أولاً. ثم تأتي الأغراض البلاغية المتمثلة في تعبير الخاطب - بصيغة الأمر أو النهي مثلاً - عن تعلّقه بمن يخطب، وشدة اهتمامه بها، ورجائه لوكيلها من أجل الاستجابة لطلبه.. ولا يتمسك المرء بشيء إلاّ إذا كان يطلبه ويريده.

وعلى هذا فصيغ العقود من جهة المتكلم تتضمن معنى الطلب وإن لم يبْدُ صريحاً في بعض الأحيان.

وهكذا يقاس الأمـــر أو النهي أو غيرهما من الصيغ فـــي مختلف العقود، سواء في ذلك عقود البيع والشركات وما سواها. إذْ يكون البـــدْء بحقيقة ما تضمّنـــتْه صيغـــة العقْد، باعتبارها مقصودة لذاتها. ثـــمّ يأتـــي ما قد يتبعها من الأغراض الأخرى التي تتصل بها..

التداخل بين الخبر والإنشاء

قد يحل الخبر محل الإنشاء أو العكس. ذلك أن في اللغة العربية كثيراً من الصيغ التي تكون خبرية في ألفاظها إنشائية في معانيها. أو تكون إنشائية في ألفاظها خبرية في معانيها.. فإذا قلنا مثلاً: (رحم الله فلانا) أو قلنا: (وفقك الله وسدد خطاك) أو قلنا (لا بارك الله في الخائن) فهذه العبارات أخبار في ألفاظها، قد تستجيب في ظاهرها لمقياس الصدق والكذب. لكننا عندما نتأملها في دلالاتها ومقاصدها نجدها عبارة عن أدعية صيغت في شكل أخبار.. والمعلوم أنّ الأدعية إنشاءات لا أخبار.. وعلى هذا فأصل قولنا: (رحم الله فلاناً) هو (اللهمّ ارحم فلاناً) وأصل قولنا: (وفقك الله وسدد خطاك) هو (ليوفّقْك الله ويسدّدْ خطاك) وأصل قولنا: (لا بارك الله في الخائن) هو (اللهمّ لا تبارك في الخائن). وهكذا فيما جاء على هذا المنوال..

وهناك تعليل لطيف في أسباب قلب الإنشاء إلى الخبر، يتلخص في أن الأدب والذوق قد يقودان المتكلم إلى العدول عن صيغة الأمر أو النهي – وهما من الإنشاء الطلبي – إلى الصيغ الخبرية.. ولا سيما في الأمور الكبيرة العظيمة.. فقول الرجل لرئيسه مثلاً: (يسمح لي سيدي بالإنصات) خير من قوله له: (اسمح لي يا سيدي بالإنصات) وفي التعبير الأول أدب ولطف، وهما من صفات البليغ المرهف الحسّ المدرك لآثار القول الجميل، وفنون البلاغة العربية ومزاياها.

وقد يحل الإنشاء محل الخبر.. وفي العربية كثير من الصيغ الإنشائيـــة في ألفاظها، الخبرية في معانيها ودلالاتها.. فلو تأملنا مثلاً قوله تعالى: ﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ [الأعراف/٢٩] وقوله تعالى﴿ قال إني أُشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه﴾ [هود/٥٤ – ٥٥] .

فإنـــنا نلاحظ في الآية الأولى أنه قد عطف فعل الأمر (أقيموا) وهو إنشاء طلبي على جملة خبرية هي (أمر ربي بالقسط). وأن الأمر في حقيقته خبر. والتقدير: (وإقامة وجوهكم) ليتم عطف الاسم على الاسم (أي عطف إقامة الوجوه على القسط) وهو عطف خبـــر على خبـــر.. ويكون تأويل العبارة: (قل أمر ربي بالقسط وإقامة وجوهكم عند كل مسجد).

أما الآية الثانية فقد بدأت بالصيغة الخبرية (إني أشهد الله) ثم عطفت عليها جملة إنشائية طلبية أمريـــة (واشهدوا). وهي صيغة خبرية في المعنى. وتكون العبارة عندئذ (قل إني أشهد الله وأشهدكم أني بريء مما تشركون من دونه) وذلك من باب عطف الخبر على الخبر.

ولا بأس أن نشير إلى بعض اللطائف من خلال المعاني والمقاصد والأغراض المستفادة من الآيات السابقة.. ففي قوله تعالى في الآية الأولى ﴿قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ [الأعراف/٢٩] عطف الإنشاء الطلبي المتمثل في فعل الأمر (أقيموا) على الخبر المتمثل في الفعل الماضي وما بعده (أمر ربي بالقسط). أو عطف فعل الأمر (أقيموا)

على الاسم (القسط) في الجملة الخبرية.. فهو إذاً قد بدأ بتكليف الرسول **صلى الله عله وسلم** – ومن يحمل مهمة الدعوة بعده من أمّته – بالإخبار عمّا أمر به الله من القسط والعدل، لأنّ الخطاب موجه إلى عموم الناس ليبيّن لهم أنّ دين الله قائم على القسط بين جميع الناس..

وبعد التنبيه على القسط في الإسلام، يأتي توجيه الناس إلى ما يجب عليهم تُجاه هذا الدِّين الذي يقسط بينهم، فدعاهم – باستعمال فعل الأمر – إلى الصلاة، وإلى ذكْر الله، وإلى الاجتماع في مواطن الخير والبر والإحسان، وإلى التعاون والتوادّ.. ولم يذكر هذه المعاني، بل ذكر إقامة الوجوه عند المساجد. وهذا يدلّ على المعاني المذكورة وغيرها، ويوحي بها إيحاءً جميلاً يقع في النفس موقعاً حسناً.. ولو استعمل الخبر لما فُهِمَ من الآية أنّها تضمّنتْ واجباً يتحتم على الناس أداؤه وتكليفاً لهم من بعْد نعمة أنعمها الله عليهم.

وفي قوله تعالى في الآية الثانية ﴿ قال إني أُشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه ﴾ [هود/٥٤ – ٥٥] عطف الإنشاء الطلبي المتمثل في فعل الأمر (اشهدوا) وهو جملة فعلية على الجملة الخبرية الاسمية (إني أُشهد الله) وهنا لدينا شهادتان: الأولى من صاحب الدعوة وهي إخبار منه لهم بأنه يشهد الله عليهم.فهي شهادة موصولة بشهادة الله. وشهادة الله لا تحتاج إلى أمر وتكليف، إنما هي شهادة الخالق البارئ الذي بيده الأمر كلّه. لذا يكفي الإخبار بها... وفي هذا شهادة

وحجة منه عليهم وإثبات لبراءته منهم بحيث لا يبقى أمامهم مجال للتكذيب أو الجحود..ثمّ يأتي الأمر لهم – وهو أمر بلاغي غرضه إثبات الحجة والحمل على الاعتراف والإقرار ببراءته – لكي يكونوا من الشاهدين. وما دام يتـــبرّأ منهم فهم معرضون عن دعوته مشركون بالله. ومنْ كان شأنه الإعراض والشرك فإنه لا يكتفي معه بمجرد الإخبار، فوجب أن يوجّه إليهم الأمر لحملهم على الشهادة على أنفسهم.. فاستعمال الأمر يوافق إعراضهم وشركهم لإقامة الحجة عليهم. والله أعلم.

تـــنـــبـــيـــه:

إنّ تأويل الجمل الخبرية بجمل إنشائية أو العكس إنما هو من قبيل الكشف عن تنوعات الأساليب العربية وما تدل عليه من المعانـــي والمقاصد والدلالات. غيْر أنه ينبغي التنبيه على أنّ التداخل بيْن هذه الصيغ بإيراد الخبر وإرادة الإنشاء أو العكس هو مـــن فنون القول والبلاغة العربية، وما تتميّز به من جماليات الخطاب وإيحاءاته الفنـــيّة. وهو يحمل من المقاصد ما يستدعي التعبير عنه بهذه الكيفية. كما أنّ المزج بين هذه الصيغ من خلال عطف بعضها على بعض مبني على أغراض معينـــة ومعان مقصودة يراد إبلاغها أو الإيحاء بها ولا يدركها إلاّ صاحب ذوق فنّيّ سليم..

ومن الأغراض المستفادة من التداخل بين الخبر والإنشاء نذكر مثلاً:

– **الدعاء ورجاء الخيـــر** : نحو قولنا [من الكامل]

نَمْ في ثرى بلادك واسترحْ ** وسقى ثراك الغيث غيْر مفارق. (١)

فالدعاء هنا للشهيد واضح جليّ في عجُز البيت. وهو دعاء له بالسقيا الدائمة لثراه.. فجاءت الجملة خبرية في لفظها إنشائية في معناها، كأنه قال: (اللّهمّ اسق ثراه بالغيث دائماً ..أو: يارب لا تجعل الغيث يفارق ثراه) فههنا أمر ونهي. وكلّ هذا يُفهَم من تلك الجملة الخبرية. وأمّا الغرض البلاغي فهو الدعاء لـــه بنيْل رضا الله وثوابه والفوز بجنان الخلْد. وعبّرنا عن ذلك بسقيا الغيث الدائمة لثراه.

- **إظهار الحرص على أمر مـــا**: كما فـــي في قوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهنّ حولَيْن كاملَيْن لمن أراد أن يُـــتمّ الرّضاعة ﴾ [البقرة / ٢٣٣] فهذا خبر يتضمن إنشاءً طلبياً يتمثل في الأمر.. والتقدير فيه أمر للمرضعات كأنه قال: (أرضعن أولادكنّ حولَيْن كامليْـــن) وذلك تعبيراً عن حرص الشريعة السمحة على إكمال مدة الرضاعة لمن أرادها، لمـــا فيها من الفوائد والمنافع والحفاظ على المولود - إلاّ من لم يُـــرِدْ لسبب من الأسباب المانعة – ذلك أنّ فعل الإرادة هنا يراد به الاستطاعة والقدرة، ولا يراد به مجرد الإرادة المحضة القائمة على الاختيار.. والله أعلم.

(١) البيت من قصيدة للمؤلف في رثاء الشهيد الصادق طالبي (الأغواطي). وهو أحد أبطال وقادة الثورة الجزائرية. كان له كفاح مشهود بالأطلس الصحراوي.

ومن هذا الغرض كذلك قوله تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء ولا يحلّ لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهنّ.﴾ [البقرة/٢٢٨] فكأنما قد أمرهنّ بذلك أمراً، لما فيه من الواجب عليهنّ.

وقد تناول هذه المسألة **سيبويـــه** و تلقفها منه العلماء وضمّنوها في أبحاثهم حتى صارت مادة في كتب البلاغة، وأعني بذلك ما يعبر عنه البلاغيون في باب الوصل والفصل بكمال الانقطاع بين الجملتين إذا اختلفتا خبراً و إنشاء لما بين الخبر والإنشاء من التباين. لكن **أبا حيّان** ينقل عن **سيبويه** جواز عطف الجملتين المختلفتين بالاستفهام و الخبر ، مثل: (هذا زيد ومَن عمـــرو ؟) وكذلك في قوله تعالى: ﴿ ولا تأكلوا ممّا لـــم يُذكَر اسمُ الله عليه و إنه لفسق ﴾ [الأنعام/٢] (١)

والخلاصة أنّ التداخل بيْن الخبر والإنشاء كثير الورود في العربيـــة وهو من أساليب براعتها وفنـــون بلاغتهـــا، إذْ يكون فيه الجمع بيْـــن نوعيْن متبايـــنيْن من الأسلوب في العبارة الواحدة.. وهذا من أساليب التواصل والتبليغ بأشكال متنوعة من فنون الخطاب، بحيث يتـــمّ التفاهم وبلوغ المقاصد وإصابة الأغراض بين المتكلم والمخاطَب بظواهر الألفاظ ومكنونات المعاني. وهو ما يهتدي إليه العارفون بأسرار اللسان العربي الذين وهبهم الله عمق الفكر في أسراره وصواب النظر في أغواره. ولا سيما ما ورد منه في القرآن الكريم، وما أكثره..

---

(١) ينظر: أثر النحاة في البحث البلاغي للدكتور عبد القادر حسين ص ٩٨-٩٩

المبحث الرابع : الذّكـر والحـذف

مفهوم الحذف وأهمّيـــته:

الحذف هو ترك بعض الأجزاء من الكلام لدلالة غيرها عليها، وقد تكون الدلالة على المحذوف ظاهرة فيما هو مذكور، كما قد تكون مستفادة من السياق. والحذف ضرب من الاقتصاد في الجهد وتقصير الكلام من غير أن يؤثر ذلك على المعاني المقصودة منه. وهو من الظواهر الكثيرة المتداولة في الكلام العربي. ومن خلال تراكيب الحذف تتجلى جماليات الأسلوب العربي ومزاياه الفنّـــية الراقية.

وباب الذّكر والحذف من أهمّ الأبواب في اللغة العربية، وهو من فنـــون بلاغتها.. وقد تناوله العلماء بالبحث والدراسة، وكشفوا عن الكثير من أسراره التي يظهر من خلالها بما يضفيه من طابع جمالي على التعبير اللغوي.. فإذا المحذوف في الكلام كأنما قد أفْصِحَ عنه إفصاحاً أظهر له ممّا هو مذكور. وإذا المذكور فيه دليل على المحذوف..وما أكثر مـــا في هذا الباب من المزايا.. حتى وصفـــه عبد القاهر **الجرجاني** بأنه " باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر. فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة. وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبـــِنْ. وهذه جملة قد تُنكرها حتّى تَخْبُرَ وتدفعها حتى تنظُر." (١)

---

(١) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز: ص ١٧٧

إنّ الشائع هو استعمال مصطلح الحذف، وربما كان مصطلح الإضمار أفضل للدلالة على المحذوف إذا كان أساسياً في المعنى، لأنّه يبقى منوياً في الكلام مستــنتجاً من خلاله.. ولا يكون إضماره إلاّ لغرض بلاغي ومعنى مقصود. ولعلّ ما يؤيّد قولنا هذا أنّنا لا نبارح التفكير في المحذوف إذْ نقول: (والتقدير كذا وكذا... والأصل فيه كذا وكذا...) أمّا الحذْف فربما لا يبقى فيه المحذوف منوياً في الكلام.. فيكون – على هذا – كلّ إضمار حذْفاً وليس كلّ حذف إضماراً.. (١)

والحذف ضرب من الإيجاز، إذ لا يكون إلاّ لأغراض كامنة في نفس المتكلم، ولا يتم التعبيــر عنها أو إدراكها إلاّ بالحذف.فليس الحذف – على هذا – مجرد إنقاص وتقصير من الكلام، وإنما هو أسلوب فــنّي يُلجأ إليه لعدة أسباب ودواع. وهو " أحد قسْمَي الإيجاز(٢) ويكون بحذف ما لا يخلّ بالمعنى، ولا ينقص من البلاغة. بل لو ظهر المحذوف لنزل قدر الكلام على علوّ بلاغته، ولصار إلى شيء مسترك مسترذل، ولكان مبطلاً لما يظهر على الكلام من الطلاوة والحسْن والرّقّة." (٣)

---

(١) ونحن هنا نذكر الاثنيْن بمعنى واحد تسهيلاً على القارئ.

(٢) المقصود هنا هو الإيجاز بالحذف؛ والقسم الثاني هو الإيجاز بالقِــصَــر .

(٣) الدكتور بدوي طبانة: معجم البلاغة العربية – منشورات جامعة طرابلس – كلية التربية (١٣٩٧هــ / ١٩٧٧م) مج٢ / ١٧٧ – ١٧٨

طُرق الدلالة على المحذوف:

تكون الدلالة على المحذوف من جهتـــيْن:

أ- **من جهة الإعراب**: وذلك بأن يكون الدّالّ على المحذوف هو من طريق الإعراب. هذا كقولك: (أهلاً وسهلاً)فإنه لا بدّ لهما من ناصب ينصبهما، يكون محذوفاً، لأهما منقولان من المعنى.

ب- **من جهـــة المعنـــى**: وذلك بأن يكون تقدير المحذوف ظاهراً من جهة المعنى لا من جهة الإعراب. كما في قولنا: (فـــلان يعطي ويمنع، ويصل ويقطع) فتقديره: فلان يعطي المال ويمنع الذّمار، ويصل الأرحام ويقطع الأمور برأيه ويفصلها..

شروط الحذف وقيمته الفنية:

التركيز في هذا الباب يكون على الحذف باعتباره ظاهرة فنية. ولا يكون على الذّكْر إلاّ بقدر ما فيه من مقابلة للحذف. إذْ يتم استحضار ما هو محذوف فيما يكون عليه الكلام في حال ذكره. كأن يقال مثلاً: (فاسأل القرية)فيتم استحضار المحذوف القول:(فاسأل أهل القرية) فلا يؤتَى بالمذكور إذاً إلاّ لبيان المحذوف وما له من قيمة بلاغية فنية في الكلام وأداء المعنى.

لكن قبول الحذف في اللغة مقرون بعلم المخاطَب للمحذوف، أو استشعاره إياه من خلال الكلام. مع ما يتركه هذا الحذف من حسن الموقع وبليغ الأثر في النفس. إذ لا سبيل إلى قبول حذف يؤدي إلى تعطيل التواصل وإعاقة التفاهم بين المتكلم والمخاطَب، من غير أثر بلاغي فيه. ذلك أنّ "

الحذف علاقة يجب أن تفهم في ضوء مجموعة من العلاقات الأخرى وخاصّة العلاقة المقابلة وهي الذكر " (١)

والحذف من طرق الإيجاز و الاختصار في البلاغة العربية. وهو من فنون الإشارة إلى المعنى بلفظ غير لفظه. ألسنا نرى ما يُذْكَر سابقاً في الكلام يدل على ما يكون محذوفاً في لاحقه . ونرى بعض الكلام المذكور يدل على بعضه المحذوف وليس هو..كدلالة المبتدأ المسنَد على المسند إليه أو العكس. ودلال المفعول عليهما وقد حذفا معاً. وما إلى ذلك من ضروب الحذف التي يُــسْتَغنى فيها عن اللفظ ولا يُــسْتَغنى عن معناه. ولا يكون ذلك إلاّ لسبب من الأسباب أو غرض من الأغراض الكامنة في نفس المتكلم نحو المخاطب.

وقد بيّن **الزركشي** في كلامه عن الحذف وقيمته في الكلام، بأنّ " من فوائده طلب الإيجاز والاختصار وتحصيل المعنى الكثير في اللفظ القليل "(٢)

وللحـــذف وجهـــان :

– **أولا:** أن لا يقوم شيء مقام المحذوف اكتفاء بالقرينة الدالة عليه. أي أنّ القرينة هي التي تدلّ على المحذوف ما هو وما تقديره.. وأكثر أمثلة الحذف من هذا الوجـــه.

---

(١) الدكتور محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية – ط/ مكتبة لبنان– ناشرون. ص٣٢٢

(٢) الزركشي : البرهان في علوم القرآن:٣/١٠٥

(٣) ينظر البلاغة الاصطلاحية للدكتور عبد العزيز قلقيلة دار الفكر العربي/ط٣ (١٩٩٦) ص٢٦٨

- **ثانيا** : أن يقوم شيء مقامه يدل عليه كقوله تعالى:﴿ فإنْ تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴾ [هود / ٥٧] فليس الإبلاغ هو الجواب لتقدمه على توليهم. والتقدير(فإن تولوا فلا لــوم عليّ لأني قد أبلغتكم) أو (فلا عذر لكم عند ربكم لأني قد أبلغتكم)..

وقد ذكر **ابن جني** في باب عقده لشجاعة العربية أنّ العرب " قد حذفت الجملة والمفرد والحرف والحركة ، وليس شيء من ذلك إلاّ عن دليل عليه " (١) أي أنه لا حذف إلاّ بوجود دليل في المذكور على المحذوف..

دواعـــي الحـــذف:

أولاً: دواعي حذف المسنـــد إليـــه:

المسند إليه هو الركن الأساس. ويأتي في المترلة الأولى من حيث الأهمية في الجملة، لأنه هو الموصوف بالمسنـــد، والمسند صفة له.والموصوف أهمّ من الصفة. إذْ لولاه ما كانت، فلا صفة بلا موصوف.. غير أنّ المسنـــد يؤدي وظيفة الإخبار عن المسند إليه. فلا يمكن الوقوف على المسند إليه من غير مسنـــد، إذا أُريد إتمام المعنى وحصول الفائدة.. إلاّ أنه قد يُذْكر أحد الركنـــيْن ويُحذَف الآخر، لكنه يكون منوياً في الكلام ومفهوماً من السياق.بل قد يُحذفان معـــاً في بعض السياقات التي يتصل فيها الكلام بعضه ببعض ويُذْكر من متعلقاهما ما يدل عليهما.. وهذا دليل علي أهميتهما في الكلام، وعلى عدم استغناء أحدهما عن الآخر لإنشاء الجملة

---

(١) ابن جني: الخصلئص: ٢/١٤٠

ولحصول الفائدة، وأنهما متلازمان وضروريان في الكلام لتحقيق التواصل والتفاهم..ولحذف المسند إليه أسباب ودواع عديدة أهمّها:

١- **العلْم المسبق به:** إذْ لا تكون ثمـــة حاجة إلى ذكْـــره. بل إنّ حذفـــه عندئذ أفصح من ذكره. ومن ذلك قوله تعالى:﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ [الأنعام /٧٣] والتقدير (هو عالم الغيب والشهادة) فالمسند إليه معلوم هو لفظ الجلالة (الله). وقد جاء هذا الحذف للمسند إليه بعد ذكْر المحذوف ، ثم وجود ضمير يدل عليه في أكثر من موضع. وذلك في قوله تعالى: ﴿ قل إنّ هدى الله هو الهدى وأُمرْنا لنسْلم لرب العالمين..﴾ [الأنعام /٧١) فهنا تصريح بمن سيعود إليه الضمير، وهو لفظ الجلالة (الله).ثم يأتي قوله: ﴿ وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق. ويوم يقول كن فيكون. قوله الحق وله الملْك. يوم يُنفَخ في الصور. عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير.﴾ [الأنعام /٧٢-٧٣) فقد بُـــدِئَ بذكْر منْ سيعود إليه الضمير.بقوله (الله .. رب العالمين) ثم جاء ذكْر الضمير المتصل العائد إليه في قوله (اتقوه) ثم الضمير المنفصل (هو) ثم الضمير المتصل في قوله (إليه) ثم الضمير المنفصل (هو) فالضمير المستتر في الفعل من قوله (خلق السموات والأرض..)وقوله (..يقول) فالضمير المتصل في قوله (وقوله الحق وله الملك)..وبعد كل هذا الذّكْر المتكرر المتنوّع الذي ثبّت المسنـــد إليـــه في الذهن ونبّـــه عليه بحيث لا يُفْهَم غيره، بعد كل هذا صار معلوماً لدى المخاطَب. ليُسْــتَأْنف الكلام

عنه برفع المسنَــد (عالــمُ) من غير ذكْر للمسنَد إليه الذي سبق العلْم بـــه كما بيّـــنّا..

٢- **ذكْـــره فيما يسبق من الكلام:** بحيث يُبدَأ بذكر ما سيعود الضمير إليه، وتقديم أمره ثم يأتي في الكلام استئناف يحذف فيه المسند اليه (وهو ضمير عائد) فيكون ذكْر المسنَــد في سيــاق يدل على أنّ ثمّـــة مسنـــداً إليه محذوفاً. ومن ذلك قول الشاعر: [من مجزوء الكامل]

وعلمت أني يوم ذا ** ك مُنازلٌ كعبا ونهدا

قومٌ إذا لبوا الحديـــ ** ـــد تنمروا حلقا وقدّاً

فقد ذكر (كعباً ونهداً) ثم عاد إليهما بالوصف والإخبار (قوم) أي (هم قوم) ولولا ذكْرهما لما كان ثمـــة استئناف، ولكان قد قال (قوماً بدلاً من قوله قومٌ) أي بالنصب على البدلية عوضاً عن عن الرفع بالابتداء والاستئناف..لكنه لم يفعل ذلك لأنه يريد استحضار ما سبق له ذكْره، فجاء كلامه مستأنفاً، فكان بالابتداء.

٣- **الإشارة إليه واستنتاجه من الكلام** : وذلك عندما يتم الكلام عنـــه بمـــا يشيـــر إليه من قريب أو من بعيـــد. بحيث يُـــسْتَشْـــعَر المسنـــد إليه من الكلام السابق ويُدْرَك المتكلّـــم عنـــه من غيْـــر حاجة إلى ذكْـــره. فتكو الإشارة إليه كافية لمعرفتـــه. ومثال ذلك قوله تعالى:﴿ واستوت على الجودي ﴾ [هود / ٤٤] أي: (استـــوت السفينةُ.) فقد أشار إلى السفينـــة قبل ذكْرها ، وذلك في قوله: ﴿ واصنع الفلْك بأعيـــنـــا

ووحيـــنا ولا تخاطبْـــني في الذين ظلموا إنهم مغرقون. ويصنع الفلك وكلما مـــرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إنْ تسخروا منّـــا فإنّـــا نسخر منكم كما تسخرون. فسوف تعلمون من ياتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم.﴾ [هود / ٣٧ – ٤٠] ثـــم قال: ﴿ قال اركبوا فيها بسم الله مُجراها ومُرساها إنّ ربّـــي لغفور رحيم. وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنـــه وكان في معزل يا بنـــيّ اركبْ معنا ولا تكن من الكافرين ﴾ [هود / ٤٠ – ٤٢].. ويأتي بعد ذلك كلام عن الموج وبلْـــع الأرض للماء..فكلّ هذه إشارات إلى أنّ الكلام عن سفينـــة مصنوعة للنجاة من غرق الطوفان.. ثم يأتـــي إسناد الاستواء إلى هذه السفينة، لكن من غيْـــر ذكْرها. لأنّ في ذكرها تكراراً لأمـــر مستنتج مفهوم من الكلام السابق. وفي حذفها بلاغة أيّ بلاغة، وفصاحة ما بعدها فصاحة، وإيضاح ما بعده إيضاح !

٤– المدح والثناء: ويكون ذلك في سياق المـــدح وذكْر المحاسن. ومثاله قولنا: [من الكامل]

رجلٌ تحـــدّر من عريق أصالةٍ ** أجداده أمّـــوا بمسجـــد عاتق. (١)

---

(١) البيت من قصيدة للمؤلف بعنوان: الشهيد الصادق. يذكر فيها تـــضحيات ومناقـــب الصادق طالبي أحد قادة وشهداء الثورة الجزائرية بالأطلس الصحراوي . . ومسجد عـــاتق: يراد به مسجد العتيق ، وهو من أعرق وأقدم مساجد مدينة الأغواط. وقد كـــان أجـــداد الشهيد من أئمته البارزين.

فالمــراد: هــو رجلٌ ...وحذف المسند إليه لغرض التخفيف، وكذلك إظهاراً للثناء على الشهيد واعتزازاً بأصله وأصالته..هذا إضافة إلى كونه معلوماً من قبْل، لأنه قد سبق ذكْره والثناء عليه في أبيات أخرى من القصيدة..

٥- **الذم والهجــاء**: ويكون ذلك في سيــاق الذم وذكْر المســاوئ. ومثاله قولهم: حقيــرٌ لا يساوي شيــئاً.. وهم يريدون: فــلان حقير .. وحذف المسند إليه للتخفيف، وكذلك إظهاراً لحقارة المسند إليه وأنه لا يستحق الذّكْــر لأنّ من يحتقر أحداً في الغالب لا يرغب في ذكْره..

٦- **التمسّك بالشيء و شــدّة التّــأثّــر بــه**: وهو أن يعبّــر المتكلم عن تمسّكــه بأمرٍ مــا أو شدة تأثّــره بــه.

فمن التعبير عن التمسك بالشيء قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام وقد أُخــذ منــه ابنــه الذي يحبه يوسف عليه السلام:﴿ فصبرٌ جميل. ﴾ [يوسف / ١٨] أي : فأمري صبر جميل. إذْ فيه تعبير من سيدنا يوسف عليه السلام عن تمسّكه بالصبْــر وعن ثقتــه في أنّ الله سيتولى أمر ابنه. ونستطيع أيضاً أن نستشف هذا التمسّك بالصبر من نسبته الجمال إلى الصبْر، وهو جمال القوة الإيمانية والثقة الربّانيــة التي تهب المؤمن الصادق ثباتاً وقدرة على تحمّل ما يعجز عنه غير المؤمن..

ومن التعبير عن شدة التأثّر بالشيء قول المريض مثلاً: " ألــم شديد.." أي: ألمــي ألــم شديــد.. وحذف المسند إليه هنا دليل على

شدة ما يلحق المريض من الألم.. كما أنّ في ذكْر المسند (ألـــمٌ) دليلاً على المحذوف.. ثمّ إنّ المريض لا يرجو الشفاء وزوال الألـــم. وعليه، فهو لا يحبذ ذكْر أمـــرٍ يلقى فيه ما يلقى من الشدة والمعاناة. فيكون الحذف أولى من الذكْر.. ولو كان في معرض الفخر مثلاً لكان ذكر المسند أولى على الرغم من تكراره. كما في قولهم: همّتي همّة الملوك..

ثانيـــاً: دواعي حذف المسنـــد:

المسند هو الركن الثاني في الجملة. ويأتي من حيث الأهمية في المنـــزلة الثانية بعد المسند إليه. ذلك أنّ المسند إليه يكون في الأصل اسماً، فإنْ كان فعلاً تمّ تأويله باسم. والاسم هنا أصل بالنسبة إلى الفعل.

كما أنّ المسند قد يُكتفَى بالإشارة إليه إنْ كان دالاًّ على الوصف والحدث أكثر مـــمّا يشار إلى المسند إليه.

ومن جهة أخر نجد أنّ المسند في الأصل صفة للمسند إليه. والموصوف أصل بالنسبة للصفة. كما أنّ الموصوف سابق للصفة، وهو أولى منها بالذّكْر، فإنْ غاب نابت عنه.

وقد يُحْذَف المسند إذا وُجد في الكلام ما يدلّ عليه.. ومواضع حذفه عديدة. ولذلك أسباب ودواعٍ كثيرة من أهمّها:

١- **إذا كان جواباً على سؤال**: إذا أريد التخفيف والاختصار في الجواب بالتركيز على ذكْر المسؤول عنه (المسند إليه) جيء بـــه من غيْر ذكْرٍ للمسنـــد.. كأنْ يقـــول قائل وهو يســـأل: " مـــن القـــادمُ؟ " فيجاب

على سؤاله بالقول: " زيْدٌ ".بذكْر المسند إليه (المبتدأ) من غير مسند (خبر) والتقدير هو: زيدٌ القادم.. وما دام المهمّ لدى السائل هو معرفة المسند إليه - لأنه على علْم بما أُسْنِدَ، لكنه ليس على علْم لمن أُسْنِدَ - فإنّ الاكتفاء بالمسند إليه يؤدّي المعنى ويُفْهَم منه المراد. بل إنّ حذف المسند هنا أبلغ من ذكْره.

٢- **إذا دلّ عليه مذكور قبله:** إذا كان المسند مفهوماً ممّا ذُكِـــرَ قبله كان حذفه أفصح من ذكْره.كما في قوله تعالى: ﴿ مثل الجنة التي وُعِــدَ المتّقون تجري من تحتها الأنهار أكُلُــها دائـــمٌ وظلُّــها تلك عقبى الذين آمنوا وعقبى الكافرين النار ﴾ [الرعد / ٣٥] فانظر كيف بدأ في هذه لجملة الاسمية بذكَر المسند إليه مع مسنده (المبتدأ مع خبره) في قوله: (أُكْلها دائمٌ) ثـــمّ عطف عليها جملة اسمية أخرى، لكنه ذكر فيها المسند إليه وحذف المسنَـــد بقوله (.. وظلّــها) والتقدير: (وظلُّــها دائـــمٌ). وما دام المسند المذْكور دالٌّ على المسند المحذوف مؤدياً لمعناه فإنّ حذف المسند هنا أولى وأدلّ مّا لو كان مذكوراً.. ولـــو أُعيدَ ذكْره لوقع في الكلام تكرار لغير فائدة. إذ التكرار لا يكون إلاّ لغرض مقصود وفائدة إبلاغية.. وذلك هو شأن الأسلوب القرآني الذي لا تجد فيه زيادة لغير فائدة، ولا حذفاً إلاّ وهو أبلغ من الذّكْر.. وانظر إلى آخر الآيـــة كيف ذكر فيها المسند بقوله تعالى:﴿ وعقبى الكافرين النار ﴾ [الرعد / ٣٥] إذْ ليس قبله

مــا يدلّ عليه، فكان ذكْره مهمّاً لفهم المعنى المتمثل في بيان عاقبة الكافرين..

ومن هذا القبيل أيضاً قول **الفرزدق** في مدح زين العابدين:[من البسيط]

وليس قولك: مَنْ هذا بضائره ** العُــرْبُ تعرف مَنْ أنكرتَ والعجَــمُ

أي: ... والعَجَمُ تعرف كذلك من أنكرته. فالمسند هنا (الفعل) محذوف يُفْهم من المسند المذكور.والحذف هنا أفضل من الذّكْر، بل إنه لا يحْسُن ذكره في هذا السياق.

وقد يكون العكْس فـيُحْـذف المسنَــد(الخبر) من الجملة الاسمية الأولى (المعطوف عليها) إذا كان في الجملة التي تليها(المعطوفة) مسنــداً مذكوراً دالاًّ على المحذوف.ومثال ذلك قول الشاعر:

نحــن بمــا عندنــا وأنت بمــا ** عندك راضٍ والرأي مختلــف

فالسند في الجملة الأولى محذوف. أغنى عن ذكْره المسنــد المذكور في الجملة التي بعدها وهو قوله (راضٍ). وقد أغنى الفعل بصيغة المفرد عنه بصيغة الجمع، لأنّ المذكور جاء مسنداً إلى ضمير المفرد (أنت) والتقدير: نحن بمــا عندنا راضون وأنت بما عندك راضٍ..

٣ – **إذا كان مفهوماً من السياق**: ويكون ذلك بعد (لولا) كما في قول **المتنبي**: [من البسيط]

لولا المشقّــة ساد الناس كلُّهُمُ ** الجود يُفْــقر والإقدام قتّالُ.

فالتقدير (لولا المشقةُ موجودةٌ أو كائنــة ..) وحذف المسنــد (الخبر) لدلالة السياق عليه، فهو مفهوم من غير حاجة إلى ذكْــره. إذْ لا يمكن للمخاطَب أن يتصــوّر غيــره.فالشاعر يشير إلى وجود المشقــة في كلّ من الجــود والإقدام. إذْ تتمثل مشقّة الجود في الكرم، ومشقــة الإقدام في حدوث القتل. وهما سبيل السيادة..وكلاهما مــمّا لا يرغب فيه أغلب الناس، وعلى هذا لــم يصلوا كلّهم إلى السيادة، لعدم استعدادهم للبذل والإنفاق، ولعدم اتصافهم بالإقدام والشجاعة.. وهذا المعنى – وهو وجود المشقة في الجود والإقدام – مفهوم من السياق من غير حاجة إلى ذكْر المسند هو فعل الوجود والكينونة..

ثالثــاً: دواعــي حذف المفعول بــه:

المفعول به من عناصر الجملة الفعلية. وقد يكون ذكْره ضرورياً لإزالة الغموض عن الجملة. وقد يكون حذفــه أحسنَ من ذكره من حيث بلاغةُ الكلام وفصاحتُه ووضوحُه. وحذف المفعول في الاستعمال العربي كثير التداول، حتى ليكاد يكون أصلاً في الكلام. وهو كثير اللطائف والأسرار ويكون لأسباب ودواع عديدة، نذكر أهمها فيما يأتي:

١- **إذا كان مفعولاً للإرادة وللمشيئة**: ومواطن حذف مفعول الإرادة والمشيئة كثيرة، لكنّ حذف مفعول المشيئة ليس أمراً مطّرداً، بل قد يكون ذكْره أولى من حذفه..كما في قوله تعالى:﴿ إنْ هو إلاّ ذكْر للعالمين لمن شاء منكمُ أن يستقيم ﴾ [التكوير/٢٨] فذكْر المفعول به (أن يستقيم)

ضروريّ لوضوح المعنى بمعرفة أنّ الاستقامة سبيل يؤدي إليه التمسّك بهذا الذّكْر وما تضمّنــــه من الهداية.. ولو حذف المفعول به لاحْتِيجَ إليه، ولوقع التساؤل عنه لإتمام المعنى..

ومن ذلك أيضـــاً قوله تعالى:﴿ نذيراً للبشر لمن شاء منكمُ أن يتقدم أو يتأخر﴾ [المدثر/٣٧] فقد جاء ذكْر المفعول به في هذا السياق لبيان مـــا ينـــصّ عليه فعل المشيئة. ولو كان محذوفاً لكان السياق يطلبه، للتعبيـــر عن المعنـــى المراد.. ومن أمثلة هذا الباب من الشعر قول أحد الشعراء يرثي ابـــناً لـــه: [من الطويل]

ولو شئتُ أن أبكي دماً لبكيتُه ** عليه، ولكنْ ساحةُ الصّــبْر أوسع

فقد ذكر المفعول بـــه (أن أبكي) لمعرفة مـــا اشترط الشاعر مشيئـــتـــه.ولو لـــم يذْكر لـــما أمكن معرفـــته. ولما تـــمّ المعنـــى.فكان ذكْـــره في الكلام أولـــى لإيضـــاح الكلام وإتمـــام المعنـــى..ثمّ إنّه قد ذكـــر مفعول البكـــاء بقوله (.. أن أبكي **دمـــاً**) ولا سبيل إلى ذكْر ه من غير فعلـــه. فكان هذا الفعل المذكور مفعولاً لفعل المشيئـــة.وهذا أيضاً من دواعي ذكْره..

وثمّـــة ســـرّ آخـــر: وهو أن الشاعر تكلّـــم عن بكـــاء الـــدّم لا بكاء الدموع. وهو بكاء غير معهود. فكان حريصاً على إظهاره والتصريح بـــه للإفصاح عن حاله ممّا ألـــمّ بـــه إثْـــر فقده لابنـــه. فجاء ذكْـــر المفعول به مؤديـــاً لهذا الغرض..

٢- إذا كان في ذكره تكـــرار:

وهذا النوع من الحذف يشمل المفعول به إذا كان ضميـــراً عائـــداً. فيكون حذفـــه أفضل من ذكره تجنّـــباً للتكرار، ويراد بذلك الحذف التعبير عن غرض معيّـــــن. كما في قولـــه تعالى: ﴿ والضحى والليل إذا سجـــى مـــا ودّعك ربّـــك ومـــا قلـــى.. ﴾ [الضحى/١-٣] أي (ما ودّعك ربّك وما قـــلاك..) وحذف المفعول به (الكاف) لعدم التكرار. وكذلك لغرض بلاغي يتناسب مع سياق الآية. ألا وهو مخاطبة الله جلّ وعلا لرسوله الكريم بخطاب لطيف يواسيه ويطمئنـــه بعدما قيل له — وقد اشتدّ عليه الأمر - بأنّ ربّك قد تخلّى عنك وتركك..فجاء فعل التوديع منفـــيّاً وكذلك فعل القِـــلَى.. ثمّ ذكـــر المفعول به مع الفعل الأول، واكتفى به، إذْ أضمره في المفعول الثاني..فبيّـــن الله له بأنه لم يتركه ولـــم يبغضه ولم يتخـــلّ عنـــه.. ومن رحمتـــه برسوله وإشفاقه عليه اكتفى بذكْر الضمير الدّال عليه مرة واحدة، وأضمره في المرة الثانية.. ويؤكّد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ ولسوف يعطيك ربّك فترضى..﴾ [الضحى/٥] ففيه تأكيد باللاّم وبسوف، وفيه فعل العطاء وفعل الرضا، مع ذكْر الضمير (المفعول به) وكلّ ذلك لردّ ما ادّعاه المعرضون المكذّبون، وإثبات عكس ما كانوا يدّعون.

وفي السورة نفسها، وفي سياق آخر يقول تعالى:﴿ ألم يجدْك يتـــيماً فآوى. ووجدك ضالاً فهـــدى. ووجدك عائلاً فأغْـــنى. فأمّا اليتيم فلا

تقهرْ. وأمّا اليتيم فلا تنهـــرْ. وأمّا بنعمـــة ربّك فحـــدّث. ﴾ [الضحى/٨-١١].إذْ اكتفى في كلّ آية بذكْر المفعول به مرّةً وحذفـــه في المرّة الثانية، فلم يأت مكرّراً.. ثـــمّ إنّـــه ذكره لتذكير رسوله بأنعمه عليه حتى يزيده اطمئناناً وقوة وثباتاً على الحق وتبليغ الرسالة ..فجاء ذكْـــره مقروناً بذكْـــر تلك الأوقات الحالكة والظروف القاسية التي مـــرّ بها الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وهذه الظروف بادية في المفعول الثاني (يتيماً.. ضالاً..عائلاً..) وحذفـــه عند ذكْر أوقات السّعـــة والانفراج (فآوى.. فهدى.. فأغنى..).

وأمّا بعد ذلك فذكر المفعول في أول (اليتيم) ولم يذكره في آخرها (فلا تقهر).. وكذلك فعل في الآيات التالية..وذلك لســـرّ بلاغي يتمثـــل – إلى جانب عدم التكرار – في أنّـــه أوّلاً قد أكّد على المفعول الأول بعد (أمّا) تأكيداً يمتدّ إلى المفعول الثاني، فكأنّه قد ذكره.. وثّمـــة ســـرّ آخر وهو أنه سبحانه بعدما ذكر- في الآيات الأولى - المفعول به في البداية (وهو الضمير العائد إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم) حيث ضيق النفس وشدة الحال.. وأضمره في الآيات الثانية حيث السعة والانفراج والاطمئنان.. بعدما كان منه ذلك نحو رسوله، أراد من رسوله أن يكون منه ذلك نحو أمّته. فيحسن كما أحسن الله إليه. ويكون بها رحيماً وعليها مشفقاً كما لقي الرحمة والإشفاق من الله تعالى.. وقد كان الرسول صلّى

الله عليه وسلّم كما أمره ربّه. ونحن على ذلك من الشاهدين..هذا ما في هذه الآيات من الأسرار واللطائف التي لا تخلو منها آية. والله أعلم.

وقد ذكر بعض البلاغيـــين أنّ حذف المفعول به في هذه الآيات وما كان على شاكلتها هو من قبيل رعاية الفاصلة وحسب. ووقفوا عند هذا الحـــدّ.. ونحن لا وافق هذا الرأي، إذْ إنّ القرآن معجز بلفظه وبمعناه. وهو أرقى من أجود الشعر والنثر. فلا يكون ما يوصف به الشعر والنثر من السجع ورعاية الفواصل والوزن والقافية عندئذ مـــمّا يوصَف به القرآن بنظمه المعجز. بل هو أرقى من ذلك وأسمى.. وعلى هذا فرعاية الفاصلة تأتي في المترلة الثانية بعد رعاية المعنى، والتعبير عن المقاصد، وإيضاح المعانـــي، وتأدية الأغراض، ثمّ الإيقاع المتمـــيّز الذي ينفرد به النص القرآني..

٣- **إذا كان مفعولاً للمشيئة وفي ذكره تكرار**: فإذا جاء كذلك حسُـــنَ حذفُـــه وقـــويَ، لاجتماع هذيْن السبـــبيْن. والأمثلة في هذا الباب كثيرة في القرآن والشعر.. فمن القرآن مثلاً قوله تعالى:﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ [البقرة / ١٩] فالتقدير(ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها..)

وقد اُكتُـــفيَ بالشرط وجوابه، وهما متلازمان، واُستُـــغْنيَ عن ذكْر المفعول به الذي جاء متضمّـــناً في جواب المشيئة..كما أنّ في ذكره تكراراً لما سبق ذكره لفظاً وتركيباً.غير أنّ صيغة الفعل تتغيّـــر لكن ذلك لا يمنع التكرار في المعنى..

ومنه أيضاً قوله تعالى:﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه ﴾ [الأعراف/١٧٦].والتقدير(ولو شئنا أن نرفعه بها لرفعناه ..) فنحن نرى الفعل تكرر تارة بلفظ المضارع وتارة بلفظ الماضي، وتكرر معه المعنى. وعلى هذا حسُـــنَ حذف مفعول المشيئـــة..

وأمثلة النوع في القرآن الكريم كثيرة جـــدّاً نذكر منها قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لنذهبـــنّ بالذي أوحيْنا إليك.﴾ [الإسراء/٨٦] وقوله تعالى: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قريـــة نذيراً ﴾ الفرقان/٥١] وقوله تعالى: ﴿ ولو شئنا لآتـــيْنا كلّ نفس هداهـــا ﴾ [السجدة/١٣] وقوله تعالى: ﴿ قال لو شئت لاتّخذْتَ عليه أجراً ﴾ [الكهف/٧٧] وقوله تعالى: ﴿ قال ربّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإيّاي﴾ [الأعراف/١٥٥] وقوله تعالى: ﴿ إنّ هذه تذكرة فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلا ﴾ المزمل/٢٩].. وغيرها من الآيات الأخرى.. وفي كلّ منها أسرار ولطائف تنفرد بها، وتدخل في هذا السياق..

ومن الشعـــر مثلاً قول **البحتري:** [من الكامل]

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم ** كرما و لم تهـــدم مآثر خالد.

والتقدير:(لو شئت أن لا تفســـد سماحة حاتم لم تفسدها.. ولو شئت أن لا تهدم مآثر خالد لم تهدمها..) فالفعل الأول جاء مضارعاً والفعل الثاني ماضياً في المعنى بعد (لم) على الرغم من صيغة المضارع. وليس في تكراره إلاّ ثقل في الكلام وذهاب لرونقه المُـــتأتّي له من الحذف.

نستنتج أنّ هذا النوع من الحذف يضفي على العبارة حسْناً في صياغتها، يتـــبعه حسْن في المعنى يطرب له السمع، وتأنس له النفس. وذلك من درجات البلاغة الراقية والنظم البديع..

تـــنـــبـــيـــه:

ليس حذف مفعول الإرادة والمشيئة أمراً مطّـــرداً.. بل قـــد يكون ذكره أولى من حذفـــه. وذلك في بعض المواضع حيث يكون متضمّناً لأمر عظيمٍ أو مؤدّياً لمعنى جديد يتطلبه سياق الخطاب.. ومن ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿ لو أردنا أن نتّـــخذ لهواً لاتّخذنـــاه من لّـــدنّا إن كنّا فاعلين﴾ [الأنبياء/١٧] فالمعنى المستفاد من ذكْر المفعول هنا هو التنبيه على أنّ الله هو الحقّ وأنّ الله بيده الأمر كلّه. لينتبه الناس من غفلتهم وإعراضهم، ويعودوا إلى الله قبل فوات الأوان..فجاء ذكْر المفعول تثبيتاً للمعنى. إذ افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون. ما ياتيهم من ذكْر من ربّهم محدث إلاّ استمعوه وهم يلعبون.لاهيةً قلوبهم...﴾ [الأنبياء/١-٣]

فقد ذكر غفلتهم وإعراضهم ولعبهم ولهوهم... ثم بيّـــن لهم أنّ ما أمرهم به الله حقّ ليس باللّهو الذي درجوا عليه.. وأنهم مخطئون حائدون عن السبيل القويم. كلّ هذه المعاني تجعل ذكْر المفعول به مهمّاً للتعبير عن المراد، وهو عظمة الله سبحانه، وقدرته، وأنّ أمره ليس بلهو ولا لعب.. وقد قال تعالى مبيّناً ذلك قبل آية الإرادة: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما

بينهما لاعبين.﴾ [الأنبياء/١٦] بل إنه لم يكتف بذكْر المفعول به، وإنما زاد المعنى تأكيداً بذكْر الضمير العائد إليه في قوله (لاتّخذناه)..

ومن الخطأ فهم الآية على ظاهر معناها الشرطي الذي يكون ممكن الوقوع. فمعاذ الله أن ينسب اللهو إلى الله. وعلى هذا فالمعنى هو أنّ اللهو ليس من صفات الله. وأنّه سبحانه يدعوهم إلى الحق والاهتداء..

٤- **إذا دلّ عليه فعل من جنســـه**: وذلك حينما يكون المفعول مستفاداً من الفعل المذكور، فلا يحْسُن ذكْره عندئذ. بل إنّ حذفـــه يكون أدلّ على المعنى المراد. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ [الزمر/١٠] فالمفعول مفهوم من الفعل (يعلمون) مثبتاً أو منفياً. ويتضح من الفعل أنّ المفعول به هو العلْم وما يتصل به، من غير تحديد لنوع العلْم. ولذلك كان الحذف أدلّ على هذا المعنى الواسع.

ومثاله أيضاً قول تعالى: ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبـيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.﴾ [البقرة/١٨٧]. فالمفعول به هنا محذوف أيضاً يدل عليه الفعل (كلوا) ويحسُن ذكْره لأنّ الأكل غير محدّد والشّرب غير محدّد. إذْ ليس المراد أكلاً أو شرباً معيّناً، وإنما المراد هو وقوع فعل الأكل والشرب في الوقت الذي يباح فيه.. وعلى هذا جاء المفعول به مفهوماً من السياق ، على أنه من جنس الفعل المذكور.. وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن وفي الكلام العربي..

٥- **إذا كان مفهوماً من السياق:** وهو أن يكون ما يؤديه المفعول به المحذوف من المعنى مفهوماً من خلال السياق. فبمجرد ذكْر الفعل يُفْهَم منه المفعول. وتكون دلالته مطلقةً غير محدودة.ومنه قوله تعالى: ﴿.. وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا.. ﴾ [النجم/٤٣-٤٤]

فالمفعول جاء مستفاداً من المعنى المطلق.وهذا الإطلاق مقصود. إذْ ليس ثمة مفعول به معيّن على الرغم من هذه الأفعال المتتالية. والغرض من هذا الحذف هو إظهار قدرة الله سبحانه، وأنه هو لا غيره من يملك كلّ شيء. وأنه هو صاحب الأمر كلّه. وفي هذا حث على إدراك قدرته وعلى الإيمان المطلق به وعبادته هو دون سواه..

٦- **إذا أمكن الاستغناء عنه بما هو أولى في الكلام:** ويكون ذلك عندما يأتي المفعول به مقروناً في المعنى بما هو أولى منه في السياق. بحيث يتم الاستغناء عنه بذْكر ما قرن به.وفي ذلك دلالة قوية وتعبير فنّي بديع عن الغرض المقصود من الكلام.

ومنه قول الشاعر **البحتري** مادحاً: [من الطويل]

وكم ذدْتَ عنّي من تحامل حادث ** وسَوْرة أيام حَزَزْنَ إلى العظْمِ

فمراد الشاعر: (حزَزْنَ **اللّحْمَ** إلى العظم..) ولكنه حذف المفعول به استغناءً عنه بذكْر ما هو مقرون به في المعنى، وهو لفظ (العظْم). ولو ذكر المفعول به (اللّحم) لما كان في ذكْره فائدة، ولكان

في الكلام ما يشبـــه التكرار.. كما أنَّ حذفـــه أدلّ على غرض الشاعر، وهو عرفانه بعطائه الجزيل له وأياديه البيضاء عليه..

- إذا كان للشمول والإيجاز: وذلك بأنْ يُفْهَـــم من حذف المفعول به معنـــى الشمول في عبارة موجزة. نحو قوله تعالى:﴿ والله يدعو إلى السلام ﴾ [يونس/٢٥] أي : يدعو كلّ الناس. فالدعوة شاملة لجميع الناس.. وقد أرسل الله رسله إلى الناس جميعاً يدعوهم إلى عبادته والإيمان به..فعدم ذكْر المفعول به هنا أبلغ من ذكره وأقوى دلالة على المعنى المراد..

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة..﴾ [النحل/١٢٥]

فتكليف الله جلّ وعلا لرسوله صلى الله عليه وسلم جاء شاملاً، ثم يأتي اقتداء أمّتـــه به في هذه الدعوة الشاملة للبشرية..فالكلّ مكلّف بأن يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يحسن الجدال والحوار.. ولـــم يأت ذكْر المفعول به هنا لأنه يفهَم منـــه الدلالة على الشمول باللفظ الوجيز.. وما أكثر مثل هذه الشواهد في الكتاب العزيز..

المبحث الخامس : التعريف والتنكيـر

القيمته الفنّـــية للتعريف والتنكير:

التعريف والتنكير باب واسع في اللغة العربيـــة يتجلّى فيه بديع نظمها. وقد بحث فيه العلماء وأفاضوا، ولكنهم ما سبروا أغواره ولا كشفوا أسراره إلاّ بقدر محدود، ولا سيما ما كان منه في النص القرآني . إذْ يُلْجَـــأ إلى التعريف أحياناً وإلى التنكير أحياناً أخرى.أو يكون الكلام معرفاً في صدره منكّراً في عجُزه، أو العكس. وكل ذلك إنما يكون لأغراض بلاغيـــة ومقاصد يراد تبليغها. وقد يكون إدراك بعض القيمة الفنّـــيّة للتنكير وما له من المزايا من خلال مقابلة معانيه بمعاني التعريف وعقْد المقارنة بين هذه المعاني وتلك..

ولقد تكلّم النحاة في هذا الموضوع، وقالوا بأنّ المعرفة هي ما دلّتْ على معيَّن، والنكرة ما دلّتْ دلالة عامة على غير معيَّن. كما اشترطوا في بعض الكلمات أن تكون معارف في الأصل، كما هو الشأن في (المبتدأ) مع أهم جعلوا مسوغات للابتداء بما هو نكرة.. ولنا أن نتساءل: هل كلّ ما كان نكرة دلّ على غيْر معيَّن؟ وهل كلّ ما كان معرفة دلّ على معيَّن؟

المعهود أنّ النكرة في أصلها تدلّ على العموم وعدم التعيين..ولكنّ الذي نريد أن نبحث فيه هو أسرار التعريف والتنكير من ناحية المعاني المقصودة والأغراض المنشودة منه، وما يتصل منها بحال المتكلم أو

المخاطَب.. ولا نريد أنْ نقف عند تحديدات النحاة فيما يتصل بالإعراب وحسب..

وقد عرض البلاغيون لتعريف المسند إليه وتنكيره، كما عرضوا لتعريف المسند وتنكيره.. وذكروا عدّة أغراض في كل منهما.. فالمسند إليه في تعريفه أنواع ، كما هو عند النحاة ولكل نوع من هذه الأنواع دلالة خاصة وأثر بلاغي تحدّث فيه البلاغيون وأسهبوا. وحدّدوا أغراضا لاحظوها في خروج هذه المعارف – في تأديتها لوظيفتها – إلى معان أخرى. على أن الأصل في المسند إليه أن يكون معرفة لأنه المحكوم عليه. ومما توصلو ا إليه من معانٍ وأغراض في تعريف المسند إليه نذكر على سبيل المثال ما يأتي:

أغـــراض تعريف المسنَـــد:

١– **تعريف المسند إليه بالإضمار**(١): الأصل في المسند إليه أن يكون دالا على متكلم أو مخاطب أو غائب، في حال الإفراد أو التثنية أو الجمع. ويبدو لنا أنْ ليس في هذه الضمائر قوة بلاغة، لأن أسلوب العربية ونهج كلامها يتطلبان هذه الضمائر. إنما البلاغة في ضمير المخاطب، فهو إنْ كان أصلا لرجل أو امرأة مخاطبين معينين، فإنه قد يستعمل الاستعمال ذاته، دون أن يقصد به مخاطب معين. إذ يصح أن يقصد به كل إنسان، في كل زمان

---

(١) ينظر: البلاغة العربية في ثوبها الجديد للدكتور بكري شيخ أمين – دار العلم للملايين– بيروت – لبنان/ ط ٦ (١٩٩٩) ١ / ١٢٥– ١٢٦

ومكان. ومثل ذلك مطلع قصيدة **المتنبي** التي أنشدها في مدح **كافور** عند أول لقائه، وكان قبله يتقطع ألما على فراق سيف الدولة: [من الطويل]

كفى بـــ**ك** داء أن ترى الموت شافيا ** وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

فهذا البيت وبقية الأبيات التي تليه هي في الأصل لممدوح معيّـــن هو **كافور**. لكن هذا الكلام لما احتوى من آهات وآلام وحِكَم صار صالحا لكل زمان و لكل جيل. ومعنى هذا أن ضمير المخاطب انتقل من معين مقصود إلى غير معين ومقصود. وهذا سر الضمير وبلاغته..

٢- **زيادة التقرير** :(١) مثال ذلك في قوله تعالى: ﴿ وراودته **التي** هو في بـــيـــتها عن نفسه ﴾ [يوسف/ ٢٣) وردت هذه الآية الكريمة في سياق قصة سيدنا **يوسف** عليه السلام لتبين موقفه من زوجة العزيز التي راودته عن نفسه، ولكنه عليه السلام أبى واستعصم وضرب مثالا رائعاً في التّقى والنزاهة.. وقد ورد المسند إليه معرفة بقوله (التي) لأن في صلته (هو في بيتها) تأكيداً للغرض الذي سيقت له الآية. فالداعية إلى يوسف ليستْ مجرد أنثى، ولكنها تلك التي أكرمت في بيتها مثواه وأغدقت من نعيمها عليه. فإذا لم ينخدع أو يخضع عليه السلام لمراودتها إيّـــاه مع كل هذا، فإن ذلك يكون أدل على طهارته وآكد..

---

(١) د/ حسن طبل: دراسات في علم المعاني - مكتبة الزهراء - القاهرة : ص٥٨

أغراض تنكير المسنَد إليه:

يؤتَى بالمسند إليه نكرةً لغرض في نفس المتكلّم أو معنى بعينه يريد تبليغه للمخاطَب، بحيث لا يكون التعبير عنه إلاّ باستعمال النكرة.. وأغراض هذا النوع من التنكير كثيرة لا يمكن حصرها، وإنما تستفاد من السياق الذي ترد فيه النكرة. وسنذكر أهمها فيما يأتي:

١- **الحجّة والموعظة:** من شواهد القرآن الكريم على هذا الغرض من التنكير قوله تعالى:﴿ وجاء من أقصى المدينة **رجلٌ** يسعى قال يا قوم اتّبعوا المرسلين ﴾ [يس/٢٠] فالرجل هنا نكرة، لكنّه معروف. وقد قيل إنه الرجل الذي كان على علْم برسل عيسى عليه السلام إلى بلد أنطاكية، وقد كان ممّن آمن بما جاؤوا به، فنجا هو ومن آمن، وهلك منْ كفروا بهؤلاء الرّسل.. وقيل إنّ اسمه (حبيب النجار).فهل نعتبر بعد هذا أنّ لفظ (رجلٌ) نكرة لأنه دلّ على غيْر معيَّن، ونقف عند هذا؟ كلاّ! إنّ الرجل معروف هنا، وقد جاء تنكيره لغرض يراد تحقيقه، ألا وهو الدعوة إلى الهداية وتصديق المرسلين والإيمان بالله وتوحيده. ولكي يكون الدليل قويّاً على أنّ ما جاء به الرّسل حقّ ويقين، استُعْمِلَ لفظ النكرة (رجلٌ) لبيان قوّة الحجّة والبرهان الذي جاء به هذا الرجل من بعيد، حتى لا يقال إنّ ما يدعو إليه الرسول هو من افتعاله. وكذلك ليكون حجّة وشاهداً يوم الحشر على الكافرين المكذبين. وموعظة للمتّقين..

٢- **تعمـــيم الحُكْم وشموله**: وذلك بأنْ تكون النكرة دالـــة على تعميم الحكْم وشموله. وقد يكون في الكلام عندئذ ما يدل على معنى العموم، ليزيد هذا الغرض وضوحاً، كلفظ (كلّ) في قول **المتنبّي**: [من البسيط]

لكلّ داءٍ دواءٌ يُـــسْـــتَطَبّ به ** إلاّ الحماقـــة أعْـــيتْ من يداويها

فكلّ داء له دواء.. أي أنّ هناك عدة أدويـــة لعـــدة أدواء. هذا ما يُفْهَـــم من صدر البيت. ولكنه يستثـــني الحماقة في عجُز البيت.بأنْ لا دواء لها.. والشاعر يريد من استعمال النكرة أنْ يأخذ بذهن المخاطَب نحو معنى الشمول وتعميم الحُكْم أوّلاً.. فإذا تـــمّ لـــه ذلك عدل به نحو الاستثناء عدولاً قويّاً.

وهذا العدول الأسلوبي دليل من الشاعر على استعصاء داء الحماقة وتميُّزه عن سائر الأدواء- مهما كانت صعوبتها-بعدم التمكّن من إيجاد شفاءٍ له. وقد قالت العرب في الحكمة: (السكوت عن الأحمق أبلغ جواب عليه).

٣- **تحديد النوع**: وهو أن تكون النكرة دالّة على شيء معيّـــن ممـــيّز بنوع من التخصيص يُفْهَم من خلال السياق.. ومن ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم. وعلى أبصارهم **غشاوةٌ** ولهم عذابٌ عظيمٌ.﴾ [البقرة/٠٧] فقد جاء لفظ (غشاوة) – وهو مسند إليه مؤخّر – نكرةً للدلالة على أنّ هؤلاء الكافرين قد بلغوا درجة كبيرة من الكفْر، حتى عموا عن الحق. فكأنّ على أبصارهم غشاوةً تمنعهم من الإبصار وإدراك الحق واليقين..فهي إذاً غشاوة العمـــى والكُفْر التي رانت على بصائرهم فحادتْ

بهم عن السبيل القويم.فكأنها هذا النوع قد خصّـــص بهذا السياق الذي ورد فيه..وقد كان جزاؤهم من جنس عملهم. وهو ما يبـــيّنـــه آخر الآية بقوله تعالى: ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾

٤- **التكثـــير والتشويق**: ومن التكثير قوله تعالى في مكافأة المؤمنين المتقين: ﴿ومن النخل من طلعها **قنوان دانية وجنّات** من أعناب ﴾ [الأنعام/٩٩] فجاء تنكير (قنوان دانية وجنّات) لغرض التكثير، وجاء الجمع موضّحاً لهذا التكثير الذي يقترن مع التشويق إلى هذه الجنّات..ويؤيّد هذا المعنى قوله أيضاً من السورة نفسها: ﴿ وهو الذي أنشأ **جنّات معروشات** وغير معروشات ﴾ [الأنعام/١٤١]. فتنكير الجنّات هنا دليل على كثرتها المقصودة، ويزيد هذا المعنى توضيحاً قولُه (معروشات وغير معروشات) فقد عـــدّد أنواعاً منها وهو يصفها، وجاء وصفها بالنكرة كذلك، لتأكيد هذا المعنى..

وانظر إلى قوله تعالى في شأن مكافأة المستغفرين الذين لا يصرّون على المعصية: ﴿.. أولئك جزاؤهم **مغفـــرةٌ** من ربّهم **وجنّاتٌ** تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعْم أجر العاملين ﴾ [آل عمران/١٣٦] فقد قال (مغفرةٌ) بالتنكير والإفراد لتشويق من عملوا لها إلى ما فيها. فهذا يجعلهم يتشوقون لهذا الجزاء، وما تكون عليه هذه المغفرة من ربهم..

فالغرض هنا هو التشويق، ذلك أنّ التكثير يكون بصيغة الجمع.. ثـــمّ زادهم عليها (جنّات) بالتنكير، ثم وصفها بما يبـــيّن بعض خصائصها، وإنْ كان شوقهم إليها باقياً..

إلاّ أنّ غرض التكثير ههنا بـادٍ من هذا لبتنكير والجمع.. فهذا يجعلهم يطمئنّون بأهم سيدخلون أكثر من جنة واحدة. وأمّا عدد الجنّات بعد التكثير، فهذا مـمّا يزيدهم شوقاً إليها.. والله أعلم.

٥- **التعظيـم** : من أمثلة التنكير للتعظيم قوله تعالى:﴿ ألـم ذلك الكتاب لا ريب فيه **هدًى** للمتقين ﴾ [البقرة/٠٥] فقد جاء تنكير اللفظ (هدًى) لغرض تعظيم شأن القرآن الكريم وبيان ما يدعو إليه من الهداية. ولفظ (هدى) دلّ هنا على الهدى على إطلاقه، وفي ذلك دليل على أنّ هداية القرآن للناس متأتّية من عدة جهات. وذلك دليل على عظمته، وعظمة الخالق سبحانه.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى:﴿ قالوا يا موسى إنّ فيها **قوماً جبّارين**﴾ [المائدة/٢٢] فهذا يدلّ على انّ قوم موسى خائفون من هؤلاء القوم، وعبّروا عن ذلك بتعظيمهم لهم، فدجاء التنكير لهذا الغرض البلاغي ليؤدّي المعنى المراد التعبير عنه.

٦- **التعظيم مع التهويل:** قد يجتمع هذان الغرضان ويشتركان. وقد يكون كلّ منهما مستقلاً عن الآخر بحسب السياق.. ومن أمثلة اجتماعهما قوله تعالى في الآية التي ذكرناها آنفاً:﴿ولهم **عذابٌ عظيمٌ**.﴾ [البقرة/٠٧].

فقد أراد أن يبـيّـن أنّ ما ينتظر هؤلاء المعرضين الكافرين أمْرٌ عظيمٌ هائلٌ.وعبّر التنكير عن هذا المعنى، وأصاب هذا الغرض المقصود..

ولو جاء معرفة لما كان كذلك..إذْ لو قال (ولهم العذاب العظيم) لعُلِمَ أنّه عذابٌ معهود لدى المخاطَب- مهما كان عظيماً- فهو ليس مثل عِظَم العذاب الذي يأتي بصيغة التنكير، بحيث لا يكون للمخاطَب عهدٌ به وبهوله. فهذا العذاب الذي يجهله يُلْقي في نفسه الخوف، فإنْ لم يخف منــه ألقى في نفسه تساؤلاً عن مدى عِظمِــه وهوله، لأنه لا يعلم مداه. وهذا المعنى لا يتأتّى فيما لو كان معهوداً.

تحقـيق مسألة:

قد ينــتقل القول الواحد من غرض إلى غرض آخر مناقض ومضادّ له بسبب تغيير يسيــر يطرأ عليه. كما في البيــت الآتي **لابن أبي السمط:** [من الطويل]

له **حاجبٌ** في كلّ أمرٍ(١)يشينه ** وليس له عن طالب العرف **حاجب**

ذكر **القزويني** هذا البيتَ في سياق التحقيــر على أنّه لــم يُعْرف منه ارتفاع شأن المتحدث عنه أو انحطاطه..ولكنّ أحد المحدثين (٢) ذكره في سياق التعظيم في شطره الأول.وفي سياق التحقير في شطره الثاني.. إذْ رأى

---

(١) ورد هذا البيت في الإيضاح : ص٤٩. بقوله: (في كل أمر) وفي بعض الكتب الحديثة: (في كل **شيء**).

(٢) هو الدكتور سعد أبو الرضــا في كتابه: في البنــية والدلالــة: ط/ منشــأة المعارف – الإسكندرية (١٩٨٧م) ص١٥٥ – ١٥٦. كما أنّه نسبه إلى مروان بــن أبــي حفصــة لا إلى ابن أبــي السمــط..

أنّ تنكير (حاجب) الأولى للتعظيم، وتنكير (حاجب)الثانية للتحقير والتقليل. وهكذا جمع بيْن غرضيْن متناقضيْن كلّ التناقض، متضادّيْن كلّ التضادّ.

هكذا نرى أنّ تغيـــيراً يسيراً يصيب البيت في أحد حروفه يحيله من التعظيم إلى التحقير. ومن المدح إلى الهجاء..ولنا أن نقول أن هذا البيت روي أكثر من رواية ونسب إلى أكثر من قائل.. غير أنّ الذي نركز عليه الكلام هنا هو السياق الذي ورد فيه وما يحتمله من تأويلات. فإذا كان بالحرف (في) أي بقوله:

له حاجبٌ في كلّ شيء يشينه ** وليس له عن طالب العرف **حاجب**

فإنْ كانت الجملة (يشينه) وصفاً للمسند إليه، المبتدأ (حاجبٌ) فهو تحقير، على اعتبار أنّ هذا الحاجب هو الذي شانه بدل أن يحميه من الشّيْن.. فهو إذاً (أي: المتحدث عنه) مشينٌ.

وفي هذا تحقير وهجاء له. وتكون (في) هنا مفيدة لمعنى التعدّد، أي تعدّد الجهات التي يشينه فيها هذا الحاجب..

وإنْ كانت الجملة (يشينه) وصفاً للمضاف إليه (شـــيء) فهو تعظيم، على اعتبار أنّ هذا الحاجب قد حمـــاه من كلّ ما يشيـــنه، فلم يلحقه شيء من الشّـــيْن..وتكون (في) هنا مفيدة لمعنى المصاحبة ، أي مصاحبة الحاجب للممدوح في كلّ شيء ليحميه ممّا يشـــينه. هذا إذا رُوي البيت بالحرف (في) كما بيّـــنّا، لأنّ هذا الحرف يتناسب مع سياق

التعظيم والمدح وكذلك مع سياق التحقير والهجـــاء.. أمّا إذا رُويَ البيـــت بالحرف (عنْ) أي بقوله:

له حاجبٌ **عَنْ** كلّ شيء بشينه** وليس له عن طالب العرف **حاجب**

فإنـــه يكون في سياق التعظيم والمدح، لأنّ الحرف (عنْ) لا يحتمل إلاّ معنى صون المتحدّث عنه عن الشّـــيْن.. وتكون الجملة (يشينـــه) وصفاً للمضاف إليه (شـــيء) وليس غير ذلك..وعلى هذا يكون المعنى: أنّ الحاجب يصونه عن كلّ ما يشينه..

هذا عن الشطر الأول. وأمّا الشطر الثاني من البيت، فلا أدري كيف يُفْهَم منه التحقير ما دام في متناول طالبي عطائه لا يحول بينهم وبينه شيء![1] فإذا كان كلّ طالب للعرف منه لا يجد حاجباً يحول بينهما فإنّ ذلك يؤخذ من باب الكناية عن كرم الممدوح واستجابته لكل طالب عرْف يأتيه.

وعلى هذا فإنّا نرى بأنّ البيت سيق للتعظيم والمدح لا للتحقير كما زعم **القزويني** ولا للتعظيم تارة وللتحقير تارة أخرى كما زعم الدكتور سعد أبو الرضا. وذلك في كلا شطريْـــه؛ إذْ جاء الشطر الأول مدحاً للمتحدّث عنه بإظهار صفاته الحسنة في ذاته بإبعاده عن كلّ ما يشينه.. ثم جاء الشطر الثاني لإظهار صفاته الحسنة مع غيْره بسخائه وكثرة عطائه بغير حدود.. هذا ما نراه ونستخلصه في تحقيق هذه المسألة وتصحيحها..

---

(1) هكذا شرح الدكتور سعد أبو الرضا الشطر الثاني من البيت.. ثم قال بأنّ تنكير (حاجب) فيه للتحقير ! (نظر كتابه: في البنية والدلالة: ص ١٥٦)

المبحث السادس : التقديم والتأخـــير

تعريـــف:

التقديم في الاصطلاح هو تقديم لفظ أو عبارة متأخّرة بنقلها من رتبتها الأصلية (المتأخرة) إلى رتبة متقدّمة، لغرض بلاغي في نفس المتكلّم.. والتأخير هو عكس التقديم. أي أنه يتم بتأخير الكلمة أو العبارة بنقلها من رتبتها الأصلية (المتقدّمة) إلى رتبة متأخّرة لغرض بلاغي كذلك .وكل تقديم يقتضـــي تأخيراً، فلا يكون هذا بغيْر ذاك..والحقيقة أنّ الكلام عن التقديم يغني عن الكلام عن التأخير، ذلك أنّ الكلمات التي تحظى بالأهمية في نفس المتكلّم – بحسب ما يريد التعبير عنه من أغراض – هي التي يتـــم تقديمها. فيتأخر عنها ما كان قبلها..

أهمّـــيّة التقديم وقيمته الفنّـــيّة :

ولقد أشار إمام النحاة **سيبويه** في أكثر من موضع من كتابه إلى هذا النوع من التراكيب..فقال في باب الفاعل الذي يتعدّاه فعله إلى مفعول : « ... و هو عربي جيّد كثير كأنّهم إنما يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم و هم ببيانه أعنى ، و إن كانا جميعا يهمّاهم و يعنيّاهم .» (١) فههنا نوع من التّقديم جيّد تكلّم عنه **سيبويه**، لكنّ هناك نوعا آخر من التّقديم عُرف في الكلام العربي و لم يكن موضع استحسان عنده، كما في قول عمر بن أبي ربيعة: [من الطويل]

---

(١) سيـــبويـــه : الكتاب : ٣٤/١

صددت فأطولتِ الصّدود و قلّما ** و صال على طول الصّدود يدوم

فتقديم الفاعل (وصال) على فعله (يدوم) هو عنده ممّا يؤدي إلى قبح الكلام، و الأحسن أن يقال « و قلّما يدوم وصال.» (١)

وقد رأى الرأي نفسه بعض النّحاة في تعليقهم على هذا البيت ، فقالوا بأنّه لا يجوز رفع (وصال) بالفعل (يدوم) لأنه (أي الفعل يدوم) متأخر عن الاسم (وصال) ولكن يرتفع بفعل مقدّر يفسّره الفعل (يدوم) ويكون التقدير عندئذ (قلّما يبقى وصال يدوم) و نحوه مما يفسّره الفعل (يدوم) و لا يرتفع بالابتداء لأنه موضع فعل . (٢)

ونخلص من هذا إلى أنّ التقديم عند **سيبويه** بعضه جيّد كقولنا (ضرب زيدًا عبدُ الله) وبعضه قبيح كما في البيت السّابق وقد قصره على الشعراء وفي هذا إشارة منه إلى أنّ هذا التقديم جائز للضرورة الشعرية فقط.

كما نتبيّن من كلام **سيبويه** أنّه اكتفى في شأن التقديم و التأخير بالإشارة و التعميم حين ذكر أنّ الغرض منه هو العناية والاهتمام .

و لم يحظ هذا النوع من التراكيب – على أهميته و قيمته – بالعناية الكافية في دراسات القدماء قبل هبد القاهر الجرجاني، وإن كانوا قد أشاروا إليه في عدة مواضع .. فهذا ابن جني مثلا يرى أنّ تقديم المفعول على الفاعل مما شاع في كلام العرب ، ويضرب أمثلة على ذلك من القرآن و الشّعر،

---

(١) سيـــبويــه : الكتاب : ٣١/١

(٢) ابن يعيش: ينظر المفصّل: ١٣٢/٨

لكنه يكتفي بوصفه بالكثرة و الاطّراد و الشيوع والجودة، دون أن يبيّن وجوه الحسْن و الجودة فيه، أو يذكر أغراضه وأسراره البلاغية (١) فإذا كان سيبويه قد اكتفى بالإشارة إلى التقديم وأغراضه نحويا و بلاغيّا ، فإنّ ابن جني نظر فيه من الناحية النحوية و لم يَغُصْ في كشف أسراره البلاغية ومزاياه الفنيّة إلاّ بقدر محدود..

وكان **المبرّد** يستحسن بعض الكلام الذي قيه تقديم و تأخير ويحكّم فيه ذوقه. إذْ رأى أنّ الاسم (صدود) من البيت الذي سقناه (صددت فأطولت...) فاعل على الرغم من كونه متقدّما على فاعله. على خلاف ما يرى كثير من النّحاة. كما أنّه كان يستهجن بعض الكلام لما فيه من التقديم والتأخير الذي لم يُصب محلّه اللائق، كما في قول **الفرزدق** : [الطويل]

و ما مثله في النّاس إلاّ مملكا ** أبو أمّه حـــيّ أبوه يقاربه

فالمراد من البيت في ترتيبه الأصلي (وما مثله في النّاس حيّ يقاربه إلاّ **مملّك** ، أبو أمّ هذا المملك هو أبو هذا المدوح .) فلقد " هجّنه بما وقع فيه من التقديم والتأخير حتّى كأنّ هذا الشّعر لم يجتمع في صدر رجل واحد ." (٢) ونحن نرى أنّ الغموض والتعقيد بادٍ حتّى في حين وضع الكلمات في مواضعها الأصلية ، فكيف بها و قد تقدّم بعضها و تأخّر بعض ؟!

---

(١) ينظر الخصائص لابن جني : ١/٢٩٤ – ٣٠٠ غير أنّنا نجده في المحتسب يثبت أنّ هناك نكتا بلاغيّة في تقديم المفعول ويشير هو أيضا إلى أمر العناية التي أشار إليها سيبويه.

(٢) المبرّد : الكامل : ١/٢٨.ط/ دار الفكر العربي .

لقد رأينا أنّ الأوائل أشاروا إلى أسلوب التقديم و التأخير إشارات عامّة فذكروا العناية و الاهتمام لكنهم لم يعتنوا به حقّ العناية بل لقد " هوّن فريق من النّاس ممّن فسدت أذواقهم و اختلّت ملكاتهم من أمر التقديم و صغّروا شأنه و رأوا النظر فيه و الاشتغال به ضربا من التكلّف... وذلك الظّنّ الفاسد قد ذهب بهم عن معرفة البلاغة ، و حال بينهم و بين الوقوف على مناشئها و أسبابها، وصرفهم عن إدراك سرّ الإعجاز في القرآن الكريم، و كيف يتفاوت الكلام في الدّرجات البلاغيّة و البيان (١)."

وعندما نصل إلى القرن الخامس الهجري نلتقي **بعبد القاهر الجرجاني** و نظريته في النّظم ، تلك النظرية التي أبدع فيها الجرجاني مستفيدا من آراء من سبقوه و مضيفا على ما قرّروه و مستدركا لبعض ما أغفلوه و كما اعترف الجرجاني بجهود العلماء و الذين وطّأوا له السّبيل لإثبات نظريته بقوله "و قد علمت إطباق (٢) العلماء على تعظيم شأن النظم و تفخيم قدره و التنويه بذكره و إجماعهم أنّ لا فضل مع عدمه ، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم و لو بلغ في غرابة معناه ما بلغ .. " (٣) فإنّ ما قدّمه في مجال

(١) د/ محمد السيد شيخون : أسرار التقديم و التأخير في لغة القرآن الكريم: ص ٦٥

(٢) إطباق : إجماع واتفاق .

(٣) الجرجاني: دلائل الإعجاز ص ١٢٦ تح: د. ياسين الأيوبي/ المكتبة العصرية –لبنان ٢٠٠٠

النحو والبلاغة والنقد والأدب عامّة يوجب على لاحقيه أن يعترفوا له بالفضل و أن يولوا نظريته القديمة المتجدّدة العناية التي تستحقّها

وضمن نظريّته في النظم التي كانت بدافع البحث في الإعجاز القرآني و بيان أسرار البلاغة العربية بعد أن رأى الجرجاني ما رأى من إهمال لأسرار الأسلوب القرآني و بلاغة اللسان العربي . ضمن هذه النظرية تكلّم الجرجاني عن المعاني و الأساليب و أغراضها و أسرارها ، و من هذه الأساليب أسلوب التقديم و التأخير ، فلقد أعطاه من الاهتمام و العناية ما لم يعطه غيره ، إذ يقول فيه " هو باب كثير الفوائد جمّ المحاسن واسع التصرّف بعيد الغاية لا يزال يفترّ لك عن بديعة ، و يفضي بك إلى لطيفة و لا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه و يلْطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أن راقك و لطُف عندك أنْ قدِّم فيه الشيء على وجهين : تقديم يقال إنّه على نيّة التأخير ، و ذلك في كلّ شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه و في جنسه الذي كان فيه ... و تقديم لا على نية التأخير و لكن على أن تنقل الشيء من حُكمٍ إلى حُكمٍ و تجعله بابًا غير بابه و إعرابًا غير إعرابه ..." (١)

ويتوسع **الجرجاني** فيما اكتفى سابقوه بالإشارة إليه في شأن أغراض التقديم و التأخير كما فعل في غيره من الأساليب العربية ذات الأسرار

---

(١) دلائل الإعجاز : ص ١٤

البلاغية البديعة، إذْ يقول : " و قد وقع في ظنون الناس أنّه يكفي أن يقال إنه قُدِّم للعناية ، و لأن ذكره أهمّ من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ، و لِمَ كان أهمّ ، و لتخيّلهم ذلك قد صغُرَ أمر التقديم و التأخير في نفوسهم وكذلك صنعوا في سائر الأبواب فجعلوا لا ينظرون في الحذف و التكرار والإظهار والإضمار و الفصل و الوصل ، و لا في نوع من أنواع الفروق والوجوه إلاّ نظرك فيما غيره أهمّ لك ، بل فيما إن لم تعمله لم يضرّك ، لا جرم أنّ ذلك قد ذهب بهم عن معرفة البلاغة ، و منهم أن يعرفوا مقاديرها ..."(١)

هكذا اهتمّ **الجرجاني** بأمر التقديم و التأخير فذكر أنواعه و بين أغراضه على تنوّعها، وفصّل ما كان أجمله العلماء السّابقون و أعاد الاعتبار لأساليب العربية من حيث قيمتها المعنوية وأثرها في النفس فلم تعد عنده قوالب شكلية خاضعة لقانون صارم من القيّاس المفروض كلّ إبداع فيه مرفوض و لم تعد عنده إغراقًا في التعقيد و الغموض بما يبعدها عن مزايا اللسان العربي و خصائصه ، فهو إذًا لم يحد في نظمه عن النحو إذ تراه يقول : " واعلم أن ليس النّظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، و تعمل على قوانينه وأصوله و تعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها و تحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها ..." (٢) وهو لم

---

(١) المصدر السابق: ص ١٤٩

(٢) المصدر نفسه: ص ١٢٧

يحد عن البلاغة إذ تراه يقول:" .. وما كان الموضعَ من المزية وبالغًا هذا المبلغ من الفضيلة كان حَرًى (١) بأن توقظ له الهمم و توكّل به النّفوس و تحرّك له الأفكار وتستخدم فيه الخواطر ، و كان العاقل جديرا أن لا يرضى من نفسه بأن يجد فيه (٢) سبيلا إلى مزية علم و فضل استبانه و تلخيص حجّة و تحرير دليل ثمّ يعرض عن ذلك صفحا ..." (٣)

فها هو ينظر إلى النحو نظرة جديدة متميّزة على أساس من العناية بالمعنى دون أن يخرج على المتعارف فيه. وهو بهذه النظرة يقدّم المفهوم الصحيح للنحو.كما أنّه ينظر إلى البلاغة نظرة مبنــيّة على تحكيم الذوق وإعمال الفكر والخــاطر، للبحث في قيــمة كل نظــم واكتشاف أسراره.. و هكذا يؤلّف **الجرجاني** بين النحو والبلاغة فلا غنًى لأحدهما عن الآخر ، و بهما معا يكون النظر الثّاقب و التقدير الصّائب ، و هذه نظرة جديدة بالإحياء والإثراء لأنّها تمثّل المنهج الصّحيح في دراسة اللغة ، و هو ما تجسّده الدراسات الحديثة .

فموضوع التقديم و التأخير الذي نتكلم عنه ههنا يدخل في نظرية **تومسكي** ضمن فكرة التحويل. بل هو من أبرز عناصرها و يسمى (عنصر الرتبة أو الترتيب) و هو أكثر عناصر التحويل وضوحا لأن المتكلم يعمد إلى

---

(١) حَرًى : خليقا و جديرا .

(٢) الهاء في (فيه) تعود إلى العاقل (أي في نفسه)

(٣) المصدر نفسه ص ١٢٦

تقديم مور فيم حقّه التأخير أو العكس وفقا لترتيب المعاني في النفس بالبنية العميقة ، أمّا البنية السطحية فتمثل ظاهر الجملة (١)

ومن هذا نتبين أن البنية العميقة هي محتوى التركيب و البنية السطحية هي شكله ... و هذه الفكرة نفسها نجدها عند الجرجاني إذ يجعل ترتيب الألفاظ داخل التركيب وفقا لترتيب معانيها في النّفس .و فيما يأتي نسوق أمثلة عن التقديم و التأخير و نبيّن بعض أسرارها:

أنـــواع التقديـــم :

أولاً: تقديم أصله التأخـــير :

وهو الذي يكون في تقديم الكلمة بنقلها من رتبتها الأصلية، فتقدّم لغرض معيّن في نفس المتكلّم مع علمه أن مكانها الأصلي هو أن تأتي متأخّرة في الجملة، و ذلك ينطبق على (خبر المبتدأ، و المفعول به و غيرهما) .

ــ **المثال١** : جميل ما صنعه محمد: أصلها ما صنعه محمد جميل: فمعلوم أنّ (جميل) خبر تقدّم لغرض التنويه بالصنيع والثناء على صاحبه وأصله التأخير.

ــ **المثال٢** : سأل عليًّا محمّدٌ: أصلها سأل محمّدٌ عليًّا: فمعلوم أنّ (عليّا) مفعول به و إن تقدّم فالنية تأخيره عن الفاعل لأنّه مفعول، والأصل في المفعول أن يتأخر عن الفعل والفاعل..

---

(١) ينظر: ابن القيم وآراؤه النحوية في ضوء الدرس اللغوي الحديث: رسالة ماجستير للمؤلف– من قسم اللغة العربية بكلية الآداب واللغات– بجامعة الجزائر–ص٢٦٢ وما بعدها..

فهذا النوع من التقديم هو أن يكون الأصل في المتقدّم التأخير وإنّما قُدّمَ لغرض بلاغي أراده المتكلم، ومعنى في نفسه أراد التعبير عنه. ولكنّ كلاًّ من التقديم والتأخير يكون وفق سنن النحو وأحكامه، لا يخرج عنها.

ثانيـــاً: تقديم ليس أصله التأخـــير:

وهو الذي يكون في تقديم الكلمة بنقلها ممّا كانت له في الأصل إلى حكم آخر فيكون هذا الحكم الأخير أصلا ، و بعبارة أخرى نقول بأنّه في هذا النوع من التقديم تأخذ الجملة نمطين من التعبير كلاهما أصلي وينطبق ذلك على قولنا مثلا : (محمّدٌ القادم ، وقولنا : القادمُ محمّدٌ) فالمبتدأ في الجملتين لم يقدّم على نية تأخيره، و إنّما لأنه أخذ حكم المبتدأ أصلا، فهو على أصله، كما يرى النحاة، ومثاله أيضا قولنا (سألت محمّدًا ، وقولنا محمّدٌ سألته) فالفعل سأل متقدّم في الأصل و هو في مكانه من الجملة الفعلية؛ وكذلك المبتدأ (محمّدٌ) متقدّم لأنّه مبتدأ لا مفعول به وهو في مكانه من الجملة الاسمية فهذا التقديم في جملتين أصليّ

غير أنّنا لا نرى أنّ جملة مثل:(القادم محمد) قد جاءتْ على أصلها، وأنّ التقديم هنا لم يكن على نية التأخير؛ بل إنّ فيها تقديماً على نية التأخير، وذلك أنّ لفظ (القادم) هو الخبر لا المبتدأ، لأنه وصف للمبتدأ يؤتى به للإخبار عن المبتدأ وإتمام المعنى وتحقيق الفائدة. أمّا لفظ (محمد) فهو المبتدأ وقد تأخر على نية التقديم، لأنه هو المخبَر عنه، كما أنه اسم علَم لا يصلح أن يكون وصفاً.. والمحصلة في هذه القضية أن الخبر هو ما كان

صفة في المعنى وتميز بالإسناد؛ والمبتدأ ما كان موصوفاً في المعنى وتميز بالإسناد إليه. كما في هذا المثال الذي بيّنّاه.

أغراض التقـــديم و التأخـــير:

يقدّم المسند على المسند إليه أو العكس لعدّة أغراض أشهرها ما يلي:

١- **قصر المسند إليه على المسند** : و مثاله قولنا: (مسرور أنا بلقائك) فقد قصر الموصوف (أنا) على صفة السّرور بحيث لا يتوهّم المخاطب صفة أخرى غيرها ، و منه قوله تعالى : ﴿ لا فيها غول .. ﴾ (١) فقد قصر عدم وجود الغول في خمور الجنّة وحدها و أثبته في غيرها من الخمور (أي خمور الدّنيا) ، ولو قال (لا غول فيها) فإنّ المعنى يتغيّر بحيث تنفى الغول في خمور الجنّة لكنها لا تثبته في غيرها من خمور الدنيا (أي أنّ خمور الدّنيا أيضا قد لا يكون فيها غول) وليس هذا هو المراد من الآية .

---

(١) الغول : هو كل ما يغتال العقول .

٢- **التفــاؤل**: كقولنا: (طابت أوقاتك) فإننا بدأنا بذكر الكلمة المستحسنة لبعث التفاؤل في نفس المخاطب، و قولنا: (أوقاتك طيّبة) لما تحقق ذلك .
٣- **التشاؤم**: كأن تقول مثلا لشخص ما: (ساءَ ما تقوم به من عمل) فتقديم المسند (الفعل ساء) جاء تعبيرا من المتكلّم عن تشاؤمه ممّا يقوم به المخاطب.. ولو قال : ما تقوم به عمل سيّء. لكان التركيز على العمل لا على صفته.
٤- **التشويــق** : نحو قول الشّاعر : [البسيط]

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ** شمس الضحى و أبو إسحاق و القمر

ففي تقديم المسند هنا تشويق إلى المسند إليه إذ جاء الصّدر مشوّقا لمعرفة ما في العجز (أي : لمعرفة الثلاثة التي تشرق الدنيا ببهجتها).
٥- **الإنكار و التعجّب** : كقولنا أمعرض أنت عن النّصيحة ؟! . فتقديم المسند (الخبر) هنا جاء تعبيرا من المتكلّم عن إنكاره لإعراض المخاطب عن النّصيحة ، ولو قال : (أأنت معرض عن النّصيحة) لما كان هناك إنكار للإعراض ، و قد تقدّم المسند هنا مع الاستفهام .
٦- **التعبير عن عموم السّلب** (أي: شمول النّفي): ويكون ذلك باستعمال أداة العموم متبوعة بأداة السلب، بحيث تكون أداة العموم متسلّطة على النفي و غالبةً عليه كقول الشّاعر: [من الرجز]

قد أصبحت أمّ الخيّار تدّعي ** عليّ دنبًا كلّــه لم أصنع

فهو ينفي عن نفسه الذنب بكلّيّته إذ لم يصنع منه شيئًا قليلا كان أو كثيرا

٧- **التعبير عن سلب العموم** (أي نفي الشّمول) : و ذلك يعني إثبات البعض ويكون بتقديم أداة السلب (النفي) على أداة العموم (الشمول) ، و منه قول **المتنبّي** : [من البسيط]

ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه**تجري الرّياح بما لا تشتهي السفن

فالمراد أن المرء لا يدرك كلّ أمانيه ، لكنه يدرك بعضها فهنا نفي للعموم وإثبات للبعض منه، ومنه أيضا قول **عمارة اليمني** [من البسيط]

ما كلّ قولي مشروحا لكم فخذوا ** ما تعرفون و ما لم تعرفوا فدعوا

فهو ينفي كون قوله كلِّه مشروحا ، و لكنّه بذلك يثبت كون بعض قوله مشروحا ، و يوضح ذلك قوله في العجز : ما تعرفون: إشارة إلى المشروح ؛ و قوله : ما لم تعرفوا : إشارة إلى عدم المشروح .

٨- **التقرير و التوكيد**: كما نقوله في وصف رجل سخيّ: هو يجزل العطاء، فتقديم المسند إليه (الضمير: هو) ثمّ إتباعه بالضمير المستتر في الفعل (يجزل) يتضمّن تقرير المعنى وتوكيده في ذهن السّامع .. وفي البدء بالمسند إليه تمهيد للكلام عنه لا عن غيره، ثمّ يأتي المسند لتثبيت الحكم و نفي ما سواه ... فهنا لدينا تنبيه إلى المسند إليه وإشعار بالكلام عنه ثمّ الكلام عنه بالمسند الذي يقرّر له حكما معينا ويثبته ويؤكّده. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ.﴾ [المؤمنون/٥٩].

٩- **التخصيص**:كقوله تعالى: ﴿ إيّاك نعبد و إيّاك نستعين﴾ [الفاتحة / ٠٥]

و قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ ما فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ.﴾ [البقرة/٢٨٤] ففي الآية الأولى تخصيص الله بالعبادة و بالاستعانة ، و لو قال: نعبدك و نستعينك لما تحقّق معنى التخصيص المراد من الآية . وفي الآية الثّانية تخصيص الله بالملك ، أي أنّ ملك السماوات و الأرض بكونه لله تعالى ، أي مقصور عليه هو دون سواه .

التقدّم فـــي الذّكْـــــر

هذا النوع هو من أسرار التعبير القرآني على الخصوص، ويكون لأسباب مقصودة وأغراض منشودة.. وقد اختلف أهل البلاغة من العلماء في هذه الأسباب من جهة العدد، كما ذكروا لذلك أغراضاً كثيرة؛ فقد ذكر له الزركشي مثلاً خمسة وعشرين (٢٥) سببا، وذكر له العلوي ستتة (٠٦) أسباب. ويمكن استخلاص أهمّ هذه الأسباب والأغراض وإيجازها فيما يأتـــي :

١- التقدم بالسبق :

وهو أقسام منها : " السبق بالزمان والإيجاد: كقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ﴾ [الأحزاب / ٥٩] فإن الأزواج أسبق من البنات بالزمان، لأن البنات أفضل منهن، لكونهن بضعة منه صلى الله عليه وسلم "

([1]) ومن التقديم بالإيجاد قوله تعالى : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ [البقرة / ٢٥٥] لأن العادة في البشر أن العبد سنة قبل النوم ([2])

٢- **التقدم بالذات :**

وهذا النحو : تقدم الواحد على الاثنين على معنى أن الوحـــدة لا يمكن تحقق الاثنيـــنية إلا بعد سبقها كقوله تعالى : ﴿ ما يكون من نجـــوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا و سادسهم ﴾ [المجادلة / ٠٧] " وهكذا القول في مراتب الأعداد كلهم ، فإن كل واحد منها على ما بعـــدها مـــن المرتب سبقا ذاتيا "([3])

٣- **التقدم بالعلة والسبـــبية :**

وذلك كقوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين.﴾ [الفاتحة / ٠٥] فهنا قدمت العبادة على الاستعانة لأن تقديم القربى والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجح لحصول طلب ([4]) وأيضا في قوله تعالى : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ [البقرة / ٢٢٢] فالتوبة هي سبب التطهير من دنس الآثام كلها .

٤ - **التقدم بالرتبة :**

([1]) البرهان في علوم القرآن : ٣٠٩/٣

([2]) المصدر نفسه :٣١٠/٣

([3]) كتاب الطراز : ٥٩/٢

([4]) علم المعاني : ص١٤٠-١٤١

كقوله تعال : ﴿ وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ [الحج/ ٢٦] فإنما قــدّم (الطائفين) لأن سياق الآية في عظم العناية بالبيت. والطائفون أقرب ما يكونون إليه. فلهذا قدمهم ثم ثــنّى بالقائمين لأن القيام يلــي الطواف في الرتبــة ([1]) وقوله تعالى﴿ همــاز مشّــاء بنميم ﴾ [القلم /١١] " فإن الهماز هو المغتاب، وذلك لا يفتقر إلى شيء، بخلاف النميمة "([2])

٥- التقدم للتعظيم :

كقوله تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء /٦٩] فتقديم لفظ الجلالة على لفظ الرسول ههنا يُفهم منه تعظيم شأن الخالق جلّ وعلا.

٦- التقدم بالشرف :

الشرف في هذا الباب أنواع ، منها شرف الحرية كقوله تعالى : ﴿ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ﴾ [البقرة / ١٧٨] ومنها شرف التفضيل والإجلال كما في قوله تعالى: ﴿ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ [المائدة / ٠٦] إذ الوجه تُستَقبل القبلة لقوله تعالى : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ.﴾ [البقرة/١٤٤] ولمّا نسبه تعالى إلى نفسه قال جلّ وعلا : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ

([1]) كتاب الطراز : ٦٣/٢

([2]) البرهان في علوم القرآن : ٣١٩/٣

رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.﴾ [الرحمن/٢٧] فالوجه أشرف من اليد بالتفضيل والإجلال. كما أنه أسبق منها في الخَلْق وأعلى. ومن أنواع هذا الشرف أيضا شرف التكريم ، كما في تقديم الإنس على الجن وهو الأكثر في القرآن ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا .﴾ [الجن /٠٥]

٧- التقدم بالغلبة والكثرة :

ومنه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .﴾ [فاطر/ ٣٢] وإنما قدم الظالم لنفسه للإيذان بكثرته وأن معظم الخلق عليه ثم أتى بعده بالمقتصدين لأنهم قليل، ثم أتى بالسابقين بالخيرات وهم أقل من القليل (١) ومن التقدم بالغلبة قوله تعالى: ﴿والسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. ﴾[المائدة / ٣٨] لأن السرقة في الذكور أكثر منها في الإناث.

٨- التقدم للحث على أمرٍ ما :

كتقديم تنفيذ الوصية على وفاء الدين في قوله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين .﴾ [النساء / ١] " فإن وفاء الدين سابق على الوصية لأنهم يتساهلون بتأخيرها بخلاف الدين " (٢)

---

(١) علم المعـــاني : ص ١٣١

(٢) البرهان في علوم القرآن : ٣٣٥/٣

٩- التقدم لتحقق ما يأتي لاحقا (١) :

كقوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [مريم /٩٦] لأن العمل الصالح من صفة المؤمن كونه أدل على القدرة كقوله تعالى : ﴿فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع .﴾ [النور / ٤٠] وإنما قدم الماشي على بطنه لأنه أدل على القدرة من الماشي على رجلين إذ هو ماش بغير الآلة المخلوقة للمشي ثم ذكر الماشي على رجلين لأنه أدخل في الاقتدار ممن يمشي على أربع ، فيكون التقديم على هذا من باب تقديم الأعجب في القدرة فالأعجب . (٢)

١٠- التقدم لرعاية الفاصلة :

هذا ما رآه بعض البلاغيين، كما في تأخير (الغفور) وتقديم (العَفُوّ) من قوله تعالى: ﴿ إن الله لعفو غفور، ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأنّ الله سميع بصير.﴾ [الحج / ٦٠- ٦١] ونحن لا نرى أنّ رعاية الفاصلة ههنا هي الغرض من التقديم، فهي ليست مقصودة لذاتها، وإنما جاء عفْو الخالق سابقاً لمغفرته لحكمة أرادها سبحانه، فالله كريم رحيم بعباده، فمهما يخطئون ويذنبون يعفو عنهم إذا شاء، فلا يترك من خطاياهم شيئاً. فالعفو مقدّم على المغفرة لأنّه لا يبقى معه شيء من الذنوب والخطايا. ثم إنّ العباد كلّهم يطمعون في عفو الله عنهم. كما أنّ

---

(١) ينظر كتاب الطراز : ٧٥/٢ ؛ وعلم المعاني : ص ١٣٢

العبْد المؤمن يدعو ربه قائلاً: (اللّهمّ اعفُ عنّا) ولا يذكر بعد العفْو شيئاً، أمّا في المغفرة فإنه يذكر ما يرجو أن يُغْفَر له فيقول: (اللّهمّ اغفر لنا ذنوبنا..) وقد يزيد على دلك. وقد قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران/١٢٧]

ونشير في الأخير إلى أننا لم نذكر كل الأسباب الموجودة في كتاب (البرهان) ظنا منا أنها متضمنة في المذكورة آنفا، وإنما أوردها صاحب البرهان تفصيلا وذكرناها هنا جملة. كما نشير إلى أن من هذه الأسباب والدواعي ما يجتمع كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج / ٢٧] فتقديم قوله (رجالاً) فيه وجهان: **أحدهما:** أن يكون تقدما بالرتبة لأنّ الغالب على الرجالة أنهم يأتون من الأمكنة القريبة وأمّا الركبان فيأتون من الأمكنة البعيدة. **وثانيهما:** أن يكون من التقدم بالشرف لأن الأجر في المشي مضاعف لما في ذلك من الجهد والتعب.

كما يندرج ضمن التقديم بالذّكْر ما يكون من تقديم كلمة في سياق وتأخيرها في سياق آخر. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ الحمد لله ﴾ [الفاتحة / ٢] وقوله تعالى : ﴿ فللّه الحمد ﴾ [الجاثية / ٣٦] فتقديم الحمد

في الأولى جاء على أصله . أمّا تأخيره في الثانية فهو على أنه جواب على سؤال هو (لمن الحمد ؟) (١)

هذا، وإنّ أسلوب التقديم و التأخير من أوسع أساليب العربية وأغناها باللطائف والأسرار البلاغيّة ولا سيما ما ورد منه في القرآن الكريم حيث الاستعمال الأمثل للعربية بحسن اختيار اللفظ والصيّغة وحيث عمق الدّلالة و دقّة التعبير وإصابة المعنى المراد .

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ٣/٢٤٨

المبحث السابع : القصـــــر

تعريف القصـــر:

القصر في الاصطلاح هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص، و المراد بالطريق المخصوص أدوات القصر و طرقه التي يتمّ بها ، و القصر طريقة من طرق التوكيد في اللغة .

بين القصر و الحصر و التخصيص:

– **القصر** يدل على التخصيص، والحصر يدل على الإحاطة والتضييق. وفي التخصيص تركيز على شيء معيّن دون غيره، وهذا يعني تحديد المقصود، وفيه نوع من الإحاطة والتضييق بحيث لا يبقى مجال لدخول غير المذكور في الحكْم، وعلى هذا يكون القصر والحصر متقاربين. وهذا ما جعل بعض العلماء يعدّهما بمعنى واحد، كما فعل **السيوطي**. والقصر أكثر استعمالا عند البلاغيين منه عند النحاة.

– **أمّا الحصر** فمجاله الذي يكثر فيه استعماله هو علم التفسير والأصول، والعلوم الشرعية على العموم.. والمصطلحان يحملان معنًى واحدًا في الدرس النحوي، وإن كان الحصر أكثر استعمالاً من القصر في بيئة النحاة.

– **وأمّا التخصيص** فهو معنى مستفاد من عدة تراكيب في اللغة ومنها القصر. فالتخصيص إذاً مستفاد من القصر ومترتب عليه. أي أنّ التخصيص ممّا يدلّ عليه القصر، فهو كالفرع عنه. وعلى هذا يمكن القول إنّ كلّ قصر تخصيص وليس كل تخصيص قصراً.

القصر و التوكيـــد:

القصر ضرب من التوكيد ووجه من وجوهه، إذ إنّه يتضمّن إثباتاً ونفياً، ومعنى التوكيد مستفاد من كلّ منهما. كما يستفاد من كل أدوات القصر. فكل قصر توكيد وليس كل توكيد قصراً. لأنّ التوكيد قد يكون بغير أدوات القصر. أمّا أدوات القصر فلا يمكن تجريدها من معنى التوكيد الذي يستفاد من كل التراكيب القصرية. وتتباين معاني التوكيد ودرجاته في القصر بحسب الأداة المستعملة فيه.

طُـــرُق القصـــر:

اختلف النحاة والبلاغيون في تحديد طرق القصر، فمنهم من عدّها أربعا، ومنهم من جعلها خمسًا، ومنهم من جعلها أكثر من ذلك. وقد أوصلها بعضهم إلى أربع عشرة طريقة. غير أن المتداول المشهور منها أربع طرق هي:

١ طريقـــة: النفي و الاستثناء.

٢- طريقة: إنّما .

٣- طريقـــة: العطف بـ : لا ، بل ، لكن .

٤ - طريقـــة: تقديم ما حقّه التأخيـــر.

الطريقة الأولى: النفي و الاستثناء :

يكون القصر فيها باستعمال أداة نفي لتنفي ما بعدها، ثم تأتي أداة الحصر لتثبيت شيئً آخر، وهكذا تُصَدَّرُ الجملة بالنفي و تختتم بالإثبات فما

يُنفَى عمّا قبل أداة الحصر يثبت لما بعدها لتخصيصه بحكم معيّن ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إن أنت إلاّ نذير .﴾ [فاطر/٢٣].

ملاحظـــة:

يمكن أن تؤدّي وظيفةَ الحصر الأداةُ (إلاّ) أو (غير) أو (سوى) أو ما في معناها .. كما يمكن أن تؤدّي وظيفةَ النفي عدّةُ أدوات منها (ما ، إنْ ، لم ، لا، ليس) و غيرها .

ومثال ذلك : قول **ابن الرومي:** [من الوافر]

لعمرك ما الحياة لكلّ حيّ ** إذا نفد الشّباب سوى عذاب

وكذلك قول **ابن نباتة** المصري: [من الطويل]

و لا عيب فيه غير أنّي قصدته ** فأنستني الأيّام أهلا وموطنا

الطريقة الثانية: العطف بـ : لا ، لكن ، بل :

أ ــ العطف بـ : لا :

تأتي (**لا**) بعد كلام مثبت لتأكيده بنفيها لما بعدها.. ففي قولنا:(محمد مسافر **لا** مقيم) نقصر الموصوف (محمد) على الصّفة (السفر) وننفي عنه الإقامة، وفي قولنا: (المسافر محمد **لا** علي) نقصر الصّفة (السفر) على الموصوف (محمد) وننفيها عن علي.. والمقصور والمقصور عليه كلاهما ــ بهذه الطريقة ــ يذكر قبل الأداة (**لا**) ويأتي المقصور عليه في المرتبة الثّانية بعد المقصور.

ب – العطف بـ : لكن :

وأمّا (**لكن**) فتأتي في جملة منفيّة فيكون ما قبلها منفيّا يقابله ما بعدها مثبتًا، ويكون أحدهما صفة والثّاني موصوفًا وقبلها هو المقصور وما بعدها هو المقصور عليه وقد يقصر الموصوف على الصّفة كما في قولنا: (ما محمد مسافر **لكن** مقيم) أو تقصر الصّفة على الموصوف كما في قولنا: (ليس المسافر محمّدًا **لكن** عليٌّ).

جـ – العطف بـ : بل :

تجمع (**بل**) بين وظيفتين متناقضتيْن، إحداهما تثبت الأخرى وتؤكّدها، وهما: النفي والإثبات. و لها استعمالان: **أولهما** أنّها تأتي مسبوقة بـــنفي، **والثاني** أنّها تأتي مسبوقة بـــإثبات.

وفي الحالتين تدلّ على نفي ما قبلها وتقرير ما بعدها، وما وجود أداة النفي قبلها إلاّ توكيد للنفي الذي تتضمّنه (**بل**).

فقولنا مثلا: (سافر محمّد **بل** عليّ) فيه إثبات لسفر علي مع نفيه عن محمد بدخول (**بل**) التي قرّرت ما بعدها وأبطلت ما قبلها.. وهذا الإثبات وذاك النفي ههنا يتعلقان بالموصوف، فهو من باب قصر الصفة على الموصوف. إذ المقصور هو صفة السفر، والمقصور عليه هو الموصوف (عليّ). وفي المقابل في قولنا: (محمد مسافر **بل** مقيم) إثباتاً لإقامة محمد ونفياً لسفره بدخول (**بل**) التي تؤكّد ما بعدها (أي: إقامة محمد) وتنفي ما قبلها (أي: سفره). ويتعلق الإثبات والنفي ههنا بصفة الإقامة، فهو

من باب قصر الموصوف على الصفة. فالمقصور هو الموصوف محمد، والمقصور عليه هو صفة الإقامة..

والمقصور بهذه الطّريقة يأتي قبل الحرف (**بل**) أما المقصور عليه فيأتي بعدها، سواء أكان ذلك من باب قصر الصفة على الموصوف أو من باب قصر الموصوف على الصفة.

الطريقة الثالثة: (**إنّمـــا**):

(**إنّما**) مركّبة من (**إنّ**) و (**ما**) واعتبرها بعضهم تأكيديّة لا قصريّة بينما رأى آخرون أنّها للقصر، وأن القصر فيها بمعنى (**ما و إلاّ**) باعتبار أنّها تثبت ما بعدها وتنفي ما سواه.

كما في قول **الفرزدق** : [من الطويل]

أنا الذّائد الحامي الذّمار و إنّما ** يدافع عن أحسابهم أنا و مثلي

* أي : ما يدافع عن أحسابهم إلاّ أنا ومثلي .

وفي طريقة القصر **بإنّـــما** يأتي كل من المقصور والمقصور عليه بعدها، ويكون المقصور عليه في المرتبة الثّانية بعد المقصور كما في قول **ابن المعتزّ**: [من الطويل]

ألا إنّما الدنيا بلاغ لغايـــة ** فإمّا إلى غيّ و إمّا إلى رشدٍ

و منه قولنا : (إنّما الرسول محمّدٌ صلى الله عليه و سلّم .)

والصواب أنّ (**إنّـــما**) مع إفادتها القصر تفيد معنى التوكيد، وذلك هو شأن كل أدوات القصر، فلا سبيل إلى الفصل بين القصر والنوكيد فيها.

أمّا اعتبارها أداة من أدوات التوكيد من غير أن تفيد القصر فهذا رأي مجانب للصواب. إذ القصر فيها أولى، وهي به أحرى، والتوكيد مما تتضمّنه مع القصر الذي استُعملتْ لأجله.

الطريقـــة الرابعة: القصر بالتقديـــم:

يدلّ التقديم على القصر بما يفهم من خلال الكلام من تخصيص المتقدّم بحكم ما، وقد يكون المتقدّم هو المسند إليه و قد يكون المسند، وقد يكون أحد متعلّقاهما، وتقديم جزء من الكلام يقتضي تأخير جزء آخر. وعلى هذا فإنّ تقديم بعض الكلام على بعض ليس اعتباطا وإنّما هو مقصود يتطلّبه غرض بلاغي معيّن لا يكون التعبير عنه إلاّ بالتقديم، والأغراض البلاغيّة للتقديم كثيرة كما أشرنا إلى ذلك في موضوع التقديم و التأخير.

ومثال القصر بالتقديم قول الشّاعر **عمرو بن كلثوم** مفتخرًا : [من الوافر]

لنا الدّنيا و من أضحى عليها ** ونبطش حين نبطش قادرينا

فتقديم المسند (المتعلق بالجار والمجرور لنا) على المسند إليه جاء لقصر الدنيا على الشاعر وقومه والتقدير (كائنة) فالمقصور عليه هو المقدّم وهو (لنا) و المقصور هو المؤخّر وهو (الدنيا) فالمقصور عليه في طريقة التقديم هو الأول ويليه المقصور.

ملاحظـــات على طرق القصر:

١- الطرق الثلاث الأولى تدلّ على القصر بالوضع اللغوي، أمّا القصر بالتقديم فيفهم من ضمن الكلام ويحتكم فيه إلى الذوق وحسن تقدير المعاني..

٢- الأصل في القصر بالعطف أن يتضمن - من خلال ظاهر لفظه - نفي حُكْم وإثبات حُكْم آخر. أمّا الطرق الأخرى فتتجه نحو إثبات حُكْم ما، ولا يُفهَم نفي ما سواه إلاّ ضمنياً.

٣ - القصر بالنفي مع الحصر يكون فيما يجهله المخاطب أو فيما ينكره أو يشكّ فيه، أمّا القصر بإنّما فالأصل فيه، عند أهل البلاغة، أن يكون فيما يعلمه المخاطب ولا ينكره أو يشكّ فيه. ونحن نرى أنّه قد يكون أيضاً فيما يشك فيه المخاطَب أو ينكره، لأنّنا لا نستعمل قصْراً إلاّ وفيه معنى التوكيد، كما بيّـــنّا آنفاً، وعلى هذا فإنّ الكلام لا يُؤكَّد للمخاطَب إلاّ لإزالة ما يكون لديه من الشك أو الإنكار، قصد إثبات المعنى وترسيخه في ذهنه..

٤ - القصر بطريقة العطف أقوى دلالة على التّخصيص من القصر بالطرق الأخرى، ويليه القصر بالنفي مع الحصر، ثمّ القصر بإنّما، ثمّ القصر بالتقديم. ذلك أنّنا في العطف بـــ(لا) النافية ننفي الحكْم عن جانب ونثبته للجانب الآخر، فلا يبقى له شيء من الحُكْم ؛ وفي العطف بـــ (بل) يُفْهَم ، ضمنياً، نفي الحُكْم عمّا قبلها وإثباته لما بعدها ؛ وفي

العطف بــ(لكن) يتم الاستدراك على ما ما ورد من الكلام السابق، فكأنما هو نسخ له. وتشترك هذه الحالات الثلاث كلها في قوة نفي الحكْم عن أحد الطرفيْن وقوة إثباته إلى الطرف الآخر، وهذا ما لا نجده في القصر باستعمال باقي الأدوات، إذْ يبقى معها احتمال بقاء شيء من الحُكْم لأحد الطرفيْن على الرغم من إثباته للطرف الآخر..

٥- لا يجوز أن يجمع بين القصر بالنفي مع الحصر والقصر بلا العاطفة، فليس من الصّواب أن يقال: في قصر الصّفة على الموصوف: (ما الشّاعر إلاّ زيد لا عمْرو) ولا أن يقال في قصر الموصوف على الصّفة: (ما زيد إلاّ شاعر لا كاتب) وسبب ذلك أنّ القصر (بلا) يجب أن لا يكون مصدّرًا بنفي. ثمّ إنه لا يجوز أن يتكرّر نفيـــان في تركيب واحد لأداء المعنى نفســـه.

أقســـام القصـــــــر:

- القسم الأول: القصر باعتبار مبنى جملة القصر:

ويشمل طرفيْ القصر وهما: (المقصور والمقصور عليه) وقد يكون كل منهما دالاًّ على ذات أو على معنى.

- القسم الثّاني: القصر باعتبار دلالة القصر على الإثبات أو النفي:

ويشمل (القصر الحقيقي والقصر الإضافي) فإذا كان النفي عامًّا مطْلقاً كان القصر حقيقيا، وإذا كان النفي خاصًّا غير مطْلق كان القصر إضافيا.

والقصر الحقيقي هو ما كان التخصص فيه بحسب الحقيقة والواقع: كقولنا: (لا معبود بحق إلاّ الله) فهذا القصر يتضمن معنى حقيقياً ثابتاً، كما يدلّ عليه نصه، إذْ لا مجال إلى احتمال معنى آخر معه.

أمّا القصر الإضافي فهو ما كان التخصّص فيه بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء آخر معيّن لا إلى ما عداه: كقولنا: (ما زيد إلاّ كريم،) فنحن قصرنا زيداً على صفة الكرم ونسبناها إليه دون ما سواها من الصّفات الأخرى المناقضة لها كالبخل و التقـــتـــير والمنع والإمساك وما كان قريبا من هذا المعنى. ولكن زيداً قد يتصف بصفات أخرى – سلبية أو إيجابية – غير أنها لا تكون من جهة الكرم الذي أثبتناه له وأكّدناه، وإنما تكون من قبيل آخر من الصفات..

- **القسم الثالث: القصر باعتبار الصفة والموصوف:**

سواء أكان القصر حقيقيّا أم إضافيّا، ومهما كانت أداته فإنه ينقسم إلى (قصر صفة على موصوف، وقصر موصوف على صفة) فمثال قصر الصّفة على الموصوف قولنا: (لا يعلم الغيب إلاّ الله) فقد قصرنا صفة علم الغيب على الله وحده. و هو قصر حقيقي باعتبار الواقع والحقيقة التي تضمّنتْها هذه الجملة .

ومثاله أيضا: قولنا: (لا وفـــيّ إلاّزيد) فههنا قصر صفة الوفاء على الموصوف زيد، لكن هذا لا يعني أنّ الوفاء مقصور على زيد وحده دون غيره من كلّ النّاس، وإنّما المراد قصره عليه دون باقي أقرانه مثلاً. وبهذا

يكون القصر إضافيّا: أي أنّ ثمة من بقية النّاس – غير زيـــد – كذلك من يتّصف بالوفاء.

ومثال قصر الموصوف على الصفة قولنا: (إنما زيد كاتب). فقد قصرنا الموصوف (زيد) على صفة الكتابة. وهذا قصر إضافي، لأنّ زيداً يمكن أن يتصف بصفات أخرى غير الكتابة. وقلّما نجد هذا النوع في القصر الحقيقي.

تنبـــيـــه :

قصر الموصوف على الصّفة في القصر الحقيقي نادر جدّا في اللغة لأنّه لا يمكن الإحاطة بكل صفات المقصور عليه ، إذ لا سبيل إلى إثبات شيء منها ونفي كل ما عداه ، أي أنّه من غير المعقول أن نقصر الموصوف على صفة واحدة ونجزم بعدم اتصافه بأيّ صفة أخرى غيرها. ومثال ذلك قولنا : (ما الله إلاّ كامل، وقولنا: ما الله إلاّ خالق كل شيء) فهذا قصر حقيقي لأنّ النّفي فيه عامّ مطلق. لكننا نرى هذا النوع من القصر لا يرتقي إلى مراتب البلاغة والفصاحة، لأنّنا نلحظ فيه تقليلاً من شأن المقصور عليه. إذ الأصل في القصر من جهة المعنى أن يكون المقصور – صفةً كان أم موصوفاً – في باب المدح بما يزيد المقصور عليه رفعة وإعلاء من شأنه، أو يكون وصفاً له بما يتميز به عن غيره. فإذا مدحناه بما هو أقل منـــزلة ممّا يستحق لم يكن ذلك إلاّ تقليلاً من شأنه. وليس هذا من البلاغة، ولا من بديع الكلام وفصاحته.

وأمّا قصر الموصوف على الصفة في القصر الإضافي فهو كثير في العربية، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آلا عمران/١٤٤] فالنفي ههنا خاصّ ومقيّد، إذ ليس معناه نفي كلّ شيء عن محمّد ﷺ ، وإنما هو رسول وهو متّصف بصفات أخرى غير أداء الرّسالة، كالرحمة والتسامح والتواضع والإحسان والجود، وغيرها من الصفات من عدة جهات، كصفات القيادة والقدوة والأبوّة وما إلى ذلك من سائر الصفات التي يطول ذكْرُها.. ومن هذا القبيل أيضا قولنا مثلاً: (ما عَمْرو إلاّ ذكيّ) فقد قصرنا الموصوفَ عَمْراً على صفة الذّكاء، ولكنّنا لم نَنْف عنه كل ما عدا صفة الذّكاء من الصّفات الأخرى، وإنّما نفينا عنه صفات معيّنة محددة ومقيّدة مثل: علم الغيب والتنبّؤ بما سيحدث وما شابه ذلك من الصفات التي قد يتوهم المخاطَب أنه يتصف بها بما يتجاوز صفة الذكاء. لكنّ هذا لا يعني نفي الصفات الأخرى لعمْرو ممّا لا يتصل بالذكاء، كالجود أو الصدق أو الأمانة، أو غير ذلك..

وخلاصة القول في هذا الأمر أنّ القصر الحقيقي يكثر استعماله في قصر الصّفة على الموصوف و يندر في قصر الموصوف على الصّفة ؛ أمّا القصر الإضافي فيكثر استعماله في كلّ من قصر الصّفة على الموصوف وقصر الموصوف على الصّفة

- القسم الرابع: أنواع القصر الإضافـــي:

القسم الأخير من أقسام القصر يتمثل في تقسيم القصر الإضافي بناءً على حال المخاطب إلى ثلاثة أنواع: (قصر إفراد و قصر قلب و قصر تعيين) وفيما يأتي توضيح ذلك وبيان دلالاته وأسراره:

أ - قصر الإفراد: يوجَّه الكلام بهذا النوع من القصر إلى المخاطب إذا كان يعتقد أنّ للموصوف صفات أخرى غير المذكورة، هذا في باب قصر الموصوف على الصّفة ؛ أو إذا كان يعتقد أنّ للصفة موصوفا آخر أو أكثر غير المذكور، وهذا في باب قصر الصفة على الموصوف. فيؤتَى عندئذ بهذا النوع من القصر ليُخصَّصَ الموصوف بصفة معيّنة أو لتُخصَّصَ الصّفة بموصوف معيّن. ومثال ذلك في قصر الموصوف على الصّفة قولنا: (إنّما **محمّدٌ** رسولٌ ﷺ) ردّا على من اعتقد اتّصاف **محمد** ﷺ بصفة أو صفات أخرى ليست مما يختصّ به؛ فيبيّن هذا القصر، مثلاً، أنه ليس بالشاعر ولا بالساحر ولا بالكاتب ولا بالأديب، ولا غيْر ذلك من الصفات التي يتوهمها أو يعتقدها. فلا صفة إذاً من هذه الصّفات المذكورة، أو غيرها، تشارك صفة الرّسالة لديه.

ومثال قصر الإفراد في باب قصر الصّفة على الموصوف قولنا: (ما الرّسول إلاّ **محمّد** ﷺ) فهذا ردّ على من يعتقد أنّ صفة الرّسالة يتّصف بها غير **محمّد** ﷺ ويشاركه فيها ؛ فيؤتَى بهذا القصر ليبيّن أن صفة الرّسالة ينفرد بها **محمّد** ﷺ ولا يشاركه فيها غيره.

فقصر الإفراد وظيفته إفراد الموصوف بالصفة أو العكس، لغرض نفي المشاركة من طرف آخر، موصوفاً كان أم صفةً.

ب - قصر القلب: يوجّه الخطاب بهذا النوع من القصر إلى المخاطب إذا كان يعتقد اتّصاف الموصوف بصفة أخرى غير المذكورة، أو إذا كان يعتقد أنّ الصّفة تختصّ بموصوف آخر غير المذكور.

ومثال قصر القلب في قصر الموصوف على الصّفة قولنا: (ما زيد إلاّ شاعر) وذلك إذا كان المخاطب يعتقد أنّه ليس بشاعر ،كأنْ يظنّه كاتبا أو صحفياًّ أو غير ذلك.. ومثال قصر القلب في قصر الصّفة على الموصوف، قولنا: (ما سافر إلاّ زيد) إذا كان المخاطب يعتقد أنّ الذي سافر هوّ غير زيد.

فوظيفة قصر القلب إذاً هي تصحيحُ اعتقاد المخاطَب وقلْبُ ما كان لديه من فكرة خاطئة في ذهنه إلى صواب.

جـ -قصر التعيين : ويخاطب بهذا النوع من القصر منْ تساوَى عنده المذكور وغيره - من الصفة أو الموصوف - فيؤتَى بهذا القصر لإزالة تردّد المخاطب وتحاشي تعدد تصوراته، بتعيين الموصوف الذي اتّصف بالصّفة المذكورة، أو تعيين الصّفة التي اتّصف بها الموصوف المذكور. وهذا التعيين للصفة أو الموصوف يستدعي بالضرورة نفي غيرهما ممّا يقع في تصوّر المخاطَب.

ومثال ذلك قولنا في قصر الموصوف على الصّفة (ما زيد إلاّ شاعر) لمن تردّد و لم يتأكّد من أنّ صفة زيد هي أنّه شاعر أو كاتب أو صحفي، أو غير ذلك. فبقولنا: (شاعر) نكون قد عيّنّا الصّفة التي يتّصف بها زيد دون غيرها. وهذا يعني إزاحة غير صفة الشاعرية من ذهن المخاطَب.

ومثاله قولنا في قصر الصّفة على الموصوف: (ما الشّاعر إلاّ زيد) لمن تردّد و لم يتأكّد من أنّ الموصوف بالشّاعريّة هو زيد أو عمرو أو سعيد أو غير هؤلاء ، فبقولنا (زيد) نكون قد عيّنّا الموصوف بالشّاعريّة دون غيره من الموصوفين، ممّا وقع في تصوّر المخاطَب..

فوظيفة قصر التعيين إذاً هي أن المتكلم يرمي إلى تثبيت فكرة معينة دون غيرها في ذهن المخاطَب، وذلك بإزالة ما سواها من الأفكار التي يتصورها. وتتعلق هذه الفكرة إمّا بالصفة أو بالموصوف.

ملاحظـــة :

إنّ كلاّ من قصر الإفراد و القلب والتعيين يتوقّف تحديده بناء على حال المخاطب وكيفية اعتقاده وفهمه. كما أنّ كل كلام يجوز فيه قصر الإفراد أو قصر القلب، يجوز فيه قصر التعيين كذلك.. أي أنّ إدراك هذه الأنواع من القصر يتوقف على نية المتكلم بحسب ما تكون عليه حال المخاطَب.

فائـــــدة القصـــــر :

القصر أحد الأساليب المستعملة بكثرة في اللغة العربية، وهو ضرب من توكيد الكلام وتقريره وتمكينه في ذهن المخاطب. ويؤتى به لتقوية المعنى في ذهن السامع وإعطائه وقعًا حسنًا في عملية التّخاطب والتّواصل.

هذا، وإنّ المعاني المستفادة من أسلوب القصر لا يمكن التعبير عنها كما هي بالعدول عن هذا الأسلوب، لأن في القصر نوعاً من التخصيص لا يدرَك إلاّ بهذا النمط من التراكيب. وهذا يدل على أنّ المتكلّم إذا أراد التخصيص والتوكيد والتركيز على معنى معيّن لتقريره في ذهن السامع لم يجد مثل أسلوب القصر للتعبير الدقيق عن مراده..

كما أنّ وقع أسلوب القصر في ذهن السامع أشدّ، ومضمون جملة القصر أدق دلالة من التراكيب الأخرى كالتوكيد أو الإثبات أو النفي. ذلك أنّ القصر يشمل هذه التراكيب، وهي لا تشمله. فكل قصر توكيد وليس كل توكيد قصراً، كما أنّ كلّ قصر يدل على النفي إمّا صراحة وإمّا ضمنياً، وليس النفي كذلك، إذْ من النفي ما يدل على القصر ومنه ما لا قصر فيه..

المبحث الثامن : الوصـل و الفصـل

تعريـف:

الوصْل هو الربط بيْن الجمل باستعمال حروف العطف، وذلك لوجود تناسب بين هذه الجمل في المعنى.. والفصْل هو تـرْك هذا الربط تبعاً لما يقتضيه المعنى. وباب الوصل والفصل بابٌ عظيم في البلاغة العربية يحوي الكثير من أسرارها التي لا يدركها إلا من كان عارفاً بفنون القول ومعانيه ومقاماته، وفَقِهَ ما كان من الكلام مطبوعاً على أصالته. كما لا يصل إلى كنه هذا الفنّ من فنون التعبير والتواصل إلاّ من أوتيَ سلامةً في الذوق، ونال شرف الفصاحة فحاز قصب السبْق في هذا اللسان العربي المبين. ولقد نبّه أهل البلاغة على قيمة هذا الفنّ إذْ ذكر **الجرجاني** بأنه "من أسرار البلاغة، وممّا لا يأتي لتمام الصواب فيه إلاّ الأعراب الخُلّص والأقوام طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنّاً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد. وقد بلغ من قوّة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدّاً للبلاغة.." ([1])

والذي يعنيه **الجرجاني** هنا هو **الفارسي**([2]) إذْ قال: وقد سئل عن البلاغة بأنها "معرفة الفصل من الوصل". وهذا ما نقله **ابن سنان الخفاجي** في سر الفصاحة،ونقله غيره. وأمّا **الفارسي** فنقله عن **أبي هلال العسكري** في

([1]) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز: ص ٢٣٩

([2]) قيل: هو أبو علي الفارسي أستاذ ابن جني، وقيل إنّ المقصود بالفارسي أحد المنتسبين إلى بلاد فارس وليس أبا عليّ.

الصناعتيْن، وقصد بذلك المبالغة، وأنّ من كمل فيه لا بدّ أن يكون كمل غيره.([1]) فمعرفة الفصل من الوصل في رأي **الفارسي** مقياس يُعرَف به مقدار البلاغة والتمكّن في فنون القول والتعبير.

أولاً: الـوصـــل

يكون الوصل البليغ باستعمال حرف الواو دون غيرها من حروف العطف. لأنّ الواو تفيد مجرّد الجمع والربط والاشتراك في الحُكْم بين المتعاطفيْن. وقد تخفى الحاجة إليها، فلا يدركها إلاّ من أوتــيَ قدرةً على فهم المعاني وإدراك أسرارها. وذلك من بلاغة الوصل. أمّا بقيّـــة أدوات العطف فلها دلالاتها المعروفة التي لا اشتباه فيها؛ مثل دلالة (الفاء) على الترتيب والتعقيب السريع. ودلالة (ثمّ) على الترتيب مع التراخي.. وهكذا، فلكل أداة دلالتها.

شـــروط الوصـــل:

يشترط في الوصل أن يكون بين المعطوف والمعطوف عليه جامع أو مناسبة تسوّغ هذا الوصل. وأنْ لا يكون ثمّـــة ما يدعو إلى الفصل بينهما.. ويكون هذا الجامع مدرَكاً من الوصل المعنـــوي بينهما.. ومثال ذلك قوله تعالى:﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينـــزل من السماء وما

([1]) ينظر عروس الأفراح للبهاء السبكي: مج ١/٤٧٩

يعرج فيها ﴾ [الحديد/٤] وقوله تعالى: ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ [الإسراء/٢٩]. فالجامع بين الآيات هنا مدرك من خلال التقابل الموجود بين الأرض والسماء وما فيهما؛ ثـــمّ من مقابلة غـــلّ اليـــد وإطلاقها في البسط..ووراء ذلك أسرار يطول شرحها.

ولقد عيب على **أبي تمام** قوله في مدح **أبي الحسيْن** بن الهيثم: [من الكامل]

لا والذي هو عالم أنّ النـــوى ** صبر وأنّ أبا الحســيْن كريم [1]

قال صاحب الإيضاح: ".. إذْ لا مناسبـــة بين كرم أبي الحـــسيْن ومـــرارة النوى، ولا تعلُّق لأحدهما بالآخر.." [2] فهـــذا الوصـــل مـــردود عنـــد البلاغيـــين لعدم وجود ما يجمع بين المعطوف والمعطوف عليه..

ولكننا ناظرون إلى هذا البيت من جهة حالة الشاعر ونفسيـــته، وما ينـــتابه من خواطر، وما يدور في خلَده من الإحساس، لنستخلص أنّه قـــد استحضر علْم الله بالبُـــعْد وما له من مرارة، وما يلحق صاحبَه من حـــرارة الشوق وألـــم الفراق. وقد أقسم بصفة الله (وهي العلْم بالأسرار الخفيـــة الكامنة) ليؤكّد على ما يتركه البُـــعْد من أثر بـــالغ في الـــنفس.. وبعـــد استحضاره لعلْم الله والإقسام بصفته استحضر أمْراً آخر يقع في نفسه موقعاً حسناً، وقد عُرِفَ هذا الأمر حتى صار معهوداً بينه وبـــيْن مـــن يخاطِـــب،

---

(١) الصبـــر (بفتح الصاد وكسر الباء) : نوع من الشجـــر مُرّ الثمر.

(٢) الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة: ص١٤٦

وكذلك لدى سائر الناس. فجاء ذكْره من قبيل ما هو شــائع لا يُختلــف حوله، حتى كأنه من المعروف المسَلَّم به في عصره. وذلك لغرض الزيادة في التوكيد، وتثبــيت المعنى، ليردّ على ما كانت محبوبته قد زعمتْه من أنّه قــد تخلّى عنها وتركها، وأنّ هواه لهــا قــد عفــا كمــا تعفــى الرســوم والأطلال..فجاء هذا البيت مؤكّداً بالقسَم وبذكْر ما تعارف عليه الناس في زمانه، وذلك لنفي ما زعمتْه محبوبته، وإثبات ضدّه، بأنّ نفسه لم تزل على هواها. وقد انتقل الشاعر من مخاطبة نفسه كوساطة بينــه وبــين محبوبتــه بقوله:[من الكامل]

زعمتْ هواكِ عفَا الغداة كما عفَتْ ** منها طلول باللّــوى ورسوم

انتقل من ذلك إلى القَسَم وذِكْر **أبي الحسيْن** - في بيت الشاهد الذي سبق ذكْره – ثــمّ انتقل إلى الأخذ بزمام الخطاب وهو يسند الكلام إلى نفسه مباشرةً من غير وساطة في جواب القَسَم، ليزيــد هذا المعنى وضوحاً بقوله في البيت الموالي:

ما زلْتُ عنْ سنن الوداد ولا غــدتْ ** نفْسي على إلْفٍ سوَاك تحــوم

وما هذا الخطاب في الحقيقة إلاّ ارتداد إلى الشاعر لبيان حاله وما يقاسيه.. إذْ لم يلبثْ أنْ عاد ليؤكّد على بقائه على العهد، كما بيّــنّا.

وبهذا نستطيع القول إنّ الشاعر قد وصل بين مرارة البُعْــد وكرَم أبي الحسيْن لحاجةٍ في نفسه يريد إبلاغها إلى مخاطَبــِه، كما أنّ في ذلك مدْحاً **لأبي الحسيْن** أراد الشاعر الإفصاح عنه في هذا السياق، لمــا رأى من

أثـــر ذلك في نفس السامع الذي هو محبوبته من جهة، وممدوحه من جهة أخرى. كما لا يخفى أنه قرن ذكْره بالقَسَم بصفة من صفات الله، وفي هذا إشارة أخرى من الشاعر يريد تبليغها وفكرة يعتزم تأكيدها.

ثم انظر إلى الشاعر كيف استعمل اسم الشجر (الصبر) بدلاً من استعمال صفة المرارة. أليس في ذلك إيحـــاءً منه بتفاؤله بلقاء محبوبته، وتمسّكاً منه بما بينهما من عهد، فانعكس ذلك الموقف من خلال عدوله عن استعمال لفظ (المرارة) إلى استعمال اسم الشجر المُرّ .

وثّمة سرّ فنّي آخر يكمن فيما توحي به كلمة (الصبر)- وهي اسمٌ للشجر - من رغبة الشاعر في التعبير عن صبْره وانتظاره لمحبوبته، وتعلّقه بها، عسى أن يكون بينهما وصْلٌ بعد النوى. فجاء وصْل الكلام في البيت تعبيراً من الشاعر عن أمله في أن يماثله وصْلٌ بينه وبيْن من يهوى. وفي ذلك إشارة أيّ إشارة من عدة جهات إلى ما ينتاب الشاعر من الأحاسيس، وما يريد التعبير عنه من المعاني والأغراض الكامنة في نفسه. ولا شكّ أنّ خطابه هذا قد وقع من نفس مخاطبِه موقعاً حسَناً، وكذلك يكون لدى أهل الفطنة والنباهة والذوق السليم، وعند ذوي النظر العميق الذين لا يقفون عند حدود الألفاظ في ظاهرها.

وعلى هذا يكون الوصل في بيت **أبي تمام** من قبيل فنون القول وبديع الشعر متمثلاً في قوة الإيحاء وبراعة الإشارة، وحسن التأليف وجمال العبارة.

فليس هو من العيب كما زعموا، وإنما هو من فنون الشعر وكنوزه الخفية التي لا يهتدي إلى اكتشافها إلاّ ذو ذوق رفيع.

فما كان من الشعر على هذا المنوال كان حرياً بأن يُنْــظَر في أسراره ومعانيه وأغراضه الكامنة ومراميه، وليس الشعر كالنثْر، ولا الشعراء كالنقّاد الذين يتعقّبون شعرهم فربما أصابوا في مشاركتهم أحاسيسهم، وربما ابتعدوا عن ذلك فلا يبقى لهم إلاّ النظر في ظاهر القول من غير وقوف على إيحاءاته ولغته الثانية التي لا يعرف كنهها إلاّ من أوتي قوةً في البصيرة وسلامةً في الذوق والطبع، بما يمنحه القدرة على إدراك فنون الخطاب وأسراره الخلاّقة..

مواضع الوصــــل:

يكون الوصل في الكلمات المفردة، وفي الجمل والتراكيب.. فأمّا وصل الكلمات المفردة فيشترط فيه أن لا يكون المعطوف هو المعطوف عليه نفسه. فإنْ كان هو نفسه امتنع العطف والوصل. إذْ لا يجوز عطف الشيء على نفسه.

ومن هذا القبيل امتناع عطف الصفة على الموصوف لأنها متصلة به تابعة له، فكأنها هو. إذْ نقول: (قابلتُ الرجلَ الكريمَ) فلا فصل بين لفظ (الرجل) ولفظ (الكريم) . والدليل على أنّ الصفة كأنها هي الموصوف نيابتها عنه في الذّكْر وأخذ مكانه ووظيفته الإعرابية. فنقول:(الكريمُ مرفوع الشأن) والتقدير (الرجلُ الكريمُ مرفوعُ الشأن) فقد حذف الموصوف، وهو

المسند إليه المبتدأ (الرجل) ونابت عنه صفته وهي (الكريم). وأمّا وصل الجُمَل والتراكيب فتحلّ فيه الجملة محلّ المفرد، إذْ هي في حُكْمه. ويمكن إجمال مواضع وصل الجمل وعطفها في موضعيْن:

– الموضع الأول:

أن يكون للجملتيْن محلّ إعرابي تشتركان فيه: بحيث يكون للجملة الأولى (المعطوف عليها) محل من الإعراب، فيكون للثانية عندئذ المحلّ نفسه بعطفها عليها بالواو. ومثال ذلك قولنا: (إنّ اللّه يغفر السيّئات ويضاعف الحسنات) فالجملة الأولى المعطوف عليها وهي (يغفر السيئات) محلّها الرفع لأنها تقوم مقام خبر (إنّ). وكذلك الجملة الثانية المعطوفة وهي (يضاعف الحسنات) محلّها الرفع لأنها عطفت على جملة محلّها الرفع. فالاشتراك ههنا بين الجملتيْن واقع في المحل الإعرابي. وعلى هذا تمّ وصلهما بالواو العاطفة.

– الموضع الثـــاني:

أن تتّفـــق الجملتان من جهة الخبرية أو الإنشائية، على أن تكون بينهما مناسبة وجامع يجمعهما من حيث المعنى، ولا يكون ثمّـــة ما يمنع من وصلهما. ويتجلّى الوصل في هذا الموضع من عدة جهات، نبـــيّنـــها فيما يأتي:

الجهة الأولى: أن تـــتّـــفق الجملتان خبـــراً وإنشـــاءً في اللفظ والمعنى (أي أن تكونا خبريـــتيْن لفظاً ومعنـــى، أو إنشائيـــتيْن لفظاً ومعنـــى).ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ إنّ الأبرار لفي نعيم وإنّ الفجّار لفي جحيم ﴾ [

الانفطار/١٣] فالمناسبة أو الجامع هو التقابل الحاصل بيْن مصير الأبرار ومصير الفجّار. وقد اقتضى ذكْرُ هؤلاء ذكْرَ أولئك، ليُفهَم المعنى المراد من خلال هذا التقابل بين الضّدّيْـــن. إضافة إلى كون الجملتيْن خبريتيْن لفظاً ومعنى. وممّا زاد في قوّة وصلهما أيضاً أنهما جاءتا مؤكّدتيْن بالأداة نفسها مقرونة باللاّم المزحلقة..(١)

ومن هذا النوع أيضاً قوله تعالى: ﴿ اُدْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل/١٢٥] فالجامع أو المناسبة هي الحثّ على التحلّي بالحكمة والموعظة، والمجادلة بالحسْنى.. كما أنّ هاتيْن الجملتيْن إنشائيتان أمريتان.. وقد توصَلُ جملة النهي بجملة الأمر أو العكس. كما في قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف/٣١]. فقد وُصِلَتْ جملة الأمر بجملة الأمر، ثم وُصِلَتْ جملة النهي بجملة الأمر. وكلها جمل إنشائية. وأمّا المناسبة أو الجامع هنا فهو ما بين الأولى والثانية من إباحة الأكل مع الشرب والتمتّع بهما.. وأمّا الجامع بين الجملة الثالثة والجملتيْن اللّتـــيْن قبلها فهو عدم الإسراف مع هذا التّمتع بما أبيح من الأكل والشرب، لأنّ الله لا يحبّ هذا الإسراف. فوجب الائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه..

---

(١) اللام المزحلقة عند النحاة هي اللام التي تأتي واقعة في خبر إنّ. وإنما سميتْ بالمزحلقة لأنها لّما اجتمعتْ بأداة توكيد أقوى منها هي (إنّ) في أول الكلام زُحلقتْ عن موضعها إلى آخر الكلام، لأنه لا يحْسُن اجتماع مؤكديْن في موضع واحد.

الحالة الثانية: يشترط ههنا أن تكون الجملتان متفقتيْن في المعنى. إذ العبرة بالمعنى لأنّ الوصل إنّما هو وصل معنويّ وإنْ كان لفظياً في ظاهره. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [هود/٥٤]. فقد وُصلَت الجملة الإنشائية الأمرية (واشهدوا..) بالجملة الخبرية المؤكّدة (إنّي أُشهد الله). ولكنّ الجملة الثانية الموصولة بالأولى هي جملة خبرية في أصل المعنى، وجاءت بصيغة الإنشاء للتعبير عن قوة إقامة الحجّة عليهم، وإثبات براءته منهم..

ولو جاءت خبرية اللفظ لما أدّتْ هذا المعنى المقصود. وعلى هذا فالجملتان خبريتان في المعنى، وإن اختلفتا في اللفظ.. وأمّا المناسبة بينهما فجالية ههنا تتمثل في الشهادة على براءة الرسول، وإقامة الحجّة يوم القيامة على الذين لم يؤمنوا به.

- وتصل حالات خبرية الجملتيْن وإنشائيتهما في هذا المقام إلى ثماني حالات كلّها تقاس على الذي بيّنّاه، لذا سنكتفي بذكر هذه الحالات فيما يأتي من الاحتمالات على الترتيب والتقابل:

١- جملتان خبريتان لفظاً ومعنى

٢- جملتان خبريتان لفظاً إنشائيتان معنى

٣- جملة خبرية لفظاً لا معنى وجملة إنشائية لفظاً ومعنى

٤- جملة خبرية لفظاً لا معنى وجملة إنشائية معنى لا لفظاً

٥- جملتان إنشائيتان لفظاً ومعنى

٦- جملتان إنشائيتان لفظاً خبريتان معنى

٧- جملة إنشائية لفظاً لا معنى وجملة خبرية لفظاً ومعنى

٨- جملة إنشائية لفظاً لا معنى وجملة خبرية معنى لا لفظاً. ..

هذا، على أن تكون ثمـــة مناسبة وجامع من جهة المعنى والدلالة بين الجملتيْن. فلا وصْل بغير هذه المناسبة أو الجامع.

- الموضع الثالـــث:

إذا اختلفت الجملتان من جهة الخبرية والإنشائية، وكان فصلهما يوهم المخاطَب بغير المعنى المقصود. فعندئذ يجب وصل الجملتيْن لدفع هذا التّوهّم، وتوضيح المعنى المقصود. إذْ لو تُرك الوصل بالواو لفُهِمَ خلاف ما هو مراد من الكلام..

ومثال ذلك ما روي عن الخليفة **أبي بكر الصّدّيق** رضي الله عنه أنه لقي رجلاً بيده ثوب، " فقال له **أبو بكر**:(أتبيع هذا الثوب؟) فقال ذلك الرجل:(لا يرحمك الله). فقال له **أبوبكر**: لا تقلْ هكذا ! بل قلْ: (لا ويرحمك الله)." وذلك لأنّ فصل الجملتيْن بعدم استعمال الواو، بقوله: (لا يرحمك الله) قد يجعل المخاطَب يتوهّم أنه يدعو عليه لا له..

ولكن سياق الحال ههنا، وما كان يحيط بالكلام من الظروف والملابسات، وما كان عليه الخليفة من العلْم والدراية بفنون القول وأساليبه، كلّ ذلك منع توهّنه ذلك المعنى الذي يظهر من الكلام في حال الفصل..

ومثل هذا الكلام يكون ضمن جواب ما يقتضيه الحوار، أو ما كان على هذه الشاكلة. إذْ يكون الشطر الأول من الكلام جواباً خبرياً، كما في قوله: (لا) في المثال السابق؛ ويكون الشطر الثاني منه إنشائياً، كما في لفظ الدعاء له من المثال نفسه..

وقد تمّ عطف الإنشاء (الدعاء) على الخبر (من حرف النفي وما هو مقدَّر بعده). وكلتا الجملتيْن ليس لها محل من الإعراب.

تـــنـــبـــيـــه:

يكون الوصل بيْن الجمل في حال كونها ذات محل من الإعراب، وكذلك في حال كونها غير ذات محل من الإعراب.. فإذا كان للجملتيْن محل من الإعراب سهُل إدراك الوصل بينهما لما يبـيّنه هذا المحلّ الإعرابي من المعنى النحوي المترتب على الجامع اللفظي المجليّ.. وإن لم يكن للجملتيْن محل من الإعراب صعُبَ إدراك الوصل بينهما، لما قد يحتمله الوصل من المعاني والأسرار غير الظاهرة. وهذا مما يُحتاج فيه إلى براعة الفكْر وحُسْن التأمّل لما بيْن الجمل من المناسبات الخفية والجوامع الخيالية.. وهذا هو السّرّ البلاغي في الوصل. وهو من الأسرار التي لا يدركها إلاّ من أوتي فضل علْم بأسرار اللسان العربي المبين، ورُزق حسن التأويل فيه..

ثانيا: الفصل

الفصْل هو ترك الربط بيْن جملتيْن أو أكثر، وذلك لعدم وجود تناسب بينها في المعنى. ويكون الفصل لعلّتيْن أساسيتين؛ **أولاهما:** أن يكون بين الجملتيْن تقارب في المعنى، وهذا يشمل ما يسمى بكمال الاتصال وشبه كمال الاتصال؛ **وثانيتهما:** أن يكون بينهما تباعد في المعنى، وهذا يشمل ما يسمى بكمال الانقطاع وشبه كمال الانقطاع؛ فإنْ كانتا وسطاً بين ذلك (أي بين قوة الارتباط والتباعد في المعنى) سمي ذلك توسّطاً بين الكماليْن.. وسيأتي تفصيل ذلك في مواضعه.

مواضع الفصـــل:

مواضع الفصل خمسة، ضمن قسميْن رئيسيْن، كما ذكرْنا آنفاً، وسنوردها فيما يأتي بأمثلتها مع التوضيح، ثم نعقبها بما لدينا من آراء وملاحظات.

١- الموضع الأول: كمال الاتصال:

المراد بكمال الاتصال أن يكون بين الجملتيْن ترابط كبير من جهة المعنى، إلى حدّ الامتزاج بينهما، فإذا الجملتان كأنهما جملة واحدة. ويتجلّى ذلك من خلال بعض الأبواب كما يأتي:

أ- من خلال كون الأولى بدلاً من الثانية:

ويشمل هذا الباب كل أنواع البدل. ومثال ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى بعد ذكْر صفات عباد الرحمن:﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا

يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ [الفرقان/٦٩] فقوله (يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ) عطف عليه بدلٌ مطابق من قوله (يَلْقَ أَثَامًا) إذْ جاء الجزء الثاني من هذه الآية مؤدياً للمعنى المقصود من جزئها الأول، ولكنه يزيد عليه من حيث زيادة إيضاحه للمعنى.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى:﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴾ [الشعراء / ١٣٢-١٣٣] فقوله (بأنعام وبنين) بدل بعض من كل، من قوله (بما تعلمون). والجملة الثانية تحمل المعنى المراد تبليغه من الجملة الأولى، كما أنّ الثانية لازمة لإيضاح الأولى.. وهذا الاتصال القويّ بين الجملتيْن من جهة المعنى يطلق عليه (كمال الاتصال).. وقد حملت الآية الأولى إثباتاً لنعَم الله التي أنعمها على عباده، وأراد سبحانه أن يبـــيّن لهم ما هم فيه من نعَمٍ ظاهرة أسبغها عليهم، فجاءت الآية الثانية مؤدية لهذا الغرض.

ومثاله أيضاً قوله تعالى:﴿ وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس/ ٢٠-٢١]. إذْ جاءت الجملة الثانية بدلاً من الأولى، فبعد أن حثّ الرجل قومه على اتّباع المرسلين كرّر هذا الحثّ بإعادة الفعل نفسه، وإعادة ذكْر المرسلين ببـــيان ما يميّز دعوهم. وفي هذا قوة نصح وإرشاد إلى سبيل الهداية. فكانت الآية في الجملة الأولى لذكْر المطلوب اتّباعهم، وكانت في

الثانية للتعريف بدعوتهم ترغيباً فيها للإقبال عليها والاستجابة لها، وهذا ما زادتْ به عليها..

تـنبيـه:

الجملة التي تأتي في موقع البدل من جملة أخرى، يكون فيها (أي في الثانية)- زيادةً على بدليتها- زيادة في إيضاح المعنى، وفي ذلك نوع من البيان والتوكيد لما هو مقصود..

ب- من خلال كون الأولى بيـاناً للثانية:

وذلك بأن تكون الجملة الثانية مستدعاة من الأولى لغرض إيضاحها وبيان ما أُجمِلَ فيها، بحيث لا يتضح المعنى المقصود من الأولى إلاّ بمجيء الثانية. ومثاله قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ [طه/ ١٢٠]. فوسوسة الشيطان لآدم تتمثل-كما يتضح في الجزء الثاني من الآية – في إغرائه وترغيبه في الأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها.

ج- من خلال كون الأولى توكيداً للثانية:

وهذا يشمل كلاًّ من التوكيد اللفظي والمعنوي، أو أيّ نوع من أنواع التوكيد الأخرى، بحسب ما يقتضيه السياق.. ويكون التوكيد ههنا لدفع ما قد يحصل لدى السامع من التوهّم، كما يكون لإزالة الغلط في الفهم، إذْ يأتي التوكيد لتثبيت ما سبق ذكره في الكلام. ومثال ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا

نَحْنُ مُسْتَهْزِئونَ ﴾ [البقرة/١٤] فقولهم: (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئونَ) توكيد لقولهم: (إنا معكم) إذ المستفاد من قولهم الأول (وهو بمنـــزلة المتبوع في التوكيد) هو ثباتهم على اليهودية.. والمستفاد من القول الثاني (وهو بمنـــزلة التابع في التوكيد) هو ردّهم للإسلام وعدم اعتدادهم به.. وردّ الشيء في مقابل نقيضه فيه تأكيد على التمسك بهذا النقيض..فهم قد ردّوا الإسلام واستهزأوا بالرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا تأكيد منهم على ثباتهم وتمسكهم بضلالهم، ممّا أوجب غضب الله عليهم..

كما أنّ السياق القرآني لم يقف عند هذا الحدّ، وإنما بيّن أنّ عاقبتهم وجزاءهم من جنس عملهم، فجاء قوله تعالى بعد ذلك مباشرة: ﴿ اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ.﴾ [البقرة/١٥).كما بيّـــن حقيقة حالهم، وقدحادوا عن طريق الهدى، فقال تعالى:﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة/١٦).

ومن قبيل الفصل كذلك كون عجُز الكلام توكيداً لصدره قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾[البقرة/٨-٩] فقوله (يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا) بمنـــزلة التوكيد لقوله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ إذْ إنهم يقولون شيئاً ويعتقدون خلافه، أي أنهم يصرحون بالإيمان، ولكن حقيقة أمرهم أنهم على الكفْر. وهذا من أكبر المخادعة لله

وللذين آمنوا. وفي هذا التوكيد حجّة عليهم ودليل على عظَم ما يقترفونه من الإثم في حق الله وحق المؤمنين.. ولكنهم لم يفلحوا في ذلك، إذْ كشف الله خداعهم ومكرهم بقوله تعالى:﴿ وَمَا يُخادَعُونَ إلاَّ أنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يكذِبُونَ ﴾[البقرة/٩–١٠]

لقد تبيّن لنا أنّ قوة الاتحاد والاتصال بين أجزاء الكلام تستدعي عدم الوصل بينها بالأداة، لعدم الحاجة إليه، إذ الوصل يحسن في حال وجود تباين بين صدر الكلام وعجزه. ولذلك كان الفصل أولى في حال وجود اتصال في الكلام من حيث المعنى والقصد، إمّا بكون آخر الكلام بدلا من أوله، وإمّا بكونه بياناً، أو توكيداً له. أو غير ذلك مما قد يكون من ضروب الاتصال المعنوي الذي يستدعي الفصل من جهة الشكل (أي باستعمال الأدوات) لما يوجد من وصل في المعنى.

تـــنـــبيـــه:

يمكن أن يقع التداخل بين البيان والتوكيد، فيُفْهَم أحدهما من الكلام. وقد يجتمعان كما في قوله تعالى:﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً﴾ من قبيل البيان والتوكيد لقوله: ﴿ وَمَا يُخادَعُونَ إلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُون﴾[البقرة/٩–١٠].

٢- **الموضع الثاني: شبه كمال الاتصال:**

يكون الارتباط بين الجمل من جهة المعنى في شبه كمال الاتصال أقل قوة منه في كمال الاتصال. ولذلك شبهوه به. وليس المشبه مثيلاً مطابقاً للمشبه به، ولا هو يصل إلى درجته. ولذلك تجد التشبيه قائماً في أساسه الفنّي على المشبه به، باعتباره هو الأصل في التشبيه..

والجملة الثانية في شبه كمال الاتصال تكون بمنـــزلة الجواب على السؤال. فكما يُفْصَل بين السؤال وجوابه يُفصَل بين الجملتيْن في هذا الموضع.. ومن هنا جاءت قوة الاتصال بينهما، إذْ لا سؤال بلا جواب. وعليه، فلا جملة من هذا القبيل إلاّ ولها ما يتصل بها كما يتصل الجواب بالسؤال. وهذا الاتصال يستدعي ترك الوصل اللفظي بالأدوات..

ومن أمثلة شبه كمال الاتصال في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف/٥٣].فكأنما قد قيل لامرأة العزيز: لماذا لا تبرّئين نفسك؟ فأجابت: إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلاّ ما رحم ربّـــي..

ومثال شبه كمال الاتصال من القرآن كذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ.﴾ [هود/٦٩]. فالسلام الأول من الرّسُل تحية تستدعي الرّدّ عليها بتحية أخرى. فكانت تحية إبراهيم عليه السلام بقوله: (سلام) من غير فصل بين التحيـــتيْن لأنّ التحية موصولة بردّها وجوباً، فكان ذلك أدعى

إلى الفصل بين التحية وردّها، لهذا الوصل المعنوي الواجب بينهما. ولو عطف الفعل (قال) على الفعل (قالوا) على طريقة الوصل بالواو لكان ذلك على سبيل الإخبار لا الحوار، ولَمَا كان فيه تحية تستدعي الرّدّ. والمعلوم أنّ الآية جاءت هنا في سياق الحوار الذي يقتضي سؤالاً وجواباً متصليْن في المعنى من غير حاجة إلى الوصل بالأدوات. بل لو تمّ وصلهما لدلّ ذلك على ما بينهما من المغايرة والتباين والانفصال في المعنى..

وانظر إلى ما يأتي – بعد ردّ **إبراهيم** عليه السلام مباشرة – من الوصل بالفاء، ممّا يستدعي فصلاً في المعنى كما بيّنّا. إذْ قال تعالى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود/٦٩] فإنّ هذا الجزء من الآية خارج عن التحية وردّها، فجاء موصولاً بما قبله بالأداة (الفاء) وفي هذا دليل على انفصاله عمّا قبله في المعنى، ولذلك اقتضى الوصل، على غير ما في الجزء الأول من الآية من التحية والرّدّ عليها. وهذا من أسرار الأسلوب القرآني البديع.

ومن أمثلة شبه كمال الاتصال في الشعر العربي قول **أبي تمام** في مطلع قصيدة فتح عمورية: [من البسيط]

السيف أصدق إنباءً من الكُـتُب**في حدّه الحدّ بين الجدّ واللّعـب

فكأنه قيل له بعد أن أورد صدر البيت: كيف أنّ السيف أصدق من الكتُب؟ فجاء ردّه بعجُز البيت.. فثمة إذاً قوة اتصال بين صدر البيت وعجُزه، كأنهما سؤال وجواب.

ومن هذا القبيل أيضاً قول الشاعر: [من الكامل]

زعم العواذل أنّـــني في غمرةٍ ** صدقوا، ولكن غمرتـــي لا تنجلي

فكأنّما قد سُـــئِلَ الشاعر – بعد إيراده صدر البيت – عن هؤلاء العواذل ما إذا كانوا صدقوا أم كذبوا في زعمهم هذا. فجاء ردّه في عجُز البيت مع استدراكه على جوابه مؤكّداً على شدة غمرته وعمقها، ويريد بذلك أن يعبّر عن استهانته بهم وعدم مبالاته بعذلهم له..

والخلاصة في باب شبه كمال الاتصال أنه لـــمّا كان صدْر الكلام وعجُزه متصليْن في المعنى وجب الفصل بينهما بالاستغناء عن الوصل اللفظي بالأداة. إذْ لا يُوصَل كلام بآخر إلاّ إذا كان بينهما تباعد، فيؤتَى بالأدوات للتقريب بينهما. أمّا إذا كان بينهما اتصال في المعنى فلا حاجة إلى وصلهما بالأدوات. بل إنّ في فصلهما وصلاً، وفي وصلهما فصلاً بينهما..

٣- الموضع الثالث: كمـــال الانقطاع:

كمال الانقطاع في الكلام هو أن يكون بيـــن الجملتيْن تباينٌ جليٌّ فـــي المعنى، سواء أكان معه تباين في اللفظ أم لـــم يكن. إذ المعوَّل عليه هنا هو المعنى الذي هو غاية اللفظ.. وهذا الانقطاع في المعنى يستدعي الفصل بين الجملتـــيْن. إذْ لا سبيل إلى وصلهما من جهة المعنى.. وكذلك لو تـــمّ وصلهما من جهة اللفظ لما كان للكلام معنى مستقيم..

ويتجلى كمال الانقطاع في حالتيْن: أولهما التباين بين الجملتيْن في الخبرية والإنشائية، سواء من حيث اللفظ والمعنى، أو من حيث المعنى فقط؛

وثانيهما التباين في ما تتضمّنانه من المعنى، بحيث لا تكون بينهما أيّ مناسبة للتقريب بينهما.. ونوضح ذلك فيما يأتـــي:

الحالة الأولى: تباين الجملتـــيْن في الخبرية والإنشائية:

من أمثلة كمال الانقطاع– بسبب التباين في الخبرية والإنشائية– في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[الحجرات/٩].فقـــوله: (أَقْسِطُوا) إنشاء طلبي، وقوله (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) خبر طلبـــي. وهما أسلوبان متغايران اجتمعا في كلام واحد، فوجب الفصل بينهما في اللفظ (إذْ لا توجد أداة لوصل) وكذلك في المعنى، لأنّ في الأول أمراً وطلباً يقتضي الامتثال؛ وفي الثاني إخباراً بمكانة المقسطين عند الله..ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ ﴾[الفاتحة/٥] ففي الآية الأولى كان البدء بالإنشاء الطلبي (الأمر) متبوعاً بالخبر المؤكّد؛ وفي الآية الثانية كان البدء بالخبر المؤكّد بالتقديم للتخصيص متبوعاً بالإنشاء الطلبي (الأمر لغرض الدعاء).. وهذا التباعد والتباين الجليّ بين الجملتيْن من جهة الخبرية والإنشائية أدّى إلى فصل كبير بينهما، فسمي ذلك بكمال الانقطاع.

ومثاله أيضا قول الشاعر: [من المنسرح]

لا تسأل المرء عن خلائقه ** في وجهه شاهد من الخبر

فصدر البيت إنشاء طلبـــي يتمثل في النهـــي. وفي عجُزه خبر يتمثل في الإخبار عن حالته وكيفية معرفة صفاته..

الحالة الثانـــية: عدم وجود مناسبة في المعنى بين الجملتـــيْن:

ومن أمثلة كمال الانقطاع – لعدم وجود مناسبة في المعنى بين الجملتين – قولنـــا:(أنت رجل صادق، أنا قادم لزيارتك.) فلا علاقة، ولا مناسبة في المعنى بين صدر الكلام وعجُزه. إذ جاء أوله لوصف الرجل بالصدق، بينما جاء آخره لإخباره بأن المتكلم سيأتي لزيارته..

وقد يجتمع التباين في الخبرية والإنشائية مع عدم وجود المناسبة في المعنى، كما في قولنا: (آن أوان السفر حفظك الله.) وكذلك قولنا: (استمع إليّ أنت رجل صادق.) ففي المثال الأول جاء صدر الكلام خبراً وعجُزه إنشاءً متمثلاً في الدعاء. وفي المثال الثاني جاء صدر الكلام إنشاءً متمثلاً في الأمر وعجُزه خبراً.. وزيادة على هذا التباين في الخبرية والإنشائية لا توجد مناسبة في المعنى بين صدر الكلام وعجُزه.. ففي المثال الأول يوجد إخبار المخاطَب بأوان السفر، وهو متبوع بدعاء لـــه؛ وفي المثال الثاني يوجد أمر للمخاطب بالقيام بعمل مطلوب منه، هو الاستماع؛ وهو متبوع بإخباره عن صدقه..

تـــنبـــيـــه:

لو تمعّنّا في هذه الأمثلة التي سقناها، وفي غيرها ممّا يُساق في هذا الموضع بكل مظاهره لوجدنا أنّ المراد بكمال الانقطاع هو عدم وجود ترابط جليّ في المعنى بين أول الكلام وآخره. وليس المراد هو نفي الترابط المعنوي بصفة كلّية عن الجملتيْن، إذ الترابط قد يكون موجوداً بينهما، ولكنه

لا يظهر كما هو الشأن في مواضع الفصل الأخرى. لأنه لولا وجود شيء ما بين الجملتيْن من الترابط لما قرنت إحداهما بالأخرى ووضعت بإزائها، ولما كان بينهما فصل، لأنّ الفصل -كما بيّنا - هو في أصله وصل في المعنى. ويتم فيه ترك الوصل بالأدوات اللفظية لعدم الحاجة إليها لما هنالك من ترابط قوي في المعنى.

٤- الموضع الرابع: شبه كمال الانقطاع:

شبه كمال الانقطاع هو أن تأتي جملة بعد جملتيْن، بحيث يصحّ عطفها على إحداهما دون الأخرى لكي يستقيم المعنى. ولكنها- في حال عطفها- قد تُوهم السامع بأنها معطوفة على الجملة التي لا يجوز عطفها عليها. وما دام العطف يؤدي إلى الإيهام بخلاف المعنى المراد، فإنّ المتكلم يلجأ إلى ترك هذا العطف لغرض دفع التوهم عن السامع.

وقد جعل **السكاكي** هذا النوع من الانقطاع قسْميْن: قسْماً يكون فيه القطع واجباً، لوجود مانعٍ من العطف [1] وقسْماً يكون فيه القطع للاحتياط لعدم وجود مانع من العطف. وهو يريد بذلك وجوب القطع في الأول، وجواز الوصل في الثاني. مع أنّ القطع هو الأوْلى في الثاني كذلك..

[1] وهو ما سنبينه فيما يأتي من الكلام عن التوسط بين الكماليْن كما هو تصنيف البلاغيين المتأخرين.

ومثال القطع مع عدم وجود مانع، وهو الذي جعله البلاغيون المتأخرون ضمن شبه كمال الانقطاع- حيث جواز الوصل لعدم وجود مانعٍ- قول **أبي تمام**:

وتظنّ سلْمى أنّني أبغي بها ** بدلاً أراها في الضلال تهيم [الكامل]

قال **القزويني**: " لم يعطف (أراها) على (تظنّ) لـئلاّ يتـوهم السامع أنه معطوف على (أبغي) لقربـه منه، مع أنه ليس بمراد. ويحتمـل الاستئناف." (١) أي أن جملة (أراها في الضلال تهيم) يمكن اعتبارها جملة مستأنفة لا صلة لها بالجملة التي قبلها..

فالملاحَظ في هذا البيت أنّ جملة (أراها) يمكن عطفها على جملة (تظنّ سلمى) وهذا عطف جائز لا يفسد المعنى، بل يوافقه..لكن هذا العطف قد عُدِلَ عنه، لأنّه يؤدّي إلى توهّم السامع أن تكون جملة (أراها..) معطوفة على جملة (أبغي..) وهذا يؤدّي إلى تغيير المعنى والقصد، إذْ يكون المعنى الظاهر هو أنّ سلمى تظنّ أنه يبغي بها بدلاً، وتظنّ كذلك أنه يراها في الضلال تهيم. وهذا ليس مراداً، بل إنّ المعنى به يتحول عن قصد الشاعر، إذْ إنّه لا يريد أنْ يقول بأنّ في ظنّ سلمى أنه يراها في الضلال تهيم، وإنما الشاعر هو الذي يقرر ذلك..ولكي يتحقق هذا المعنى الذي أراده الشاعر، فإنّ القطع ههنا أفضل وأدلّ على المعنى المراد. مع أن الوصل بالعطف جائز. ولكن دفع التوهّم لدى المخاطَب يقتضي هذا النوع من القطع. فهو انقطاع

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة: ص١٥٢

واقع بين ضعف جواز الوصل وقوة جواز الفصل، ولمّا كان الفصل فيه غالباً سمّوه شبه كما الانقطاع..

٥- **الموضع الخامس: التوسط بيْن الكماليْن** (أي: بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع):

وهو أن تكون الجملتان متصلتــيْن من جهة المعنى العام، بحيث لا يكتمل بدونهما، ولكن يمتنع عطف الثانية على الأولى لأنّ في هذا العطف تحريفاً للمعنى وخروجاً عن المقصود من الكلام.. فالتوسط ههنا يتمثل- من جهة الإتصال- في اتصال الجملتيْن من حيث حاجة كل منهما إلى الأخرى لتمام المعنى العام للتركيب.. ويتمثل- من جهة الانقطاع- في ضرورة الانقطاع بينهما بعدم عطف الثانية على الأولى، لأنّ العطف يؤدي إلى تغيير المعنى عن وجهته الصحيحة..

ومثال هذا القطع الواجب لوجود مانعٍ من العطف، قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ. اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ ﴾ [البقرة/ ١٤-١٥] فقوله ﴿ اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ ﴾ إمّا أن يعطف على قوله (قالوا..) أو يعطف على قوله (إنا معكم) والعطف في الحاليْــن ممتــنع لا يجوز لأنّه يؤدي إلى تغيــير في المعنــى، بما يبتعــد عن المراد من الآية.. فلو عطفت جملة (الله يستهزئ بهم) على جملة (قالوا..) لما كان المعنى المراد محققاً، إذ يكون عطف فعل الاستهزاء على فعل القول. وفي ذلك اختلاف كبير بين المتعاطفيْن من جهة

الإسناد إذ المسند إليه في الجملة الأولى هو ضمير الغائبين (الواو) والمسند إليه في الجملة الثانية هو اسم الجلالة (الله).. كما أنّ هذا العطف يتضمّن الجمع بين قولهم وقول الله عزّ وجلّ وهذا لا يجوز. لتباعد السياق في كلّ من الجملتّن. ثم إنّ ذكْر الاستهزاء في المعطوف جاء من غيْر ذكْرٍ سابق له، كما هو بادٍ في نص الآية..لأنّ استهزاء الله بهم جاء ردّاً على ما صدر منهم من قول وفعل في اعتقادهم بأنهم خدعوا المؤمنين ونالوا منهم، بعدما خلوا إلى شياطينهم وحبكوا مؤامرتهم ضدّهم وظنّوا أنهم هم المستهزئون.. ولا يمكن أن يأتي بعد مجرد فعل القول منهم.. كما أنّ ثمّـــة تباعداً بين الجملتـــيْن فلا رابطة بينهما من جهة المعنى..

وأمّا وجوب القطع بترك عطف جملة (الله يستهزئ بهم) على جملة (إنّا معكم) فذلك لأنّ الجملة الأولى هي من قول الله جلّ وعلا، أمّا الجملة الثانية فهي من قول المنافقــين. ولا يجوز مثل هذا العطف. فكان القطع ههنا واجباً لوجود هذا المانع القويّ المتمثل في تحريف المعنى عن مقصد الآية والمراد منها، وهو تحدّي المنافقين وكشف مؤامرتهم، وإظهار فشلهم وضعفهم في كيدهم لتنكشف حقيقتهم للمؤمنين.. فهذا الذي ذكرناه مما يستفاد من الآية ههنا يدلّ على وجوب القطع في هذا المقام..

تـــنبـــيهات:

- يمكن القول بأنّ الوصل بالأداة نوع من الفصل في المعنى، وهو أقلّ درجةً من وصل المعنى. والفصل بعدم استعمال الأداة هو أقوى وصل في المعنى.

- إنّ الوصل بالأداة في حقيقته يكون بين الجملتيْن إذا كان بينهما تمايز واختلاف بقدر يسير لتمييز إحداهما من الأخرى، بحيث لا يصل إلى حدّ التباين الكبير الذي يكون فيه تباعد في المعنى، فلا يمكن وصل الكلام عندئذ

- كما أنّ الفصل وبترك استعمال الأداة يدل على قوة الاتصال بين الجملتيْن من ناحية المعنى، وذلك هو الأصل..

- نستخلص من مبحث الوصل والفصل أنّ في كليهما اتصالاً بين الجملتيْن: فإمّا اتصال لفظي بطريق استعمال الأداة، وهو أقلّ قوّةً. وإمّا اتصال معنوي أكثر قوّةً يتم فيه الاستغناء عن الأداة..

- يمكن إدراج الموضعيْن الأخيريْن من مواضع الفصل – وهما: شبه كمال الانقطاع والتوسط بين الكماليْن – ضمن شبه كمال الاتصال، لما فيهما من جواز الاستئناف في الجملة المعطوفة. كما رأينا في بيت أبي تمام (وتظنّ سلمى(البيت) وكذلك في الآية الكريمة (وإذا خلوا إلى شياطينهم (الآية)

المبحث التاســع : الإيجــاز و الإطنــاب و المســاواة

الإيجـاز

تعريــف:

الإيجاز هو اختيار المتكلم لألفاظ قليلة تحمل الكثير من المعاني، لكن دون إخلال بالمعنى، أو قصور عن بلوغ الهدف التواصلي.. وهو طريقة فنية مفضلة في البلاغة العربية، حتى إنّ بعض البلاغيين يسمّون البلاغة باسمه، فيقولون:" البلاغة هي الإيجاز. "

ولابن سنان الخفاجي قول مفيد في تعريف الإيجاز، وهو " أن يكون اللفظ القليل يدل المعنى الكثير دلالة واضحة ظاهرة، لا أن تكون الألفاظ لفرط إيجازها قد ألبست المعنى وأغمضتْه، حتى يحتاج إلى طرف من التأمّل ودقيق الفكر فإنّ هذا عيْبٌ في الكلام ونقص." (١)

أنـــواع الإيجــاز:

- الإيجــاز نوعان: إيجــاز قِــصَــر وإيجاز حــذف.

أولاً: إيجـــاز القِــصَــر:

يسمّـــى أيضاً إيجاز البلاغة، ويكون بتضمين المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة من غير حذف. (٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾[البقرة / ١٧٩] فهذه الآية الكريمة تحمل الكثير من المعانـــي في

---

(١) ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة – تحقيق: عبد المتعال الصعيدي: ص٢٤٣-٢٤٤

(٢) ينظر: جواهر البلاغة للسيد أحمد الهاشمي: ص١٩٤

ثنايا هذه الألفاظ القليلة. ذلك أنّ كلمتي القصاص والحياة تدلاّن على معنيـــيْن متصلـــيْن أحدهما مترتب على الآخر. فالقصاص هو أنّ الذي يَقْــتُلُ يُــقْتَلُ، أي أنّ فيه مقابلة القتل بالقتل.. والحيـــاة هو أنّ الناس عندما يعرفون بأنّ القاتل ينتظره القتْل فإنهم سيكفون عن قتْل بعضهم بعضاً. فالقتْل الثاني (أي: القصاص) المترتب على الأول هو الذي يجعل الناس يكفون عن القتْل الأول.. وإذا كفّوا عنه حفظوا حياتهم، فطال بقاؤهم وكثر خلَفهم وعمّ خيرهم وعمّروا الأرض بسعيهم وتعاونهم..

فنحن نرى هذه المعاني الكثيرة كلها مستفادة من تلك الآية الموجزة. وما أكثر الآيات القرآنية التي جاءت على هذا النمط من التعبير الإيجازي.. مماّ يدلّ على أهمّية ما تحمله الآية هنا من المعنى ، وما تفيض به من تدفقات دلالية، أنّ المخاطبين بها هم أولو الألباب والعقول، أولئك الذين يستنبطون هذه المعاني ويستشفون تلك الدلالات، ويدركون مقاصدها. إذ إنّ تمام الآية هو قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة / ١٧٩]

وانظر إلى قوله تعالى﴿خُذ العفْو وامُرْ بالعُرْف وأعرضْ عن الجاهلين ﴾ [الأعراف / ١٩٩] فمن هذه الآية الموجزة نستطيع أن نستشف الكثير من المعاني.. كالحث على التحلّي بالمكارم والصفات التي تقرّب الإنسان من ربه وتنيله رضاه. ومنها أننا نستخلص من أخذ العفو: الرحمةَ والصبرَ على الأذى والصّفْحَ وعدمَ مقابلة الإساءة بالإساءة.. ونستخلص من الأمر بالمعروف:

الإرشادَ، وتقديمَ العون للناس، والعملَ على نشر الخير والمودة.. ونستخلص من الإعراض عن الجاهلين: الابتعادَ عمّا يجلب المضرّة، وعدمَ مجادلة الجاهلين، وترْكَ السبل التي تؤدي إلى الهلاك..إلى غير ذلك مما يمكن استخلاصه من المعاني الكثيرة في هذا الشأن..

ثانـــياً: إيجـــاز الحـــذْف:

إيجاز الحذف هو أن يكون بعض الكلام محذوفاً لأنّ ما هو مذكور يغنـــي عنه في ويوحي به من غير أن يترتب على ذلك قصور فـــي المعنى.

وهو عند البلاغيين" ما حذف بعض أجزائه لدلالة الكلام على المحذوف. ويكون فيما زاد معناه على لفظه." ([1])

ومما يجب مراعاته في هذا النوع من الإيجاز أنّ الحذف يكون ضرورياً، لكنه لا يخلّ بالمعنى، بل يكون هذا الحذف مستحسناً، ولو عُــدِلَ عنه إلى إعادة المحذوف لكان في ذلك إخلال بالمعنى.. وعلى هذا فإنّ هذا الإيجاز " يكون بحذف شيء من العبارة لا يخلّ بالفهم، عند وجود ما يدلّ على المحذوف، من قرينة لفظية أو معنوية." ([2])

أقسام إيجـــاز الحـــذف:

ينقسم الإيجاز بالحذف إلى عدة أقسام على النحو الآتي:

---

(١) د/ عبد الواحد حسن الشيخ: دراسات في البلاغة عند ضياء الدين بن الأثير: ص١١٢

(٢) جواهر البلاغة: ص١٩٥

١- **الإيجاز بحذف حرف**: وقد يكون هذا الحرف بعضاً من كلمة. كما في قوله تعالى: ﴿ و لم أكُ بغياً ﴾[مريم/ من الآية ٢٠] أي: لم أكن بغياً. فالنون بعض من الفعل (أكن).وحذفت للتخفيف. والمعلوم أن هذا الفعل لا يكون في الأصل بغير النون، فدلّ ذلك على المحذوف.

- وقد يكون الحرف المحذوف أداة، كحذف (لا النافية) في قول **عاصم المنقريّ** في نبذ الخمر لما لها من آثار ضارّة: [من الوافر]

رأيت الخمْر جامدة وفيها ** خصال تفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها حياتي ** ولا أسقي بها أبداً نديما

فقوله:(أشربها حياتي.) يريد به: (لا أشربها مدة حياتي.).وحذْف (لا النافية) هنا دلّ عليْه وجودها في بداية صدر البيت، وكذا في بداية عجُزه. فجاءتْ محذوفة بين لاءيْن مذكورتيْن. وهذا دليل قويّ عليها.. ويزيد السياق هذا المعنى وضوحاً وجلاءً.

- وقد يكون المحذوف حرف شرط، كما في قوله تعالى: ﴿ فاتبعوني يحببْكم الله.﴾ [آل عمران / ٣١]. فالتقدير: إنْ تتّبعوني يحببْكم الله. فالمحبّة من الله مشروطة بحبّ الرسول صلى الله عليه وسلم. ومعنى الشرط مفهوم من الآية على الرغم من حذف حرف الشرط.أمّا جملة الشرط، فقد تحوّل فعلها من المضارع إلى الأمر. وبذلك تحوّل أسلوب الشرط إلى طلب.

٢- **الإيجـــاز بحذف اسم**: قد يكون هذا الاسم صفةً،كما في قوله تعالى: ﴿فزادهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [التوبة / ١٢٥]والمراد: رجساً مضافاً إلى رجسهم. وقد دلّ الفعل (زاد) على هذا معنى الإضافة المحذوف.

وقد يكون موصوفاً، كما في قوله تعالى: ﴿ وعندهم قاصرات الطرف عيـــن﴾ [الصافات / ١٨] إذ المراد: حور قاصرات الطرف عين.. وكثيراً ما وردت كلمة (عين) بعد كلمة (حور) في القرآن الكريم.. فالعين تدلّ على الحور.

وقد يكون هذا الاسم مضافاً، كما في قوله تعالى: ﴿ لله الأمر من قبْـــلُ ومن بعْـــدُ ﴾ [الروم / ٠٤]. فالمراد: من قبل ذلك ومن بعده، ويدلّ على ذلك سياق الآية.

٣- **الإيجـــاز بحذف المسـَـند**: كما في قوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرضَ ليقولنّ الله.﴾ [لقمان / ٢٥]فالتقدير: اللهُ خلقهـــنَّ.ولفظ الجلالة مسنَد إليه (مبتدأ) وما بعده (خلقهنّ) جملة فعلية (مسند). وقد دلّ على أنّ المحذوف جملة فعلية وجود جملة مذكورة قبلها دالّة عليها.. ولو كان المسنَد المذكور اسماً مفرداً لكان المحذوف كذلك اسماً مفرداً..فلو قال: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض لقالوا الله.. لكان التقدير: لقالوا الله خالقهنّ.أو خالقها.

٤- **الإيجـــاز بحذف المسـَـند إليه**: كما في قول **حاتم**: [من الطويل]

أماويُّ ما يُغْني الثراء عن الفتى ** إذا حشرجتْ يوماً وضاق بها الصدر

أي: إذا حشرجت النفس يوماً.. فالمحذوف هو المسند إليه(الفاعل) وقد دلّ عليه السياق، فأغنى حذفه عن ذكْره.

٥- **الإيجــاز بحذف المتعلّق بالإسناد**: كما في قوله تعالى: ﴿ لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسألون. ﴾ [الأنبياء ٢٣] فالمراد: وهم يُسألون عمّـــا يفعلون. وهذا المتعلّق بالإسناد هو المحذوف، وقد دلّ عليه ما هو مذكور في الآية ومتصل به من حيث المعنى (عمّا يفعل).

٦- **الإيجــاز بحذف جواب الشرط**: كما في قوله تعالى: ﴿ ولو ترى إذْ وُقِفوا على النار ﴾ [الأنعام / ٢٧] والتقدير: لو ترى... لرأيت أمراً عظيماً فظيعاً لا يُطاق.. وحذف جواب الشرط المقترن بالفاء لدلالة هول الوقوف عل النار عليه. ولقد أغنى ذكْر هذا الموقف الفظيع عن كلّ ما يأتي بعده من الكلام عنه.

٧- **الإيجــاز بحذف جملـــــة**: ويكون ذلك بحذف جملة برمّـــتها، على أن يكون في الكلام ما يدلّ على معنى الجملة المحذوفة.. كما في قوله تعالى: ﴿ فقلنـــا اضربْ بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً..﴾ [البقرة / ٦٠] فالتقدير: (فضرب الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً..) والسياق دليل على هذه الجملة المحذوفة.

ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى:﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيئين.﴾

[البقرة / ٢١٣] فالمراد: فاختلفوا فبعث الله النبيئين.. وحذفتْ جملة (فاختلفوا) بدلالة أنّ بعث النبيئين مترتب على اختلاف الناس..

٨- الإيجاز بحذف عدّة جُمَل :

وذلك يكون بحذف جمل متعددة متصلة فيما بينها.كما في قوله تعالى: ﴿ فأرسلونِ يوسف أيّها الصدّيق.. ﴾ [يوسف / ٤٥-٤٦] فالتقدير: فأرسلون إلى يوسف لأسأله عن هذه الرؤيا.. فأرسلوه إليه فأتاه وقال له: يوسف أيها الصّدّيق... فالملاحظ أنّ ثمّة جملاً عديدة محذوفة. ولكنّ هذا الحذف لم يخلّ بالمعنى، بل زاده قوة وجمالاً. ذلك أنّ القليل المذكور دلّ دلالة قوية على الكثير المحذوف. وهذا من أرقى درجات الفنّ البلاغي الرفيع، وهو كثير في الأسلوب القرآني..

فوائد الإيجاز وقيمته الفنّية:

بفضل الإيجاز يمكننا توفير الجهد والاقتصاد في الوقت، كما يستطاع في الوقت نفسه استحضار قدر كبير من المعاني التي يراد التعبير عنها في العبارة الواحدة.. وبهذا نستطيع المتكلم أن يبوح بالكثير من الأفكار التي تخالجه في عدد قليل من الكلمات بأسلوب بليغ فصيح. والإيجاز طريقة العرب المفضلة في التعبير، وهو مجال التباري عندهم. فمن أوجز كلامه وبلغ مراده وأصاب مقاصده من أقصر الطُّرُق فذلك هو البليغ عندهم.

والإيجاز دليل على التمكّن والقدرة على التصرف في استعمال اللغة، والدراية بأساليب الكلام وأصوله وفروعه، ومعرفة وجوه التعبير وأنماطه،

والإحاطة بجهات ألفاظه ومعانيه، وحسن الاختيار من فنونه ومناحيه ما ينبئ عن مقاصده ومراميه. كما أنّ الكلام الموجز مماّ يأنس له المخاطَب ويستحسنه ويميل إليه.

وللإيجاز بأنواعه فوائد كثيرة، فهو يُسهّل التواصل بقلة الكلمات، ويقـــرّب الفهم بوضوح العبارات، ويبعث الارتياح في النفس بجمال الصياغات وعمق الدلالات. وبه يتم الوصول إلى المعنى المراد بأيسر عبارة وأحسن إشارة..

مواضع الإيجـــاز:

المواضع التي يستحسَن فيها الإيجاز كثيرة متنوعة، وقد جعل بعضُهم (١) الإيجازَ مستحسناً في الاستعطاف والشكوى والاعتذار والتعزية والعتاب والوعد والوعيد والتوبيخ، ورسائل طلب الخراج وجباية الأموال ورسائل الملوك في أوقات الحرب إلى الولاة، والأوامر والنواهي الملكية، والشكر على النعم، وما كان من هذا القبيل..

والحقيقة أنّه لا يمكن حصر المواضع المستحسنة للإيجاز. ذلك أنّ الإيجاز من البلاغة. وحيثما كانت البلاغة أمكن استعمال المجاز بأنواعه، ويتحقق هذا النوع من التعبير لدى المتكلم بحسب ما يكون عليه من التمكّن في فنون الكلام وأساليبه.. ثم إنّه لا يمكن حصر دواعي الإيجاز ومناسباته.

---

(١) ينظر: جواهر البلاغة: ص١٩٦

الإطنـــاب

الإطناب – على عكس الإيجاز – هو التعبير عن المعنى القليل المراد بألفاظ تزيد على القدر الموضوع له. وزيادة هذه الألفاظ إنما تكون لإصابة غرض منشود وبلوغ هدف مقصود.

وإذا كان الإيجاز محموداً فليس الإطناب مذموماً. وإذا كان الإيجاز من البلاغة، فكذلك قد يكون الإطناب؛ ذلك أنّ البلاغة هي إيصال المعنى إلى ذهن المخاطَب بأوضح أسلوب ومن أيسر سبيل وعلى أحسن صورة. وقد يكون الإطناب أنسب لحال المخاطَب، فيكون من البلاغة. كما أنّ الإطناب قد تستدعيـــه بعض المواقف والظروف التي لا يجدي فيها الإيجاز ولا المساواة.

أقســـام الإطنـــاب:

١- الإطنـــاب بالتطويـــل:

إذا كانت زيادة الألفاظ على معانيها زيادة غيْرمفيدة ولا متعيّنـــة. فهذا النوع من الإطناب يسمّى تطويـــلاً.ومثال ذلك قول **عدي العبادي** في جذيمـــة الأبرش: [من الوافر]

وقدّدت الأديـــمَ لراهشيه ** وألفى قولـــها كذبـــاً وميناً.

فالميـــن والكذب بمعنـــى واحد، ولم يتعـــيّن الزائد منهما، لأنّ العطف بالواو لا يفيـــد ترتيباً ولا تعقيبـــاً ولا معيّـــةً. فلا يتغيّـــر المعنـــى بإسقـــاط أيهـــما شئت.

٢- الإطنــاب بالحشـــو:

أمّا إذا كانت زيادة الألفاظ على معانيها زيادة غيْـر مفيـدة ولكنها متعيّـنة فإنها تعدّ من الحشو الذي يراه البلاغيون ممّا يفسـد المعـنى. ومنه قول **زهير بن أبـي سلمى**: [من الطويل]

وأعلم علْم اليوم والأمس قبله ** ولكنني عن علْم ما في غـد عـمِ

فقد رأوا أنّ قوله: (الأمس) يغني عن قوله (قبله).لأنّ المعروف أنّ الأمس قبل اليوم الحالي ومع ذلك أطنب، على الرغم من أنّ هذه الزيادة لا توضح غامضاً ولا تقرّب معنى بعيداً.

ويرى البلاغيون أن التطويل والحشو كلاهما معيب في البيان، وكلاهما بمعزل عن مراتب البلاغة[1] غير أن هذا الحكْم قد لا يؤخذ به على إطلاقه، لأنّ معرفة مواضع الزيادة لا يؤدي إلى الخروج عن الكلام البليغ، كما أنّ إيراد الكلام على ما تقتضيه حال المخاطَب قد يستدعي هذا النوع من الإطناب. بل ينبغي الوقوف على أسرار الكلام ومقاصده، وما له من قيم ودلالات ظاهرة وخفية.

وعلى هذا فإنّ الإطناب إذا كان لغرض معيّـن، بحَيث لا يتم إصابة هذا الغرض إلاّ بـه كان حسناً مستساغاً، حشواً كان أم تطويلاً.. كغرض التوكيد لأمرٍ مـا، أو رغبة المتكلم في التعبير عن شيء يشغله

---

(١) جواهر البلاغة: ص١٩٧

ويؤرقـــه. أمّا إذا لـــم يتحقّق منه غرض معيّن، فليس هو بمستحسَن، لأنه – عندئذ – يكون مخلاً بالبلاغة والفصاحة، ويغدو ممّا يمجّه الذوق.. .

وإذا عُدْنا إلى بيت عديّ السابق وعبارته (المَيْن والكذب) اتّضح لنا أنّ المـــيْن تأكيد على كذب متحقّق في القول. ولولا ذلك ما كان الشاعر ليستعمل لفظ الكذب ويثنّـــي عليه بلفظ الميْـــن.. ولا يُلتَفت إلى كون الميْـــن غير معطوف على الكذب. وإنْ كان هذا الكلام غير صحيح، ذلك أنّ الكذب غير الميْـــن في الحقيقة، فهما شيئان متغايران. وما داما كذلك فالعطف موجود..ثمّ إنّ القول بأنّ إسقاط أحدهما لا يغيّر المعنى غير صحيح ذلك أنّ الكلام يتحول إلى خطاب غير مؤكّد. ومن جهة أخرى فإنّ حالة الشاعر تستدعي هذا التوكيد.

أمّا بيت **زهير** فيريد أنْ يجمع فيه بيْن الأمس واليوم والغد مرّة واحدة أثناء وصفه لحاله، والتعبيـــر عمّا يجول بنفسه. ولا يريد أن يفصل أحدها عن الآخر. كما أنّ الشاعر ينطلق من يومه الذي هو فيه، ثمّ يعود إلى أمسه، وينتقل إلى غده مروراً بيومه الحاضر الذي يمثل حلقة الوصل بين ماضيـــه ومستقبله.. وهذا المعنى لا يتحقق ما لم يستحضر الشاعر أيامه الثلاثة.. فهذه الزيادة من قبيل التوكيد، ذلك أنّ الشاعر أراد أن يبقى متصلاً بماضيه، كما يتصل بحاضره ومستقبله. وأنّ هذا الماضي لم يغبْ عن فكر الشاعر لما تركه عليه من الآثار، خصوصاً إذا علمنا أنّ الشاعر تكلّم كثيراً في ميميته عن طول عمره وسؤمه من الحياة. وللشعراء مع الدهر حكايات، فهم لا

ينفكّون يشكون منه وإليه.. وإنّي لأكاد أقول بأنّه لا تكرار في قول الشاعر لو تأمّلنا ملــيّاً ذلك المغزى من كلامه، واستحضرنا معه حالته وقد بلغ الثمانين حولاً من عمره.. ثمّ إنّ زهيْراً، وهو حكيم شعراء ما قبل الإسلام، كان معروفاً بتنقيح شعره وتهذيبه.. فكيف يأتي بكلام معيب بمعزل عن مراتب البلاغة والفصاحة والبيان؟!

أنــــماط الإطنـــاب:

ذكر البلاغيون للإطناب أنماطاً نكتفي بذكْرها، وهي: ذكْر الخاص بعد العام؛ وذكْر العام بعد الخاص؛ والإيضاح بعد الإبهام؛ والتوسيع؛ والتكرير؛ والاعتراض؛ والإيغال؛ والتذييل؛ والاحتراس؛ والتتْميم..واستشهدوا على ذلك بآيات من القرآن الكريم وأبيات من الشعر العربي الفصيح.

فــوائد الإطنـــاب ومواضعـــه:

للإطناب – إذا كان في بابه – عدة فوائد منها أنه يزيل كلّ لبْس أو غموض عن الكلام. ويزيد الفكرة توضيحاً في ذهْــن السامع. ويجعل المتكلم محيطاً بالمعاني التي يريد التعبير عنها دون نقص. ويفسح المجال أمامه ليعــبّر عن المعنى الواحد بما يؤديه ويزيده وضوحاً وتأثيراً..

وقد قيـــل إنّ الإطناب يستحسن في مواضع الصلح بين العشائر، وفي المدح والثناء، وفي الهجاء، وفي الوعـــظ والإرشاد، وفي الخطابة في

الأمور العامة، وفي التهنئـــة ومنشورات الحكومة إلى الأمة، وكتب الولاة إلى الملوك لإخبارهم بمهام الأمور.. [١]

وهناك مواضع كثيرة يستحسن فيها الإطناب، كما أنّ هناك مواضع مستحسنة للإيجاز.. وحيث كان الإطناب أنسب لبلوغ الهدف والتعبير عن الغرض، فهو من البلاغة، وهو المختار. وحيث لم يكن كذلك كان العدول عنه أفضل..

---

(١) ينظر: جواهر البلاغة: ص٢٠٢

المســـاواة

المساواة هي أن تكـــون الألفاظ المستعملة على قدر المعاني التي تدلّ عليها، من غير زيادة ولا نقصان. ومثال ذلك قول طرفة بن العبْد: [من الطويل]

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ** ويأتيك بالأخبار من لـــم تُزوّدِ

فأنت لو حذفْتَ شيئاً من هذا البيت لوقع - بسبب هذا الحذف - إخلال بالمعنى. وقد لا حظنا قبل هذا أنّ الحذف فـــي الإيجاز من البلاغة، أي أنّ بلاغـــة الإيجاز تكمن في الحذف، عندما يكون فـــي الكلام ما يدلّ على المحذوف دلالة فنّـــيّة إيحائيّة. وهذا ما يجعله في موضع الاستحسان والتفضيل.. أمّا في الإطناب فقد لاحظنا أنّ الكلام يُـــتْبَع بكلام آخر يدور في فلك معناه، لغرض التوضيح والتأكيد وشدة التأثير، وما إلى ذلك..

فبهذا يكون الإيجاز متميّزاً بحذف بعض الكلام مع وجود ما يدلّ على المحذوف. ويكون الإطناب متميّزاً بزيادة الكلام لغرض معيَّن.. أمّا في المساواة فلا تجد هذا ولا ذاك. وإنما تجد كلاماً مساوياً للمعنى والغرض المراد التعبير عنه. وفي هذا التعادل بين اللفظ المستعمل والمعنى المراد منه تكمن بلاغة المساواة.

والمساواة عند بعض البلاغيين نوعان: مساواة مع الاختصار؛ ومساواة يدون اختصار..

- **فأمّا الأولى** فهي أن يتحرّى البليغ في تأدية المعنى أوجز الألفاظ، مع قلة الحروف، وكثرة المعاني. كما في قوله تعالى:﴿هل جزاء الإحسان إلاّ

الإحسان.﴾ [الرحمن/٦٠] وقوله تعالى: ﴿ ولا يحيق المكر السّيّء إلاّ بأهله ﴾ [فاطر/ ٤٤]

- **وأمّا الثانية** فهي تأدية المعنى المقصود من غيْر طلبٍ للاختصار. وتسمّى(متعارف الأوساط). ومثلها قوله تعالى: ﴿حور مقصورات في الخيام.﴾ [الرحمن/٧٢]

وهذان النوعان من المساواة من أسمى درجات البلاغة، غير أنّ النوع الأول أفضل. والمساواة بنوعيْها ليست بالأمر السهل الذي يقدر عليه الجميع.. فمرتقاها صعب ومقصدها جليل..

وهي عند البعض وسط بين الإيجاز والإطناب، أي أنها لا تمثل قستماً ثالثاً معهما. وهي عند آخرين قسم ثالث لهما، مستقلّ بذاته، لا تابع متوسط بينهما..

وأيّاً ما كان الأمر فلا سبيل إلى إنكار أنّ الكلام بعضـــه فيه إيجاز وإصابة للمعاني الكثيرة بقدر قليل من الألفاظ؛ وبعضه فيه تطويل وتكرار لإصابة المعنى الواحد؛ و بعضه فيه ما بين هذا وذاك (أي ما بين الإيجاز والتطويل). لكن هذه البيـــنية في البلاغة ليس من السهل إدراكها وإيجاد الكلام الذي يكون من قبيلها.

البــاب الثــانــي

فنــون البيــان

فنـــون البيـــان

التعريف بعلم البيان :

علم البيان هو التعبير الفني الجميل الذي تتجلّى فيه البلاغة والفصاحة من خلال نقل المعنى بما يوضّح الغرض المقصود ويوصل إلى المعنى المنشود، عن طريق تصوير الأفكار بما يترك من أثر حسَن في نفس السّامع. وهو خطاب المخيلات الذي يتجاوز حدود الظاهر من الكلمات.

وفنّ البيان هو أحد الفروع الثلاثة للبلاغة العربية كما استقرت عند **السكاكي**، وهي: (المعاني والبيان والبديع). ويتناول هذا الفنُّ التعبيرَ عن المعنى الواحد بطرق وكيفيات مختلفة في وضوح الدلالة عليه، ويكون ذلك ببراعة التصوير الفنّي من غير خروج عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وذلك هو شرط البلاغة.

وبعبارة أخرى نقول إن علم البيان مرتبط بمهارة المتكلم وبراعته وطريقته التي يتميز بها في التعبير عن المعنى المراد تبليغه.

فالمتكلمون متفاوتون في التصوير وأساليب التعبير عن المعاني، على الرغم من كون كلامهم مطابقاً لما تقتضيه حال المخاطب.

وعلى هذا فالمخاطب يفهم مراد المتكلمين على تعدد طرق تعبيرهم وتصويرهم، ولكنه يستحسن أسلوب بعضهم ويفضله على أسلوب البعض الأخر، لما يكون يميزه من ألوان التصوير.

ومردّ ذلك الاستحسان والتفضيل إلى ما يبْلُغـــه الكلامُ في نفسه من قوة التأثير بتجاوز الوضع، وشدّة الوقع وإطراب السمع. فهو إذاً فنّ يختصّ

بدراسة الطرق والأساليب المختلفة في التعبير عن المعنى الواحد، فيبين مدى اختلافها وتفاضلها من حيث الوضوح والخفاء والقرب والبعد وغير ذلك.

ويشمل فن البيان عدّة جوانب تتمثل فيما يأتي:

الأسلوب: ويتمثل في حسْن الصياغة التي تكون باختيار الألفاظ والتراكيب المناسبة للمعنى المراد مع مراعاة حسن نظمها واتساقها، وانسجامها وتآلفها.

المعنى: وهو الفكرة التي يراد تبليغها إلى السّامع، وهي محور التخاطب وأساسه ومنطلقه الأول.

الإبانة: ويراد بها توخّي الوضوح في التعبير مع حسن الأداء.

التأثير: والمقصود به ما يتركه الخطاب من أثر في نفس السّامع، ويتجلّى ذلك فيما يلقاه من استحسان لديه و إقبال عليه.

وقد حدد البلاغيون أربع طرق للتعبير عن المعاني والأفكار، وتصويرها بما يكون له أثر حسَن في النفس. وتتمثل في التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية.

فالتشبيه هو اشتراك طرفيْن (هما المشب والمشبه به) في صفة أو أكثر على جهة الحقيقة أو المجاز، وهو أنواع مختلفة.

والاستعارة هي نوع من التشبيه لكنها أبلغ منه، إذْ يُقرِّب فيها بين الطرفين بدعوى اتحادهما وامتزاجهما؛ وهي تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه، إذ يتم فيها استعارة المعنى لغير لفظه.

والكناية هي تأدية المعنى بذكر ما يلازمه، مع جواز إرادة المعنى الأصلي، بحيث يكون المعنى المقصود هو المعنى الملازم وليس المعنى الأصلي.

والمجاز هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له، مع وجود قرينة تدلّ على خروج اللفظ عن دلالته الأصلية التي وُضع لها. وسنبين فيما يأتي هذه الفنون البيانية بالشرح والتوضيح والتمثيل:

المبحث الأول : التشبيـــه

تعريـــف:

التشبيه هو تمثيل شيء بشيء من خلال ذكْر ما يجمع بينهما من الصفات. والغرض منه تقريب الأشياء البعيدة وتوضيح المعاني وإضفاء الجمال الفني على الكلام بما تأنس له النفس ويستحسنه الذوق. والتشبيه مماّ طبعتْ عليه نفس الإنسان، إذْ لا يشعر المرء إلاّ وقد انتهج أسلوب التشبيه واستعان به تلقائياً من أجل إيضاح مراده وبيان مقصده.

أركان التشبيه :

أركان التشبيه أربعة هي:

١- **المشبـــه**: هو الشيء أو الطرف الذي يتم تشبيهه بغيره بهذف بيانه والتعريف به. ويشمل ذلك ما كان حسّياً وما كان معنوياً مجرداً. فالمشبه إذاً هو الطرف الذي يحتاج إلى التوضيح في الكلام.

٢- **المشبـــه به**: هو الشيء أو الطرف الذي يُستعان به ويُلجَأ إليه لبيان المشبه وإيضاحه من خلاله، لما بينهما من التقارب في الصفات. وهو كذلك يشمل ما كان حسّياً وما كان معنوياً.

والمشبه به أهمّ من المشبه، لأنّ عليه المعتمَد في إيضاح المعنى وإيصال الفكرة إلى المخاطب. وعلى قدر ما يكون اختيار المشبه به يكون بيان المعنى أو غموضه، ويحوز الكلام صفة الجودة أو الرداءة.

والمشبه والمشبه به هما طرفا التشبيه، ويسميان بالطرفين لما لهما مـــن الأهمية بين بقية الأركان، إذْ إنهما متلازمان في التشبيه، ولا استغناء عنهما في أيّ نوع من أنواعه. فإن حذف أحدهما خرج الكلام من حيّز التـــشبيه إلى حيّـــز الاستعارة.

٣- **أداة التشبيه**: هي اللفظ المستعمل الدال على تشبيه شيء بأخر، وقد تكون أداة التشبيه حرفاً مثل(الكاف و كأن) أو اسما مثل(مثل، شبه، شأن) أو فعلاً مثل (ماثل ، شابهن حاكى)

٤- **وجه الشبه**: وهو الصفة المشتركة بين الطرفين للتقريب بينهما ويكون وجه الشبه أقوى ارتباطا بالمشبه به من المشبه

أقســـام التشبيـــه:

قسم البلاغيون التشبيه عدة تقسيمات بالنظر إلى الطرفين تارة وإلى الأداة تارة وإلى وجه الشبه طوراً أخر وسنوجز هذه الأقسام فبما يأتي:

- **أولاً: أقسام التشبيه باعتبار طرفيه** :

ينقسم التشبيه باعتبار طرفيه إلى أربعة أقسام هي:

١- **تشبيه مفرد بمفرد**: وليس المراد بالمفرد هنا ما يقابل المثنى والجمع، وإنما المراد به أنّ كلا الطرفيْن يكون كلمة واحدة، وليس مركباً من عدة كلمات بحيث يُفْهَم منها التركيب في الصورة.

ومثاله قولنا: " وجنتاه كوردتين وثغره كاللؤلؤ المنظوم ." فكلا الطرفين جاء مفردا يقدم صورة واحدة لا مركباً من أكثر من ذلك.

٢- **تشبيه مركب بمركب**: وهو أن يكون كلا الطرفيْن مركباً من أكثر من لفظ واحد، بما يعطي صورة مركبة متعددة.

ومثاله قول أحد الشعراء: [من الكامل]

والبدر في كبد السماء كدرهم ** ملقى على ديبـــاجة زرقـــاء .

لقد جاء كل من المشبه ولمشبه به مركبا. فالمشبه مركب من البدر مع كونه في السماء ، وهذا التركيب يشمل صورتيْن ؛ والمشبه به كذلك مركب من الدرهم مع إلقائه على ديباجة زرقاء ، وهذا التركيب أيضاً يشمل صورتيْن.

٣- **تشبيه مفرد بمركب**: وهو أن يكون المشبه في لفظ واحـــد وصـــورة واحدة، وأما المشبه به فيكون في أكثر من لفظ، ويشمل أكثر من صـــورة.
ومثاله قول الشاعر: [من الكامل]

وحدائق لبس الشقيق نباها ** كالأرجوان منقطا بالعنبر[1]

فالمشبه هو الشقيق وهو لفظ مفرد يشمل صورة واحدة، والمشبه به هو الأرجوان مع كونه منقطا بالعنبر . وهو مركب من عدة ألفاظ بحيث تشمل أكثر من صورة واحدة.

٤- **تشبيه مركب بمفرد**: وهو أن يكون المشبه مركباً من أكثر من لفـــظ واحد بحيث يشمل أكثر من صورة واحدة؛ أمّا المشبه به فلا يتعدّى لفظـــا واحداً، ولا يشمل إلاّ صورة واحدة. ومثاله قول الشاعر : [من الكامل]

---

[1] الشقيق: نوع من الورد الأحمر.

لا تعجبوا من خاله في خده ** كل الشقيق بنقطة سوداء [(١)]

فالمشبه هو الخال مع كونه في الخد، وهو مركب من صورتيْن؛ وأمّا المشبه به فهو الشقيق (أي: الورد) وهو مفرد جاء في صورة واحدة.

- **ثانيـاً: أقسام التشبيه باعتبار وجه الشبه:**

ينقسم التشبيه عند البلاغيين باعتبار وجه الشبه وكيفية وروده في الكلام إلى أربعة أقسام: تشبيه تمثيل وتشبيه غير تمثيل وتشبيه مفصل وتشبيه مجمل.

١- **تشبيه التمثيل** هو ما كان وجه الشبه فيه منتزعا من متعدد. ومثاله قول أبي الطيب **المتنبي** في وصف الأسد : [من الكامل]

يطأ الثرى مترفقـا من تيهـه ** فكأنه آسٍ يجسّ عليلا [(٢)]

فوجه الشبه هنا منـتزع من متعدد، أي أنه يُفهَم من تعـدد الأوجـه والصور، وذلك من خلال صورة الأسد في ترفّقه وبطئـه وتيهه وهـو يمشي على الأرض، ثم تشبيه هذه الصورة بصورة الطبيب في رفقه وتمهّله

---

(١) خاله : أي خانته. وللمؤلف في هذا بيت ضمّنه هذه الكلمة، وهو من قصيدة مطولة بالديوان قالها في وصف الإسكندرية وقد أقام بها مدة، وهو قوله:

فأنت جوهرة في الشرق واحدة ** كأنما أنت في خدّ الدّنـا **خـالُ**

تعانقيـن ضفاف البحر مولعـة ** كما يعانـق ذات الحسْن خلخال

(٢) ديوان المتنـبي: ص ١٤٦ (والبيت من قصيدة له في وصف أسد ؛ والتيـه: الكبرياء ؛ والآسي: الطبيب ؛ والعليل: المريض.)

وهو يجسّ المريض. فمن هاتيْن الصورتين وما تشملانه من صور أخرى متعددة يُفهم وجه الشبه. فهو لا يُدْرَك إلاّ من خلال عدة صور، سواء من جهة المشبه أو من جهة المشبه به. ومثاله قول الشاعر: [من الطويل]

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ** يوافي تمام الشهر ثم يغيب

فوجه الشبه الذي هو سرعة نهاية الإنسان منتـــزع من صورة القمر وحالته التي تـــتغير إلى أن يزول ويختفي عن الأنظار.. فهذا التغيّر وتعدّد مراحل الشهاب في انطلاقه ومروره وزواله، كلّها مجتمعةً يُفهم منها وجه الشبه.

٢- **والتشبيه غير التمثيل**: هو ما كان وجه الشبه فيه واحداً غير متعدد . ومثال ذلك قول الشاعر: [من الكامل]

لا تطلبن بآلة لك رتبةً ** قلَم البليغ بغير حظ مغزل

فوجه الشبه هنا هو عدم وجود الفائدة، وهو معنى واحد وصورة واحدة، فلا وجود إذاً لتعدّد الصور في وجه الشبه.

٣- **والتشبيه المفصل**: هو ما ذكر فيه وجه الشبه أو ما يتصل به ويلازمه. ومنه قولنا:كلامك كالعسل في حلاوته؛ فالحلاوة هي وجه الشبه بين العسل وهذا الكلام.

وقد لا يُذْكَر وجه الشبه صراحةً، لكن يُذْكَر ما يتصل به أو يلازمه ويدل عليه. كما في قولنا مثلاً: كلامك كالعسل وقد طاب لي مذاقه.

٤- **والتشبيه المجمل**: هو ما لم يذكر فيه وجه الشبه ولا ما يتصل به أو يلازمه. ومنه قول الشاعر : [الرمل المجزوء]

إنما الدنيا كبيت ** نسجه عنكبوت

فههنا لم يُذكر وجه الشبه في البيت، وإنما تُرك ذلك بقصد الإجمال، واُكتُفِيَ بذكْر الطرفيْن، وهما (الدنيا وبيت العنكبوت).

– ثالثـــاً: أقسام التشبيه باعتبار الأداة :

ينقسم التشبيه باعتبار أداته إلى: مرسل ومؤكد وبليغ.

١- **فالتشبيه المرسل** هو ما ذكرت فيه الأداة، مثل قولنا: (أنت **كـ**السراج الذي يضيء لنا دروب العلْم والمعرفة.)

ومنه قولنا في العلاّمة عبد الحميد **بن باديس** ضمن قصيدة مطولة بمناسبة إحياء يوم العلم:

يراعك **مثل** السراج ينير ** الدياجي ويمحو ظلام الجمود

٢- **والتشبيه المؤكد** هو ما حذفت فيه الأداة جوازاً وذكر وجه الشبه. ومثاله قولنا: (الإيمان سلاح به يتّقي المرء هلاكه.)

٣- **والتشبيه البليغ** هو ما حذفت فيه الأداة ووجه الشبه. كقول **حافظ:**

الأمّ مدرسةٌ إذا أعددتَها ** أعددْتَ شعباً طيّبَ الأعراق

– رابعـــاً: أقسام أخرى للتشبيه بناء على خلاف المعهود:

يمكن إضافة قسم آخر للتشبيه بناء على مخالفة الطرق المعهودة فيه ويدخل في هذا القسم كل من التشبيه الضمني والتشبيه المقلوب.

١- **فالتشبيه الضمني**: هو ما خالف الطرق والأنواع المعهودة في التشبيه لأنه يفهم من ضمن الكلام ولا يعتمد في تحديده على أيّ ركن من أركان

التشبيه المعهودة التي ذكرناها فيما سبق. مع أن كل أركانه تُفْهَم من المعنى.
ومثال التشبيه الضمني قول **المتنبي**: [من الخفيف]

من يهن يسهل الهوان عليه ** ما لجرح بميت إيلام

فلا يظهر أيّ ركن من أركان التشبيه في هذا البيت، ولكننا نتبـــين من خلال المعنى أنّ الشاعر أراد أن يشبّه مَن تعوّد على الهوان بالميّت الذي لا يؤلمه الجرْحُ إذا جُرِحَ. فكأنه قال: (مَن ألف الهوان وتعوّد أصبح كالميت الذي لا يشعر بالجرْح.)
ومثاله أيضاً قول **أبي فراس** : [من الطويل]

سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم ** وفي الليلة الظلماءِ يُـــفتقد البدر

فالشاعر هنا يشبه نفسه بالبدْر الذي يحتاج إليه الناس ويفتقدونه في الليالي المظلمة. وهذا تعبير منه عن قيمته ومكانته بين قومه، وهذا ما يظهـــر لهم في أوقات الجدّ والشدة والبأس. فكأنه قال: (أنا في قـــومي كالبـــدر ، ولكنهم سيدركون ذلك في أوقات الجدّ ، ويفتقدونني عند الشدائد كمـــا يفتقد الناس البدر في الليلة الظلماء.)

٢- **والتشبيه المقلوب**: هو الذي يتحول فيه المشبه به إلى مشبه، والمشبه إلى مشبه به، وذلك على غير ما هو معروف في التشبيه. إذ المعهود أن يكون المشبه به هو الأسمى والأوفى والأفضل، ليتم تقريب المشبه منه، على اعتبار أنّ المشبه أقل منه وأدنى. لكننا في التشبيه المقلوب نخالف المعهود فنشبه ما هو أسمى وأوفى وأفضل بما هو أقل وأدنى درجة منه..

وهذا النوع من التشبيه من التعبير النادر، ولكنه لا يخلو من الطابع الجمالي بما فيه من المبالغة الفنية المستحسنة.

ومثاله قول الشاعر[1]:[من الكامل]

وبدا الصباح كأنّ غرّته ** وجه الخليفة حين يُمتدَح

فالشاعر يشبه نور الإشراق في أول الصباح بوجه الخليفة حين يُمتدَح. وكان الأولى أن يكون العكس. ومن هذا القبيل أيضاً قول **البحتري** في وصف بركة المتوكل: [من البسيط]

كأنها حين لجّتْ في تدفّقها ** يد الخليفة لمّا سال واديها

فالبحتري يشبه تدفّق ماء البِرْكة العذب بجود الخليفة، بل لقد جعل ماء البرْكة شبيهاً بماء الوادي. فلم يكتف بالمبالغة في تشبيه ماء البرْكة بيد الخليفة المعطاء، مع ما يوجد في هذا من عُلُوّ المشبه على المشبه به، لم يكتف بذلك بل زاد عليه أن جعل عطاء يد الخليفة كسيْل الوادي، وشتان ما بين جريان الوادي وتدفّق ماء البرْكة.. وبهذا تضمّن التشبيه المقلوب تشبيهاً آخر زاده مبالغة، ولكنه، مع ذلك، زاده بلاغة وجمالاً..

ويرى عبد القاهر **الجرجاني** أنّ في هذا الضّرْب من التشبيه إيهاماً وتأويلاً على غير الظاهر، يُـجعل فيه الفرع أصلاً والأصل فرعاً، وهو من

---

(1) البيت للشاعر العباسي أبي جعفر محمد بن الوهيب الحِميري .

المعاني الجميلة التي إذا وردت على النفس هذا الموردَ الحسَن أدخلتْ عليها سروراً خاصـــاً وفرحاً عجيباً . [١]

بلاغـــة التشبيـــه وأثره الفـــنّي:

تتجلى بلاغة التشبيه بمختلف أنواعه في أنه يربط بين الطرفين ويقرّب بينهما وإن ابتعدا في الأصل.. كما أنه يستحث الشعور ويستدعي الخيال إلى رسم تلك الصور الجميلة من خلال ما يتضمنه التشبيه. وتختلف درجات التشبيه من هذه الناحية، فكلما كان مستمدا من مهارة المتكلم وسعة خياله كان أوقع في النفس وأقوى أثرًا، وكلما كان سطحيا قل وقعه وضعف أثره.

ولا يتأتّى اكتشاف جمال التشبيه وبلاغته، وما له من أثر فنّي إلاّ لمن أوتي سلامةً في الذوق واستطاع أن ينفذ ببصيرته إلى دقائق الأفكار الكامنة في النفوس، وأعماق الصور المرتسمة في مخيلات الشعراء والمبدعين. وعلى هذا الأساس الفنّي الذوقي ينبغي أن يكون النظر في التشبيه كما في غيره من فنون التعبير البلاغية.

ولنضربْ مثالاً على ذلك التحليل الفنّي المبنيّ على مبدأ الذوق الـــذي يقود إلى استكناه العبارات واستخلاص ما فيها من روعة البيـــان العـــربي. وذلك من خلال ما أورده الدكتور **مازن المبارك في تحليله** لـــبعض أبيـــات **خليل مطران** وقد تضمّنت صوراً تشبيهية جميلة.. إذْ يقول الشاعر **خليـــل مطران** في وصف الشمس: [من الكامل]

---

[١] ينظر: أسرار البلاغة : ص١٦٦ وما يليهـــا .

مرّتْ خلال غمامتيْن تحدُّراً ** وتقطّرتْ كالدمعة الحمراء

فكأنّ آخر دمعة للكون قد ** مزجتْ بآخر أدمعي لرثائي

وكأنّني آنست يومي زائلاً ** فرأيت في المرآة كيف مسائي

ويقول أستاذنا الدكتور **مازن المبارك** معلّقاً على ما في هذه الأبيات من جماليات الصورة وأبعادها الفنّية: " أليست الدمعة الحمراء التي اختارها مشبهاً به هي الأكثر ملاءمةً لخواطره الكَلْمَى... وهو المريض الذي استولى عليه اليأس من الشفاء، ورأى في أفول الشمس أفول حياته، وفي جنازة أضوائها موكب جنازته، وفي تحدّرها واحمرارها دموعه، فكان رثاؤه للنهار المنصرم رثاءً لنفسه.. إنه التشبيه الذي يربط بين طرفيْه معان من الأفول والبكاء والألم والحمرة، ووجوه من الهزال والحركة واللون. وكل أولئك معان ملائمة لتصوير الفناء الزاحف نحو الشاعر ليطوي حياته كما يطوي الظلام ضوء النهار، وليغيّبه بطء كما تغيّب سجف الظلام حواشي الشمس. وليست الشمس الحمراء التي هي آخر دموع الكون الذي ودّع نهاره سوى مرآة لآخر دمعة من دموع الشاعر يذرفها في رثاء نفسه." [1]

[1] الدكتور مازن المبارك: مقالات في العربية: دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق / ط١ (١٩٩٩م) ص٨٩-٩٠

وقد ساق الدكتور **مازن المبارك** أمثلة متعددة عن التشبيه وغيره من فنون البيان، وبيّن ما تكتنفه مختلف الصور من المعاني الخفيّة، وما فيها من الأسرار الفنية والقيم الذوقية. [1]

وإنما أوردنا هذا النموذج للاقتداء به، لما فيه من العناية بالطابع الفنّي، ومراعاة الجانب الذوقي في دراسة النصوص الأدبية، وتحليل الصور البيانية.

هذا، وإنّ أقوى صور التشبيه هي تلك التي يحذف فيها وجه الشبه وأداته معاً، كما في التشبيه البليغ؛ وأضعف هذه الصور هي التي تذكر فيها كل الأركان؛ وأوسطها ما تُحذف فيه الأداة وحدها أو وجه الشبه وحده..

ومن التشبيه ما هو بعيد وغريبٌ، يُحْتاج فيه إلى إعمال الفكر والخيال وهو الأكثر بلاغة لما فيه من الإيحاء واستدعاء التأمّل. على أن لا يكون ذلك ممّا يشوبه الغموض والخروج عن أساليب العربية وفنونها.. ومنه ما هو قريب مبتذل لا يُحتاج فيه إلى ذلك، وإنما يدرك بسهولة ويسْر، وهو الأقل من حيث البلاغة والتأثير لبساطته وشدة ظهوره..

---

(1) ينظر المرجع السابق: ص٨٩ وما بعدها.

المبحث الثاني : الاستـــعارة

تعريـــف:

هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي (المنقول عنه) والمعنى (المجازي) المستعمل فيه. مع وجود قرينه تمنع من إرادة المعنى الأصلي (أي : المنقول عنه)

وهي تشبيه بليغ حُذف فيه أحدُ طرفيه وأداتُه ووجهُ الشبه. غير أن الاستعارة أبلغ من التشبـــيه، لأنها تتجاوز وظيفة التشبيه المتمثلة في مجرد التقريب بين الأشياء إلى وظيفة أوسع تتمثل في مزج الأشياء بعضها بالبعض، بدعوى اتحادها، إذْ يكون المذكور من الطرفيْن دالاًّ على المحذوف منهما، حتى كأنه هو، من غير أن يُحْتاج إلى أداة تجمعهما. ولذلك كان التشبيه البليغ هو أقرب التشبيهات إلى الاستعارة..

والاستعارة هي أن يحمل اللفظ معنى جديداً يمليه السياق بطريق العدول عن الاستعمال المألوف للّغة، ولكن لا غنى عن وجود علاقة تشابه بين المعنيـــيْن، لأنّ المعنى السياقي الطارئ مستمدّ من المعنى الأصلي المألوف. إذْ لا يمكن تصوّر المعنى الجديد إلاّ باستحضار ذلك المعنى الأصلي والانطلاق منه في بناء الصورة البلاغية الفنية المرتسمة في ذهن المتكلم.

أركان الاستعارة: أركان الاستعارة ثلاثة هي:

١- المستعار منه: المشبه به (وهو أحد الطرفين، وأقواهما وأهمهما في الاستعارة كما في التشبيه)

٢- المستعار له: المشبه (وهو الطرف الآخر الذي يستعار له المعنى)

٣ – المستعار: اللفظ المنقول.

والاستـــعارة هي مجاز علاقته المشابهة– ويرى جمهور البلاغيين أن الاستعارة من المجاز اللغوي، وذلك أننا عندما نقول: (**جاء الأسد**) ونحن نعني رجلاً، فإننا لا ندّعي له صورة الأسد وشكله المحسوس، وإنما ندّعي أنه أسد لاختصاصه بالشجاعة التي هي أخص أوصاف الأسد. والشجاعة متصلة بالأسد في هيأته وصورته المعروفة فجاء ذكرها متصلاً بذكره.

ويرى بعضهم أن الاستعارة مجاز عقلي لا لغوي لأنه – كما في المثال المذكور آنفاً – تـــمّ نقل اسم الأسد وحده، وهذا لا استعارة فيه، لأن نقل الأسماء الأخرى أيضا ليس فيه استعارة. لكن هذه الحجة ليست قوية، لأن الأسد لم يُذكَر اسمُه لذاته؛ وإنما ذُكر لشجاعته. فالراجح إذاً هو رأي الجمهور في كون الاستعارة من المجاز اللغوي.

بين الاستعارة والتشبيه:

الاستعارة أبلغ من التشبيه لأننا في التشبيه نذكر الطرفين معاً؛ وهذا إقرار بتباينها، وأن العلاقة بينهما ما هي إلا علاقة تشابه وتقارب. ومهما كانت درجة قوة هذه العلاقة فإنها لا تصل إلى حد الإتحاد والامتزاج بينهما.

أما الاستعارة فإننا ندّعي فيها الاتحاد والامتزاج بين الطرفين – وكأنهما قد صارا شيئاً واحدا – إذ نستعمل لهما معا لفظا واحدا قد يكون المشبهَ، فتكون الاستعارة مكنيةً؛ وقد يكون المشبهَ به فتكون الاستعارة تصريحيةً.

ولولا وجود القرينة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي (الأصلي) لما عُلم أن المقصود هو غير المذكور في الكلام.

فإذا قلنا مثلاً (رأيت بحرا) ونحن نريد (رجلاً جوادا كريماً سخياً) فقد شبهنا الشخص المرئي بالبحر؛ وصرحنا بالمشبه به، فهي استعارة تصريحية.

ولولا وجود القرينة الحالية- وهي المشاهدة هنا- لما علمنا أن المقصود هو الشخص لا البحر المعروف. كما أن إغفال أداة التشبيه ووجه الشبه هو ابتعاد عن التشبيه إلى ما هو أقوى وأبلغ منه، وكأن المستعمِلَ للاستعارة يتناسى التشبيه ويعْدل عنه إلى الاستعارة..

القرينـــة في الاستعـــارة:

ما دامت الاستعارة نوعا من أنواع المجاز فلا بد لها من قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي، وتدل على المعنى المقصود، بحيث يتجه الكلام نحو المجاز ويبتعد عن الحقيقة. والقرينة في الاستعارة نوعان: (حالية و مقالية):

فالقرينة (الحالية): تفهم من سباق الكلام وما يحيط به. كما في قولنا: (رأيت أسداً في ساحة المعركة) إذ إنّ حال المشاهدة تدلّ على أنّ المرْئـــيَّ في ساحة المعركة ما هو إلاّ شخص شجاع شُبّه بالأسد لقوّته وشجاعته وشدّة بأسه.

والقرينة المقالية: تتجلّى من خلال لفظ معيّن يمنع من إرادة المعنى الأصلي، ويدل على أنّ المعنى المجازي هو المراد. كما قول الشاعر:[من الكامل]

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ** ألفيت كلّ تميمة لا تنفع

فالقرينة هنا هي لفظ (الأظفار) الذي دلّ على أنّ المراد ليس هو المنية؛ وإنما هو ذلك الحيوان المفترس الذي يسلب الحياة ويسبب الهلاك، لأنّ المنية لا أظفار لها في الحقيقة، فما نُسبتْ لها الأظفار إلاّ على سبيل المجاز.

وقد تكون القرينة الحالية متضمَّنةً في عدة معان متصلة بعضها ببعض؛ لتؤلف قرينة واحدة. كقولنا مثلاً:(أقبل البحر يمشي والخير يفيض من كلتا يديه.) فالمشي واليدان يدلاّن على أنّ المقصود رجل كريم، وقد شُبّه بالبحر لكثرة جوده.

أقسام الاستعـــــارة :

وضع البلاغيون عدة تقسيمات للاستعارة بناء على اعتبارات مختلفة؛ وسنقتصر ههنا على أهم هذه الأقسام، ونبيّن ما لها من قيم فنية.

– أولاً: أقسام الاستعارة باعتبار المذكور من الطرفين:

تنقسم الاستعارة باعتبار المذكور من الطرفين إلى استعارة تصريحية واستعارة مكنية.

- **فالاستعارة التصريحية:** هي التي يصرَّح فيها بلفظ المشبه بـــه، ويحـــذف المشبه. ومثالها قول أبي الطيب **المتنبي:** [من الطويل]

وأقبل يمشي في البساط فما درى ** إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقي

فقد شبه الشاعرُ سيفَ الدولة بالبحر تارة، وبالبدر أخرى، وصرح بالمشبه به (البحر والبدر) . والملاحظ في هذا التشبيه أنّ المشبه واحد على الرغم من كون المشبه به متعددا.

– **والاستعارة المكنية**: هي التي يُصرَّح فيها بالمشبه، ويُحْذَف المشبه به لكن يكنى عنه بصفة من صفاته أو شيء من لوازمه، ليبقى أثـــر المـــشبه بـــه في الكلام، وإنْ كان محذوفاً. ومنها قول الشاعر: [من الكامل]

وإذا العناية لاحظتك عيونها ** نَـــمْ فالمخاوف كلُّهنّ أمـــانُ

فقد شبه الشاعرُ العنايةَ بالإنسان، وإن شئنا قلنا: بالأمّ التي تسهر على وليدها من أجل رعايته. لكنه لم يذكر هذا المشبه به (الإنسان أو الأمّ) بل كنى عنه ببعض صفاته عندما ذكر العيون، إذ العناية شيء مجرد معنوي ، ليست العيون من صفته. ومن خلال هذه الكناية عن المحذوف يُدرك المراد.

– **ثانيـــاً: أقسام الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار** :

تنقسم الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار إلى قسمين: أصلية وتبعية.

فالاستعارة الأصلية هي ما كان فيها اللفظ المستعار اسم جنس (أي: نوع) حقيقةً وتأويلاً. ومثالها قولنا: (زارنا قمر سحرنا بكلامه) فلفظ (قمر) اسم للجنس (النوع) وهو اللفظ المستعار للرجل الجميل المحيّا. فالاستعارة هنا أصلية لأنها من الاسم إلى الاسم. وقد دلّ المذكور مباشرة على المقصود.

وأما الاستعارة التبعية فهي ما كان فيها اللفظ المستعار مشتقا من الفعل أو ما كان فيها اللفظ المستعار أداة . ومثالها قوله تعالى: ﴿فلما سكت عن موسى الغضب﴾ فقد استُعير الفعل (سكت) للفعل الأصلي (سكن وهدأ وتوقف) بالتبعية.

ومنه قولنا: (نامت همومي عني). فقد استعرنا أيضاً الفعل (نـــام) للفعل الأصلي (سكن وهـــدأ). فالأفعال المستعارة هي تابعة للأفعال الأخرى الأصلية.

– ثالثـــاً: أقسام الاستعارة باعتبار ما يتصل بها مما يلائم الطرفين:

تنقسم الاستعارة باعتبار ما يتصل بها إلى ثلاثة أقسام هي: الاستعارة المطلقة، والاستعارة المجردة، والاستعارة المرشحة.

١– **فالاستعارة المطْلقة:** هي التي لا يذكر فيها شيء يلائم أحد طرفيها. ومثالها قولنا: (لا تقتل أوقاتك فيما لا ينفعك) فالمستعار له هو التضييع، والمستعار منه هو القتل والجامع بينهما هو سوء الأثر. ولم يذكر في هذه الاستعارة ما يلائم المستعار له أو المستعار منه فهي إذن استعارة مطْلقة لم يتقيّد فيها أحد الطرفيْن بما يضيّق نطاق معناه. وكذلك الاستعارة التي التي تقترن بما يلائم الطرفيْن هي في حكم مطْلقة.ومثالها قول **زهير**:[من الطويل]

لدى أسد شاكي السلاح مقذّف ** له لبـــدٌ أظفاره لم تقلّـــم

فلفظ (أسد) هنا اُستُعير للرجل الشجاع ذي البطش (وهو المشبه). وقد ذكر ما يتصل بالمستعار ويلائمه بقوله (شاكي السلاح).. كمـــا ذكر ما يلائم الأسد (وهو المشبه به) بقوله (له لبدٌ أظفاره لم تقلّـــم). فلمّا اتصلت الاستعارة بما يلائم الطرفيْن كليهما صارت في حكْم المطْلقة، لما هنالك من تعادل بين المشبه والمشبه به، إذ اجتمع التجريد مع الترشيح.

٢- **وأما الاستعارة المجردة**: فهي التي اتصلت بما يلائم المستعار له (المشبه) ومثالها: قولنا: (اشْترِ بالإحسان عرضَك من الأذى والهوان)

والمعنى: (احفظْ بالإحسان عرضَك من الأذى والهوان) فالمستعار له (أي: المشبه) هو الحفظ. والمستعار منه (المشبه به) هو الاشتراء. والجامع بينهما هو الحصول على شيء يلائم المستعار له (أي: المشبه) وهذا الملائم هو الجار والمجرور المتصلان بالحفظ. لأننا نقول: (يحفظه من الأذى) ولا نقول: (يشتري به الأذى). فهذه الاستعارة مجردة.

وسميت كذلك لتجريدها عن المبالغة بوجود بُعْد بين المشبه والمشبه به، وذلك مما يبعد دعوى الاتحاد والامتزاج اللذيْن تتميز بهما الاستعارة.

٣- **وأما الاستعارة المرشحة**: فهي التي يذكر فيها شيء يلائم المستعار منه (أي المشبه به) ومثالها: ﴿ أولائك الذين اشترو الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ﴾ [البقرة/١٦] فقد استعير الشراء للاستبدال والاختيار، ثم فرع عليهما ما يلائم المستعار منه (المشبه به) من الربح والتجارة..

وسميت هذه الاستعارة بالمرشحة لترشيحها وتقويتها بذكر ما يتصل بها مما يلائم المشبه به الذي تمّ التصريح به.

تنـــوّع ألفـــاظ الاستعـــارة :

لا تقتصر الاستعارة على نوع واحد من الألفاظ، بل تشمل كلّ أنواع الكلمات،كالاسم والفعل والنعت والحال وغيرها. فمن استعارة الاسم مثلاً

استعمالنا لفظ (الأسد) للدلالة على الرجل الشجاع. ومن استعارة الفعل استعمالنا لفظ (قطف وجنَى الثمار) للدلالة على تحصيل نتائج العمل.

ومن استعارة النعت نسبـــة (صفة الافتراس إلى الندم) للدلالة على شدة تأثير الندم في صاحبه. ومن استعارة الحال (بيان كيفيـــة الفعل بطريق المجاز) كما في قولنا: (قابلني الرئيس بحرارة)... وهكذا .

بلاغـــة الاستعـــارة :

بالنظر إلى أن الاستعارة في الأصل تشبيه فإنّ بلاغتها تظهر من خلال مقارنتها بالتشبيه. فإذا كان التشبيه يجمع بين الطرفين المتباعدين ويقربهما (أي الطرفين) لما بينهما من وجوه الشبه التي يمكن ابتكارها فإنه لا بد فيه من ذكر هذين المتباعدين كليهما حتى تتجلى جمالية التقارب والالتقاء بينهما. وتبقى بلاغة التشبيه كامنة في مدى قدرة إيجاد الصفات التي تحقق التقارب بين الطرفيْن في أنواع التشبيه على اختلافها.

أما الاستعارة فإنها تتعدى فكرة التقارب التي يذكر فيها الطرفان إلى حد جعلهما شيئا واحدا، وهذا ما يدعوا إلى تناسي تشبيه أحدهما بالآخر إلى المزج بينهما واعتبارهما كالشيء الواحد وذلك بنيابة المذكور منهما عن المحذوف، والاكتفاء بما يحمله من صورة جميلة تغني عنه.

وعلى الرغم من وجود التشبيه في الاستعارة فإنه يكون خفياً لا ينبغي ظهوره كما في التشبيه. وهذا ما جعل البلاغيين يعتبرونها من المجاز باستعمال أحد الطرفين فيما لم يوضع له في الأصل.

كما تظهر بلاغة الاستعارة في جوانب أخرى يمكن أن نوجزها فيما يأتي:

- الجمع بين الطرفين مما يضفي طابع الابتكار الفني على الكلام.
- تقريب المعنى المراد وتقديمه في صورة جميلة.
- الإبانة عن مقاصد المتكلم وأغراضه، والتعبير عن أحاسيسه بطريقة فنية.
- شدة التأثير وحسن الوقع في نفس المخاطب.
- توسيع مجال التعبير والتصوير وجمال صياغة الأفكار والإفصاح عنها.
- التنوع البياني باستعمال اللفظ الواحد في مواضع متعددة.
- الإيحاء الفنّي بالمعاني الخفية بوساطة التشبيه الكامن في المعنى الاستعاري.
- تأكيد المعنى والمبالغة فيه لإضفاء طابع جمالي يزيد في تثبـــيته وترسيخه.
- الإيجاز في التعبير والقدرة على تضمين المعاني الكثيرة في قليل من الألفاظ.
- إثارة الخيال باستدعاء الصور الجميلة والتعابير الفنية المستحسنة.
- قوة التشخيص وتجسيد المعاني المجردة في صور حسية.

إنّ الاستعارة في حقيقتها تعبير فنّي نابع من حسّ إبداعي، وليست مجموعة من القوانين والقواعد الثابتة التي لا ينبغي تجاوزها. لكن هذا لا يعني أنّ ما توصّل إليه البلاغيون وما استخلصوه من الأحكام والضوابط لا قيمة له، بل إنّ ذلك عمل بالغ الأهميـــة لأنهم استقـــوه من نصوص القرآن الكريم وممّا أنتجته مخيلات الأدباء والشعراء.. غير أنّهم قد بالغوا أحياناً – وذلك بدافع تأثرهم بالمنطق- في الإكثار من التقسيمات والتفريعات التي

خطّتْ حدوداً للفنّ ووضعتْ قيوداً للإبداع اعترضت سبيله وأخّرتْ مسيرته في بعض الأحيان..

ولا نكون مغالين إذا قلنا إنّه بالإمكان مصادفة الكثير من ألوان التعبير الفنّي الإبداعي- الاستعاري أو غيره – التي تخرج عن النهج الذي رسمه البلاغيون، من غير أن يخـــلّ ذلك بقوام اللغة أو يخرج عن سنن اللغة وجمالياتها.. وذلك على شاكلة ما نجده في شعر أبي تمام من القدماء، وما نجده لدى بعض الشعراء والكُتّاب المعاصرين. غير أنّنا لا نعني بعض ما نراه سائداً في زماننا هذا من اللغة (الحداثية) الهزيلة، والكلام المبتذل الذي يُعبَث فيه باللغة، وينـــزل بمستواها الأدبي وطابعها الجمالي وسحرها الفني وشموخها القدسيّ، ويحيلها إلى ألغاز وطلاسم لا حياة فيها ولا روح ولا أصالة ولا وضوح..

ونختم الكلام عن الاستعارة ههنا بنموذج من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضّاد، إذْ يقول: " لا تستضيئوا بنار المشركين. " وقد حلّله وعلّق عليه أستاذنا الدكتور مازن المبارك مبيّناً ما له من أثر بلاغي وقيمة فنـــيّة، قائلاً: " ولو رأيت أفواج الغرباء عن أمّتـــي يفدون كل ساعة ويحملون كلّ اسم؛ فهذا تاجر، وهذا أجير، وهذا رجل دين، وهذا خبير. وسمعت منهم ما يدلّ على خطرهم، وأردت التحذير منهم، وعدم الركون إليهم والاطمئنان إلى أفكارهم، أكنت أصل في اللغة المباشرة إلى ما وصلت إليه بالاستعارة على لسان أفصح العرب وأصدقهم

وأنصحهم صلى الله عليه وسلم حين قال: " لا تستضيئوا بنار المشركين. " يعني لا تهتدوا بهديهم، ولا تتخذوا منهم مستشارين لكم، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يعبّر عن الرأي بالنور كما هو شائع مألوف، بل جعله ناراً، لأنّ النور يضيء ويهدي ولا يحرق؛ أمّا الرأي المدمّر فنار تحرق. لقد جعل الرأي الذي ينصحنا به المشرك ناراً، ووحد بينهما حتى كان ذكْر احدهما مجزئاً عن ذكْر الآخر، وقوّى معنى النار بجعلها ذات ضوء، وترك لك أن تتخيّل ما شئت من أوجه الشبه بين الرأي المدمّر القاتل ينصحك به عدوّ في ثياب صديق، وبين النار التي طلبت ضياءها لتهتدي به، فأصلتك لظاها لتحترق.." [1]

فما أجملها من استعارة، وما أجمله من تحليل لها وبيان لروعة ما بين ثناياها من بديع الصورة وعمق المعنى وبراعة الاختيار وجمال الصياغة.

---

[1] مقالات في العربية: ص٩٩-١٠٠

المبحث الثالـث : المجـــاز

تعريـــــف:

المجاز هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له في الأصل مع وجود قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي الذي وضع له اللفظ.

فالمجاز هو ما يتم فيه تخطّي حقيقة الكلام والعدول عنها إلى غيرها. وأمّا الحقيقة هي استعمال الكلام لما وضع له في الأصل، وهي أقسام (حقيقـــة لغوية وحقيقة شرعية وحقيقة عرفية).

- **فالحقيقة اللغوية:** تتمثل في الألفاظ الدالة على معانيها الأصلية الموضوعة لها في اللغة. كلفظ: كتاب، ومعهد، وقلم، وغير ذلك.

- **والحقيقة الشرعية:** قسمان: قسم لا يفيد مدحا ولا ذمّا كالصلاة والصوم والزكاة.. فهذه ألفاظ شرعية تدلّ على أسماء العبادات وحسب..

وقســـم يفيد المدح أو الذمّ كلفظ مؤمن ولفظ كافر.. فهذه ألفاظ شرعية ويُفْهَم من مجرد التلفظ بها معنى المدح للمؤمن ومعنى الذم للكافر..

- **والحقيقة العرفية:** هي ما تمّ التعارف عليه من اصطلاحات في بيئة معيّنة بين فئة من النّاس. وهي تختلف باختلاف البيئة وعادات المجتمع وتقاليده.

وأمّا المجـــاز: فهو أقوى وأجمل وأبلغ من الحقيقة، ولا يُلجأ إليه إلاّ لغرض في نفس المتكلّم على سبيل المبالغة في التعبير وتقديم الكلام في أبهى صورة. وينقسم إلى مجاز عقلي ومجاز لغوي.

أنـــواع المجـــاز:

أولاً: المجاز العقلي: (الإسنادي أو الحُكْمي): هو إسناد الفعل أو ما في معناه (كالمشتقّات) إلى غير ما هو له، لعلاقة بينهما، مع وجود قرينة (لفظية أو معنوية) تمنع من إدارة الإسناد الحقيقي. ويتمثّل هذا النوع من المجاز في العلاقات الآتية:

علاقات المجـــاز العقلـــي:

تتصل علاقات المجاز العقلي بالإسناد، وتكون على أنواع متعددة، أهمها:إسناد الفعل إلى سببه، أو إسناده إلى زمانه، أو إلى مكانه، أو إسناد ما يبنى للفاعل إلى المفعول، أو إسناد ما بُنِي للمفعول إلى الفاعل، أو إسناد ما بُنِي للفاعل إلى المصدر.

- فمن أمثلة إسناد الفعل إلى زمان، قول **أبي البقاء الرندي**:[من البسيط]

هي الأمور كما شاهدتها دول ** من سرّه زمن ساءته أزمان

فقد أسند السرور والإساءة إلى الزمن ، وليس ذلك من الحقيقة ، لأنّ الزمن في الأصل لا يَسُرّ أو يسيء. وإنما ثمة أمور أخرى تتسبب في المسرّة والإساءة.

- ومن إسناد الفعل إلى مكانه، قوله تعالى:﴿وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم﴾ [الأنعام/٦] فقد أُسنِدَ الجري إلى الأنهار وهي أماكن للميّاه وليست الأنهار تجري بل إنّ الميّاه هي الجاريّة فيها.

- ومن أمثلة إسناد الفعل إلى سببه قول الشّاعر : [من البسيط]

إنيّ لمن معشر أفنى أوائلَهم ** قيلُ الكماة ألا أين المحامونا

فقد أسند الإفناء إلى القيل (أي القول) على أنه سبب الإفناء (أي أنّ فعل الإفناء قد أُسْنِدَ إلى القيل، والحقيقة أنّ هذا القيل كان سببا في إفنائهم).

- ومن أمثلة الإسناد إلى المصدر قول الشّاعر: [من الطويل]

سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم ** وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

فقد أسند الجدّ إلى (الاجتهاد) وكأنّه هو الفاعل، بينما الحقيقة هي أنّ الفاعل هو الجادّ (المجتهد) فحذف الفاعل الأصلي (الجادّ) وأسند الفعل إلى المصدر (الجِـــدّ).

- ومن أمثلة إســـناد ما يبنى للمفعول إلى الفاعـــل، قوله تعالى :﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا.﴾ [الإسراء/٤٥] أي : حجابًا ساتـــرًا.

وهذا النوع من المجاز مجال رحب تظهر فيه بلاغة المتكلّم شاعرا كان أم كاتبا، ولا يمكن أن يخلو منه التعبير الفنّي البديع والكلام الفصيح البليغ.

ثانـــياً: المجـــاز اللغـــوي: يتمثل المجاز اللغوي في المجاز المرسل المفرد والمركب بأنواعه وعلاقاته. كما سنبـــينه فيما يأتي:

المجـــاز المرســـل:

المجاز المرسل أربعة أقسام: مجاز مفرد مرسل، ومجاز مفرد بالاستعارة، وهذان يختصّان بالكلمة. ومجاز مركب مرسل، ومجاز مركب بالاستعارة، وهذان يختصّان بالكلام.

١- المجاز المفرد المرسل:

سمي هذا الضرب من المجاز مرسلا لأنه لم يقيّد بعلاقة واحدة مخصوصة وإنّما تتنوع علاقاته بحسب استعمال الكلمة، وهو مطْلق في مقابل الاستعارة المقيّدة بالاشتراك والاتحاد المتضمَّن في علاقة المشابهة .

والمجاز المفرد المرسل هو استعمال الكلمة في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة، مع وجود قرينة تدلّ على عدم إرادة هذا المعنى الأصلي.

علاقات المجـاز المرسل:

علاقات المجاز المرسل كثيرة. ويتمّ تحديدها بناء على ما هو مذكور في الكلام لا على ما هو مقصود، وأهمّ هذه العلاقات هي:

- **السببيّة**: وهي تسمية الشيء المسبب باسم سببه، ويكون المراد هو المسبّب لا السبب كقولنا: لك عليَّ أيادٍ كثيرة (أي نِعَم كثيرة) وقد ذكرنا الأيادي التي هي السبب في النّعم. وما دمنا قد ذكرنا السبب فالعلاقة إذاً هي السببية.

- **المسبّبية** : وهي تسمية السبب باسم مسبّبه. والمراد هو السبب لا المسبّب كقوله تعالى:﴿ وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها.﴾ [الجاثية/٥] أي: ما أنزل من مطر يسبب الرزق. وما دمنا قد ذكرنا المسبب فالعلاقة إذاً هي المسببية.

- **الجزئيــة**: هي تسمية الشيء باسم جزئه، والمراد هو الكلّ لا الجزء كقولنا: أرسل الحكّام عيونهم لتقصّي الأخبار. فالمراد بالعيون هم الجواسيس. وما دمنا قد ذكرنا الجزء فالعلاقة إذاً هي الجزئيــة.

- **الكليّــة**: وهي تسمية الجزء باسم الكلّ، والمراد هو الجزء لا الكلّ. ومثاله قول الله تعالى: ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين.﴾ [البقرة/١٩] فهم قد جعلوا أنامل أصابعهم التي تمثّل جزءًا منها، لكنه ذكر الكلّ (الأصابع). وما دمنا قد ذكرنا الكل فالعلاقة إذاً هي الكلّــيّة.

- **اعتبار ما كان**: وهو ذكر الشيء الحاضر بما قد كان عليه في الماضي. كقوله تعالى: ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم.﴾ [النساء/٢] أي الذين كانوا يتامى في الماضي وهو صغار، وقد رشدوا واشتدّوا اليوم. وما دمنا قد ذكرنا ما كانوا عليه في الماضي فالعلاقة إذاً هي اعتبار ما كــان.

- **اعتبار ما سيكون**: وهو ذكر الشيء الحاضر بما سيكون عليه في المستقبل ومثاله قوله تعالى :﴿ إنّي أراني أعصر خمرًا . ﴾ [يوسف/٣٦] أي عنبا معصورا سيكون خمرا في المستقبل. وما دمنا قد ذكرنا ما سيكون عليه العنب في المستقبل فالعلاقة إذاً هي اعتبار ما سيكون.

- **الحالّيــــة**: وهي ذكر الشيء الحالّ بمكانه ومحلّه، والمراد هو المحلّ (أي: المكان) لكن المذكور هو الشيء الذي حلّ به. و مثاله قوله تعالى: ﴿ وأمّا الذين ابيضّتْ وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون.﴾ أي في جنّة الله

التي فيها رحمته، فالمذكور هو الرحمة الحالّة في الجنّة أمّا المقصود فهو الجنّة التي تحلّ بها الرّحمة. وما دمنا قد ذكرنا الرحمة التي تحلّ وتوجد في الجنـــة فالعلاقة إذاً هي الحالّـــيّة (من الحلول بالمكان وليس من الحال التي بمعنى الهيئة أو الصفة).

- **المحلّـــيّة (المكانيـــة)**: وهي ذكر المحلّ والمكان بما يحلّ فيه، والمراد هو الشيء الحالّ (الذي يحلّ) فيه، ومثاله قوله تعالى:﴿ فليدع ناديه.﴾ [العلق/١٧] المقصود هم أهل هذا النّادي والمجلس. وما دمنا قد ذكرنا النادي وهو المكان الذي يُـــجْتَمَع فيه فالعلاقة إذاً هي المحلّيّة أو المكانية (من المحلّ بمعنى المكان).

- **الآليـــة**: وهي تسمية الشيء باسم آلته، والمقصود هو ما يصدر عن هذه الآلية. ومثاله قوله تعالى: ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين.﴾ أي اجعل لي ذِكْرا حسنا، و قد ذكرت آلة الذّكْر الحسَن التي هيّ اللسان. فالعلاقة إذاً هي الآليـــة.

إلى غير ذلك من العلاقات الأخرى (كاللازمية والملزومية والتقييد والعموم والخصوص والمجاورة والبدلية والمبدلية ...) وهي كثيرة اختلف البلاغيون في تحديدها. وكلّها تُدرك على أساس ما هو مذكور كما بيّـــنّا..

٢ – **المجاز المركب المرسل:**

المجاز المركب هو التركيب المستعمل في غير الحقيقة (أي أنّه مستعمل استعمالا مجازيّا) ويكون ذلك مثلا بنقل الجملة من الخبرية إلى الإنشائية كما في قول الشاعر: [من الكامل]

ذهب الشّباب فماله من عودة ** وأتى المشيب فأين منه المهرب

فالشاعر لا يريد الإخبار عن ذهاب الشّباب حقيقة، وإنّما أراد إظهار حسرته وأساه متنقلا من الخبر (الظاهر غير المراد) إلى الإنشاء (الخفيّ المراد) (فكأنّه قال: آه مما أصابني من الكبر) فالحقيقة هنا إنشاء والمجاز هو الخبر.

– و قد يكون بنقل مَثَلٍ من أجل وصف حالة معينة، ومثال ذلك قول الشّاعر:[من الوافر]

ومَن أخَذ البلاد بدون حرب ** يهون عليه تسليم البلاد

فالمراد ليس استيلاء القائد على البلاد بدون قتال وتسليمها بدون دفاع عنها. و إنّما المراد أنّ الذي يرث ثروة وافرة لم يتعب في تحصيلها يبعثرها غير آسف عليها، وهذا استعمال مجازي. فالمعنى الحقيقي هو ذلك المعنى المقصود الذي لم يصرَّحْ به، والمجاز هو هذا المعنى الظاهر بما يتبدّى منه.

فائـــدة المجاز وقيمته الفنّـــيّة:

المجاز من فنون التعبير والإبانة عن المعاني بغير ما وضـــع لهـــا مـــن الألفاظ، ولكنه مع ذلك لا يبتعد عن المعنى الأصلي (الحقيقي) إذْ يبقـــى موحياً به من خلال ما هو مذكور في الكلام.

والمجاز أسلوب من أساليب الاتساع في اللغة والتفـــنّن في تنويـــع التعبير اللغوي. وهو إلى ذلك يتصف بالإيجاز في التعبير والقوة في الدلالـــة، يظهر لك ذلك في المجاز العقلي، حين تنسب الفعل إلى غير فاعله الحقيقـــي إبرازاً لشأن ما يتصل به من سبب أو زمان أو مكان، كما هو الـــشأن في المجاز ذي العلاقة السببية أو الزمانية أو المكانية...

والتعبير المجازي على سعته وإيجازه من أجمل أساليب المبالغة التي تبلغ كمالها دون إشعارك بأنها مبالغة.. فإذا بالغت بلطف في وصف العابد بالقيام نسبت القيام إلى ليله، وجعلته شاملاً للزمان الذي قام فيـــه، وكـــذلك إذا أعجبك صومه ومداومته عليه نسبت الصوم إلى نهاره لا إليه، فقلت: (ليله قائم ونهاره صائم).

وإذا أردت أن تصف إنساناً بالعيّ قلت مع الشاعر:[من الـــوافر]

كفى بالمرء عيْباً أن تراه ** له وجـــه وليس له لسان

وأنت لم تُرِد اللسان حقيقةً، وإنما أردت الإفصاح والإبانة فتجاوزت هذيْن المعنـــييْن إلى اللسان الذي هو آلتهما؛ ومن فقَدَ الآلة فأوْلى به أن يفقد ما يصدر عنها. وفي كلّ ذلك ضربٌ من المبالغة محبَّبٌ، ولو عُدِل عنـــه إلى التعبير المباشر، كأن يقال: (اللسان هو البيان) لبدت المبالغة وضاع جمال الأثـــر.

إنّ المجاز حين يعبّر عن المعاني بغير الألفاظ الموضوعة لها أصلاً إنّما يمـــدّ اللغة بثروة لفظية تتجاوز المعجم اللغوي الوضعي، وتتجاوز الترادف

اللغوي، وهَيّئ لأصحاب اللغة ما لم تهَيّـــئه لهم اللغة بأصل وضعها، وتـــتيح لهم أن يعبّروا عن الشيء بغير لفظه. كما عبّروا مثلاً عن (المطر) بـــ (الرزق). وليس الرزق من المعاني اللغوية للمطر، ولا من مرادفات المطر. ولكنه أبرز ما يتسبّب عن المطر، لذلك قالوا: أمطرت السماء رزقاً. وقد قال تعال﴿ وينــــزّل لكم من السماء رزقاً ﴾ [غافر/١٣]

على أنّ المجاز مع ذلك كلّه لا يتركك تضلّ بين المعاني بل يأتيك بالقرائن التي ترشدك إلى المعنى وتوجهك نحو المراد،، إذْ لا بدّ فيه من قرينة عقلية أو لفظية تنـــبّهك على أنه مجاز. بل إنّ في التعبير المجازي رمزاً يشيـــر إلى المعنى الحقيقي الكامن وراءه. قال تعالى: ﴿ إن نّشأ ننـــزّل عليهم من السماء آيةً فظلّت أعناقهم لها خاضعين ﴾ [الشعراء/٤]. فعبّر بالأعناق عن المعاندين أو عن رؤسائهم وأكابرهم، ولكنّ لِذِكْرِ الأعناق في الآية من الأثر ما ليس لغيرها- أيّاً ما كان غيرها – لأنّ خضوع الأعناق – وهو المعنى المجازي – يعني خضوع أصحاب الأعناق – وهو المعنى الحقيقي – وهذا رمز يدل على الخنوع والذّلّ والاستكانة والقبول والتسليم بكل إذعان.

المبحث الرابع : الكنـــاية

تعريـــف:

الكناية هي إطلاق لفظ وإرادة معنىً آخر مقصود غير معناه الأصلي، مع جواز إرادة هذا المعنى الأصلي الذي يدل عليه اللفظ المذكور.

فالكناية على هذا: هي أن يريد المتكلم التعبير عن معنىً معين، ولكنه لا يعبر عنه باللفظ الظاهر الموضوع له مباشرة، وإنما يعبر عنه بذكر شيء آخر ملازم للمعنى الخفي الذي يقصده، بحيث يُفهَم مراده من خلال هذه الملازمة بين ما هو ظاهر غير مقصود، وما هو خفيّ لكنه مقصود. فقول **الخنساء** مثلاً في أخيها صخر: [من المتقارب]

رفيع العماد طويل النجاد ** كثير الرماد إذا ما شتا

قد ذكرتْ فيه: رفعة عماد خيمته، وهي تقصد بذلك رفعة مكانته بين قومه ؛ وذكرتْ فيه طول النجاد (أي: حمائل السيف) وهي تقصد طول قامة صخر ؛ وذكرتْ كثرة الرماد في بيته وهي تقصد اتصافه بكثرة الجود والكرم..

فنحن ندرك أنّ ما ذكرتْه الشاعرة غير ما تقصده، لكن ثمة ملازمة بينهما تدلنا على المقصود من الكلام، ومن خلال هذه الملازمة نفهم مراد الشاعرة. وليس هناك من يمنع من قصد حقيقة المعنى بالأصل الذي يدل عليه اللفظ ؛ ولكن ذلك يبتعد بالكلام عن التعبير الفنّي الفصيح الذي يتمّ فيه العدول عن التصريح إلى المعنى الإيحائي الجميل الذي يكون له حُسْن وقع في السمع وقوة أثر في النفس، وهذا لا يكون بغير الكناية.

وتختلف الكناية عن المجاز بأنواعه، في أن الكناية يجوز أن يراد بلفظها معناه الأصلي الذي وُضعَ له اللفظ في اللغة، أما المجاز فلا يجوز فيه ذلك لأنه يستعمل من أجل أن يُتجاوز فيه المعنى الأصلي إلى المعنى المجازي الفـــنّي.

أقســـام الكنايـــة:

تنقسم الكناية بحسب المعنى الذي تشير إليه ثلاثة أقسام هي: الكناية عن صفة، والكناية عن موصوف، والكناية عن نسبة.

أولاً: الكناية عن صفة :

هي التي يراد بها التعبير عن صفة معينة في الموصوف، لكن ذلك يكون بذكر صفة أخرى ملازمة لها بحيث تفهم من خلالها.. ومثال ذلك ما ذكرناه في البيت السابق من قول **الخنساء** في أخيها صخر: [من المتقارب]

رفيع العماد طويل النجاد ** كثير الرماد إذا ما شتا

فالصفة الأولى المذكورة هي: رفعة العماد والصفة المكنى عنها هي رفعة المكانة ؛ والصفة الثانية المذكورة هي طول النجاد والصفة المقصودة المكنى عنها هي طول القامة ؛ والصفة الثالثة المذكورة هي كثرة الرماد والصفة المقصودة المكنى عنها هي كثرة الكرم والجود.. فههنا لدينا ثلاث صفات مذكورة كنَّتْ الشاعرة بها عن ثلاث صفات مقصودة.

وتنقسم الكناية عن صفة إلى قسمين: كناية قريبة وأخرى بعيدة.

١- **فالكناية القريبة:** هي التي يكون التعبير فيها عن الصفة المقصودة بدون وساطة،كما في صدْر البيت السابق **للخنساء**:

رفيع العماد طويل النجاد ** ....

وهذه الكناية القريبة قد تكون ظاهرة واضحة معلومة فيسهل إدراكها والوصول إلى ما يلازمها.. وقد تكون خفية غير معلومة فيصعب إدراكها والوصول إلى ما يلازمها. وهذا يُدْرَك من ظاهر الكلام ومدى وضوح المعنى المراد منه أو خفائه.

٢- **والكناية البعيدة:** هي التي يكون التعبير فيها عن الصفة المقصودة باستعمال صفـــة أخرى أو أكثر وساطةً لذلك، ومثالها عجُـــز بيت **الخنساء** السابق:

.... ** كثير الرماد إذا ماشتا

فقولها كثير الرماد كناية عن الكريم السخي المضياف. وقد تم التعبير عن ذلك باستعمال عدة صفات أخرى وسائطَ لذلك وهذه الوسائط هي: (صفة كثرة إشعال النار، ثم صفة الإحراق للحطب، ثم صفة كثرة الطبخ والطهي، ثم صفة كثرة الضيوف وتوافدهم عليه). وبعد هذه الصفات (الوسائط) ، انتقالا من صفة إلى أخرى ، يكون الوصول إلى الصفة المقصودة (المكنّ عنها) ألا وهي صفة الجود والكرم والسخاء. فالتوصّل إلى المعنى الكنائي النهائي لم يكن إلاّ بالانتقال من صفة إلى أخرى، بحيث تفضي كلّ صفة إلى ما بعدها.

ثانيــاً: الكناية عن موصوف:

هي تلك التي يراد بها التعبير عن موصوف معين، ولكن بذكْر موصوف آخر ملازم له يفهم من خلاله. ومثال ذلك قول الشاعر: [من الطويل]

ولما شربناها ودبّ دبيبها ** إلى موطن الأسرار قلت لها قِفي

فالموصوف المذكور هو موطن الأسرار والموصوف المقصود المكنى عنه هو القلب، على اعتبار أنّ القلب هو موطن الأسرار وحافظها..

وتنقسم الكناية عن موصوف إلى قسمين هما:

١- ما يكون فيه الموصوف المكنى عنه دالا على معنى واحد كما في البيت السابق: فلما شربناها ... (البيت) . إذْ كنّى عن القلب (وهو موصوف واحد مكنّى عنه) بموطن الأسرار (وهو موصوف واحد مكنّى به)؛ أي أنّه عبّر عن الواحد بواحد.

٢- وما يكون فيه الموصوف المكنى عنه دالا على أكثر من معنى، كما في قول الشاعر: [من الطويل]

فأتبعها أخرى فأضللت نصلها ** بحيث يكون اللب والرعب والحقد

فقوله (اللب والرعب والحقد) ثلاثة معان كنىّ بها عن موصوف واحد هو (القلب) إذ اللبّ من الإنسان هو القلب، والرعب محلّه القلب، والحقد كذلك محله القلب. فهذه الثلاثة كلها ملازمة للقلب دالة عليه. أي أنّه عبّر عن الواحد بأكثر من واحد.

ثالثـــاً: الكناية عن نسبة :

هي التي يراد بها التعبير عن معنى معين عن طريق نسبة شيء إلى آخر (إثباتا أو نفيا) فيكون المعنى المكنىّ عنه إذاً مقصودا من خلال نسبة صفة ما إلى شيء معين يلازم الموصوف. وبعبارة أخرى نقول: إن الكناية عن نسبة هي نسبة الصفة إلى الموصوف بطريقة غير مباشرة، أي: نسبة الصفة إلى شيء ملازم للموصوف لا إلى الموصوف ذاته. ومثال ذلك قول الشاعر مادحا: [من الكامل]

إن السماحة والمروءة والندى ** في قبةٍ ضربت على ابن الحشرج

فقد أراد الشاعر وصف ممدوحه (أي: الموصوف) (بالسماحة والمروءة والندى) لكنه لم ينسب هذه الصفات مباشرة إلى الموصوف وإنما نسبها إلى القبة المضروبة عليه ؛ وما دامت هذه القبة خاصة به (أي: بالممدوح) وذكْرُها يعني ذكر الممدوح، فإنها ملازمة له. ومادامت كذلك فإن نسبة الصفات لها هي في الحقيقة نسبة للموصوف. وهكذا فقد كنّى الشاعر عن نسبة هذه الصفات للموصوف بإثباتها لما يلازمه، وهو القبة الخاصة به المضروبة عليه.

أقسام الكناية باعتبار الوسائط والسياق:

تنقسم الكناية باعتبار الوسائط بين المعنى الأصلي والمعنى الكنائي إلى أربعة أقسام هي: التعريض والتلويح والرمز والإيماء (أي: الإشارة) وسنقوم بتوضيحها فيما يأتي:

١- **التعريض**: هو عدم التصريح بالمعنى المراد، أي أن المعنى المفهوم غير مصرح به، ويدرَك ذلك من خلال السياق.

ومثاله قول الشاعر: [من الطويل]

إذا العرض لم يُرزَق خلاصا من الأذى ** فلا الحمدُ مكسوبا ولا المالُ باقيا

فهذا تعريض بوجوب خلاص العرض من الأذى لكسب الحمد وبقاء المال. والسياق هو الذي يبين هذا المعنى الذي أراده الشاعر وكنّ عنه. فقد كنّ عن الإثبات بالنفي.

٢- **التلويح**: هو الكناية - من بعيد - عن المعنى المقصود باستعمال عدة وسائط قبل الوصول إلى هذا المعنى مع ظهور ملازمة بين المكنّ به والمكنّ عنه. ومثاله قول الشاعر: [من الوافر]

وما يك فـيَّ من عيب فإنّي ** جبان الكلب مهزول الفصيل [1]

فالمعنى المقصود هو الكرم وقد كنّ عنه، من بعيد، ملوّحا بمعان أخرى جعلها وسائط للوصول إلى ما أراد من المعنى.. فالوساطة الأولى هي جبْن الكلب، والثانية هي هزال الفصيل وهما تدلاّن على أنه كريم.. ذلك أن كلبه من كثرة اعتياده على قدوم الضيوف صار جبانا لا ينبح فيهم ولا يعترض طريقهم، وفصيله من كثرة التضحية بالنوق لأضيافه صار هزيلا، لأنه لم يعُـدْ يجد ناقةً ترضعه، وقد أُكلَتْ كل النوق .

[1] الفصيل: هو ولد الناقة.

٣- **الرمــز**: هو الكناية عن المعنى المقصود من قريب، وذلك باستعمال وسائط قليلة (واسطة واحدة) للوصول إلى المعنى المقصود، مع خفاء الملازمة بين المكنىّ به والمكنىّ عنه. ومثاله قولهم: (فلان عريض الوسادة) رمزا إلى غبائه وكسله وبلادته ؛ فههنا وساطة واحدة هي عرض الوسادة ، وقد استُعملتْ للوصول إلى المعنى المقصود.. ومنه أيضا قولهم: (فلان غليظ الكبد) رمزا إلى الشدة والقسوة ؛ فههنا كذلك وساطة واحدة هي غلظ الكبد، وقد استُعملتْ للوصول إلى المعنى المقصود وهو الشدة والقسوة. فالوساطة إذاً هي التي ترمــز إلى المعنى المراد.

٤- **الإيماء (أو الإشارة)**: يراد به الكناية عن المعنى المقصود بوسائط قليلة (وساطة واحدة) مع وضوح الملازمة بين المعنى المكنىّ به والمعنى المكنىّ عنه، دون وجود تعريض (وهو تعريض الإشارة عن بعد) ومثال الإيماء قول **البحتري** مادحا: [من الكامل]

أوَ ما رأيت المجد ألقى رحله ** في آل طلحة ثم لم يتحوّل

فقد أوْمأ الشاعر وأشار إلى معنى مقصود، وهو وصف آل طلحة بالمجد الدائم، وذلك باستعمال وساطة واحدة هي إلقاء المجد رحْلَه فيهم ثم لم يتحول عنهم. وهذا إيماء من الشاعر بأنهم أهل للمجد الدائم.

تـــنـــبـــيهـــات:

- لا تعارض بين أقسام الكناية الثلاثة بحسب المعنى (الكناية عن صفة والكناية عن موصوف والكناية عن نسبة) وبين أقسامها الأربعة بحسب

الوسائط بين المعنيين (التعريض والتلويح والرمز والإيماء) فقد تجتمع هذه الأقسام مع تلك.

- لابد في الكناية من وجود معنيين متلازمين أحدهما أصلي ظاهر وهو غير مقصود، وثانيهما ملازم له خفي ولكنه هو المقصود.

- على الرغم من أنه يجوز أن يكون المعنى الأصلي الظاهر هو المقصود من الكلام وأنه يصح لغويا، فإنّ ذلك - إنْ وقع - خرج الكلام عن إطار الكناية.. فإذا أريد التعبير الكنائي وجب أن يكون المعنى الخفـــيُّ الملازمُ للمعنى الأصلي هو المقصود من الكلام، لأنّ جمال الكناية متضمن فيه.

- يعتبر المعنى الخفيُّ المقصودُ الملازمُ للمعنى الأصلي المذكورِ بمنـــزلة الدليل على أنّ مراد المتكلم هو ذلك المعنى غير الظاهر، وليس غيره. إذْ لولا وجود هذا المعنى الخفيّ لما كان ثمة كناية.

بلاغـــة الكنايـــة وقيمتها الفنّـــية:

تتجلّى بلاغة الكلام- في الكناية بأنواعها - من خلال ما يحوزه التعبير الكنائي من المزايا والقيم التعبيرية التي تجعله موضع القبول والاستحسان. ويمكن أن نُجمِلَ مظاهر بلاغة الكناية وقيمتها الفنّية فيما يأتي:

- الكناية وجه من وجوه البلاغة العربية، وهي أحد الأساليب التصويرية الفنية التي تمنح الكلام رونقا وتجعله يقع في ذهن المخاطب موقعا حسنا.

- والكناية أسلوب فني من الأساليب العربية المستحسنة لما فيها من الذوق والإبذاع في أساليب التعبير.

- وهي أبلغ من الحقيقة والتصريح إذ يتجه الذهن إلى المعنى المكَنّ عنه دون المعنى الأصلي، ويسبح الفكْر في فضاءات الخيال الفنّي الخلاّق.

- الانتقال من المعنى الملزوم (الأصلي) إلى المعنى اللازم (المقصود) هو بمنـــزلة الإدّعاء الذي يؤيده الدليل (أي: ما يسمّى بالدعوى والبيّنة). فالدعوى هي المعنى الكنائي الخفيّ المقصود، والبيّنـــة هي المعنى الأصلي الظاهر. لأنّ الادّعاء يكون خفياً حتى يبـــيّنه الدليل الظاهر ويثبته.

- والكناية خطاب الأذكياء، إذْ يتجنب فيها المتكلم التصريح بما لا يريد التصريح به لغرض من الأغراض في نفسه، كالاحترام للمخاطب أو توجيه الخطاب لبعض السامعين دون غيرهم، أو تقريع خصمه أو غير ذلك مماّ لا يكون فيه التصريح مناسباً للمقام.

- تنـــمّ الكناية عن عمق التفكير لدى المتكلم، وما يتميز به من لطافة التعبير وجمال التصوير.

- يتميز الكلام في الكناية بحسْن اختيار اللفظ والبراعة في الصياغة، وتتجلّى جودته في إصابة المعنى عن طريق الإيحاء بغير ألفاظه الأصلية.

- التعبير بالكناية أوقع في القلب وأرسخ في الذهن، لما جبلتْ عليه النفس من البحث في خفايا الكلام وأسرار الخطاب.

- في الكناية يتم اطّراح الألفاظ المستهجنة غير اللاّئقة، ويُلجأ إلى استعمال الألفاظ المستحسنة الرائقة، المؤدية للمعاني المقصودة بطريقة فنّـــية شائقة.

- الكناية من طرق الإيجاز في الكلام باستعمال ما قلّ من الألفاظ والتراكيب لما كثُر من المعاني والدلالات فقد يحتمل المعنى الخفيّ عدة تأويلات كنائية متصلة بعضها بالبعض، وذلك انطلاقاً من عبارة أصلية واحدة.

- بالكناية يمكن وصف ما هو قبيح وحقير بالأوصاف الجميلة المهذبة، وذلك عن طريق الإشارة إلى ما تحمله الألفاظ من المعاني السامية التي يراد التعبير عنها.

- الكناية تزيد المعنى إثباتا وتوكيدا من خلال ذكر الصفة أو الموصوف مع ما يلازمه من دليل على المعنى المقصود. فالمعنى الأصلي الظاهر توكيد للمعنى المجازي الخفيّ المقصود.

- إنّ الكناية هي التعبير غير المباشر عن المعاني المقصودة لما في ذلك من قوة الدلالة على المعنى وإيصاله في أحسن صورة.

- كلّما كثرت الوسائط في الكناية كان ذلك أدْعى إلى التأمّل وإعمال الفكْر من أجل التوصّل إلى المعنى المراد.

- الكناية وسيلة فنّـــيّة لتهذيب الكلام وتزيين أشكال الخطاب.

الباب الثالث

فنـــون البديـع

فنون البديع

التعريف بفنون البديع:

فنون البديع هي تلك الأشكال التعبيرية التي يتم اختيارها انطلاقاً ممّا لها من أهمّية ودور في زيادة بلاغة الكلام، وجعله يزيد ارتقاء وجودة فنّية. فهذه الفنون تضفي على الكلام رونقاً وجمالاً، وتزيده وقعاً وتأثيراً على السامع، بما تكون عليه ألفاظه أو معانيه من ألوان البديع وأشكاله. ويؤتَى بهذه الأشكال لغرض تحسين الكلام وتزيينه، ولذلك سميتْ محسنات بديعيةً.

وتحسين الكلام يكون إمّا من جهة العناية بجانب المعنى، وهو ما يسمى بالمحسنات البديعية المعنوية ؛ أو من جهة اللفظ، ويسمى بالمحسنات البديعية اللفظية. فإن كانت العناية بالمعنى هي المقصودة تركّز اهتمام المتكلم واختياره على المعنى من حيث التناسب أو التقابل أو التضادّ أو غير ذلك من الخصائص على مستوى المعنى.

وإذاكانت العناية باللفظ هي المقصودة تركّز اهتمام المتكلم واختياره على طبيعة الألفاظ في شكلها وبنيتها وما بين حروفها وحركاتها من التجانس أو التقارب أو التباين وما إلى ذلك مما يكون على مستوى اللفظ.

وقد يجتمع في الكلام ألوان من التحسين المعنوي واللفظي، وتشترك جميعها في إعطاء الخطاب معنى جميلاً في شكل لفظيّ بديع. لكنّ هذا التحسين بنوعيه لا يحوز صفة البلاغة إذا كان متكلّفاً يتجاوز فيه المتكلم حاجته الفنّية لبلوغ مراده. وإنما تكون هذه المحسنات مقبولة إذا أضفتْ

على الكلام طابعاً جمالياً يزيد في إيضاح المعنى وبلوغ الغرض والتأثير الإيجابي في نفس السامع.

وسنتناول هذا الباب في ثلاثة فصول: أولها نخصصه للمحسنات المعنوية؛ وثانيها للمحسنات اللفظية، وهذا مما هو معروف؛ ونضيف فصلاً ثالثاً يضمّ مبحثي التضمين والاقتباس، بأنواعهما ؛ وقد سميناه: " تدبيج الكلام " لكونه يشمل ما يتعلق باللفظ وما يتعلق بالمعنى، ولكن ليس على شاكلة المحسنات المعنوية واللفظية ؛ وإنما هو فنّ يعطي الكلام ديباجة فنية متميزة، إذْ يستعين فيه المتكلم بكلام غيره لهذا الغرض من الارتقاء بمستوى التعبير. غير أنّ هذه الديباجة تختلف بين التضمين والاقتباس، إذ يكون الأول في الأصل عن طريق الأخذ من الشعر ؛ ويكون الثاني عن طريق الأخذ من النص القرآني ونص الحديث الشريف. وهذه السمة كذلك مما يميز هذيْن الفنيْن عن باقي فنون البديع. ولهذا جعلناهما في قسم خاص بهما سميناه: " قسم تدبيج الكلام."

الفصل الأول

المحسنـات المعنويـة

المبحث الأول: الطباق

تعريف الطباق :

هو الجمع بين لفظين متضادّين في المعنى، وقد يكونان اسمين أو فعلين أو حرفين أو يكون أحدهما اسما والآخر فعلاً.. والنظر في هذا التضادّ يكون من جهة إلى المعنى لا من جهة اللفظ، ولذلك فإنّ الطباق من المحسّنات المعنوية.

أنواع الطباق:

الطباق نوعان: طباق إيجاب وطباق سلب.

أولاً: طباق الإيجاب: هو الذي يؤتى فيه بالكلمة وضدّها المباشر من غير استعمال أداة النفي. ومثاله قول الشّاعر: [من الكامل]

والشيب ينهض في الشّباب كأنّه ** ليل يصيح بجانبيْه نهار

فكلمة (الشيب) ضد مباشر لكلمة (الشباب). وكلمة (ليل) ضد مباشر لكلمة (نهار).

ومثال طباق الإيجاب من القرآن الكريم قوله تعالى :﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن .﴾ [الحديد/٣] فلفظ الأول ضد مباشر للفظ الآخر؛ ولفظ الظاهر ضد مباشر للفظ الباطن.

ثانياً: طباق السّلب: وهوّ الذي يؤتى فيه بالكلمة نفسها: تارة مثبّتة و تارة أخرى منفية بالأداة. ومثاله قول الشّاعر: [من الطويل]

وننكر إن شئنا على النّاس قولهم ** ولا ينكرون القول حين نقول

فكلمة (ننكر) ضدّ غير مباشر لكلمة (لا ينكرون) ووسيلة الضدية بينهما هي أداة النفي والسلب (لا). وكل كلمة جاءت ضدّاً لأخرى - مقابلة لها- بهذه الصفة هي من قبيل طباق السلب.

ومثال طباق السلب من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.﴾ [الزمر/٩].

تـنبـيهات:

- من معاني الطباق في كتب البلاغة العربية: المطابقة والتطبيق والتطابق والتكافؤ. وكلها تدل على التضاد والتقابل.

- قد يأتي المتضادان اسمين أو فعلين أو حرفين أو مختلفين (كالاسم مقابل الفعل) كما في قوله تعالى: ﴿ ومن **يضلل** الله فما له من **هاد** ﴾ [الرعد/٣٣].

- لكي يحسن الطباق ويضفي رونقاً على المعنى، ويكون له أثر في النفس يشترط في الكلمتيْن المتضادتيْن أن تكونا متقابليْن في الجملة، فإذا تباعدتا في الموقع تباعدتا في المعنى كذلك فلم تتقابلا و لم يعد بينهما اتصال، ولا طباقَ بينهما عندئذ.

المبحث الثاني : المقابلـــة

تعريـــــف :

هي أن يؤتى في الكلام بمعنيين أو أكثر على أن يكون لكل معنى ما يقابله على الترتيب. وهذا يعني أنّه يشترط في المقابلة أن يكون ثمّـــة مقطعان من الكلام كلاهما يشتمل على معنيـــيْن أو أكثر، بحيث تكون معاني المقطع الأول مقابلة لمعاني المقطع الثاني، مع المحافظة على الترتيب بين المعاني.

و يُراعَى في المقابلة – كما في الطباق – ظاهرة التقابل والتضاد من جهة المعنى. فهي بذلك من المحسنات المعنوية مثل الطباق.. غير أنّ المقابلة لا تقوم دائما على التضاد، فقد يكون بين المعنيْن تقابل من غير تضادّ.

أنواع المقابلـــة:

من المقابلة ما هو ثنائي، ويمكن أن نسميه (**المقابلة الثنائية**) إذ يكون في الكلام معنى في المقطع الأول له ما يقابله في المقطع الآخر، بحيث يكون المقطع الثاني مبنياً على المقطع الأول متصلاً به.

ومثال المقابلة الثنائية من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ﴾ [التوبة/ ٨٢]. ففي المقطع الأول جاء ذكْر الضحك وقلّته، وقوبل في المقطع الثاني بالبكاء وكثرته. وهو وارد في الشعر بكثرة، ومنه قول **النابغة**:[من الطويل]

فتى تمّ فيه ما يَسُرّ صديقه ** على أنّ فيه ما يسوء الأعاديا

فقد ورد المقطع الأول مشتملاً على: السرور وذكْر الصديق، وقوبلَ ذلك بالإساءة وذكْر الأعادي في المقطع الثاني.

ومن المقابلة ما هو ثلاثيّ، وسميناه (**المقابلة الثلاثية**) إذ نجد ثلاثةً من المعاني في كل مقطع، متقابلةً على الترتيب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ. ﴾ [الأعراف/١٥٧]

فههنا وردت في المقطع الأول معان ثلاثةٌ متضمنة في: الفعل (يُحلّ) والجار والمجرور (لهم) و الاسم المفعول به (الطيبات) وقابلتْها معان ثلاثةٌ أخرى في المقطع الثاني متضمّنة في: الفعل (يُحرّم) والجار والمجرور (عليهم) والاسم المفعول به (الخبائث). وذلك على الترتيب.

ومن المقابلة الثلاثية أيضاً قول الشاعر: [من البسيط]

من ليس يخشى أسود الغاب إن زأرتْ ** فكيف يخشى كلاب الحيّ إنْ نبحتْ

فالأسود والغاب والزئير على مستوى المقطع الأول تقال الكلاب والحيّ والنباح على مستوى المقطع الثاني..

وقد اجتمعت هذه المعاني وتآلفت في كل مقطع، ثم تقابلت في نمط تركيبي اختاره الشاعر، يتمثل في الجملة الشرطية، مع المحافظة على ترتيب هذه المعاني في تقابلها..

ومن هذا النوع أيضاً قول الشاعر [١]:[من الطويل]

فلا الجود يُفْنِي المال والجَدّ مُقْبِلٌ ** ولا البُخل يُبْقِي المال والجَدّ مُدْبِرُ

فـ (الجود) في المقطع الأول يقابل (البخل) في المقطع الثاني ؛ والفعل (يفني) في المقطع الأول يقابل الفعل (يُبقي) في المقطع الثاني؛ وقوله (مُقبل) في المقطع الأول يقابل قوله (مُدبِر) في المقطع الثاني..

فههنا ثلاثة من المعاني في المقطع الأول قوبلت بثلاثة أخرى في المقطع الثاني. وقد جاء كل مقطع في شطر من البيت.. ومن أجمل ما قيل من الشعر في هذا النوع من المقابلة: [من البسيط]

الخير أبقى و إن طال الزّمان به ** والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

فالخير وبقاؤه الناجم عمّا له من برَكة وإثمار وطيب آثار ، يقابل زوال الشر لما فيه من خبث وسوء وادّخار ؛ ذلك أنّ ما كان خيْراً طيّباً يكون محققاً على الرغم حتى وإنْ طال انتظاره، أمّا ما كان شرّاً خبيثاً فلا يُكتَب له البقاء، فإنْ كان موجوداً فإن زواله محقق.

وقد تناسقت هذه المعاني المتقابلة على مستوى المقطعيْن. وهذا من أبدعُ المقابلاَت صياغةً وأحسنها معنىً وأعمقها أثراً في النفس.

---

(١) الجَدّ: هو الحظّ ؛ وقد نُسبَ هذا البيت إلى المتنبي، لكني لم أجده في ديوانه.. ولعله ليس للمتنبي الذي يقول فيما يقترب من هذا المعنى:

(لولا المشقّة ساد الناس كلّهمُ ** الجود يُفقر والإقدام قتّالُ)

فالجود عنده يُفقر ويُفني المال ، كما أن الشجاعة والإقدام مما يقتل ويفني العمر.

(ديوانه: ص٤٩٠)

تنبيه:

لا يشترط في المقابلة أن يكون كلّ معنى متحصّلاً في لفظ معيّن، وإنما قد تتقابل المعاني وهي ظاهرة من ألفاظ معينة، وقد تكون المعاني متضمَّنةً في صياغات متنوعة لا يدل فيها لفظ بعينه على المعنى، ولكنّ ذلك لا يحجب المعنِ المقصود؛ كما رأينا في البيت المذكور آنفاً.

وهذا النوع من أرفع درجات البلاغة، واستكشاف مثل هذه المعاني يحتاج إلى رقة ذوق ونفاذ بصيرة وبُعْد نظر..

ومن المقابلة ما هو أكثر من ذلك (كأن تكون المقابلة **رباعية** أو **خماسية**) كما في قوله تعالى: ﴿ فأمّا من أعطى واتّقى وصدّق بالحسنى فسنيسّره لليسرى، وأمّا من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسّره للعسرى ﴾ [الليل/ ٥ – ١٠].

فههنا مقطعان متقابلان يشتملان على عدة معان. فالفعل (أعطى) يقابل الفعل (بخل) ؛ والفعل (اتّقى) يقابل الفعل (استغنى) ؛ والجملة (صدّق بالحسنى) تقابل الجملة (كذّب بالحسْنى) ؛ والجملة (سنيسّره لليسرى) تقابل الجملة (سنيسّره للعسرى). فالملاحظ أنّ المعنى في المقطع الأول يقابل المعنى في المقطع الثاني، وفي كلا المقطعيْن جاء ما بعد الفعل محذوفاً على التقدير..

وكذلك يتقابل المعنيان في المقطعيْن الثالث والرابع. ولكنهما وردا جملتيْن من غير حذف أو تقدير... ومع ذلك جاء كل معنى مقابلاً لنظيره على الترتيب، سواء على مستوى اللفظ المفرد أم على مستوى الجملة. (١)

هذه المقابلة يمكن عدّها رباعيةً إذا اعتبرنا قوله تعالى: (فسنيسّره) المتكرر في كلا المقطعيْن بمعنى واحد. أمّا إذا اعتبرنا كلاًّ منهما يستقلّ بمعناه – على الرغم من تكرار اللفظ نفسه – فالمقابلة عندئذ خماسية.

وهذا ما نرجحه هنا. ذلك أنّ تيسير الله للإنسان إلى اليُسرَى ليس كتيسيره إياه للعُسرى، فالتيسير لليسرى جاء على أصله فيه إكرام ومكافأة ورضىً من الله على الإنسان لقاء عطائه واتّقائه وتصديقه بالحسنى.

أمّا التيسير للعُسرى فلم يأت على أصله، بل فيه إهانة وعقاب وسخْط من الله على الإنسان لقاء بُخْله واستغنائه (٢) وتكذيبه.

فكل تيسير إنما هو نتيجة لعمل ابن آدم ؛ والجزاء من جنس العمل كما يُقال، فإن خيْراً فخير، وإن شرّاً فشرّ. وبهذا يتضح لنا ما بين التيسيريْن من الفرق، وإن كانا بلفظ واحد. والله أعلم.

---

(١) نعني باللفظ المفرد هنا: الكلمة، فعلاً كانت أم اسماً أم حرفاً.. وقد جاءت هنا فعلاً.

(٢) يراد بالاستغناء: انسياق الإنسان وراء الحياة الدنيا واستغناؤه عمّا أعدّه الله له في الآخرة وما وعده به من فضله ورحمته.

ومن المقابلة الخماسية في الشعر قول **المتنبي** ([1]):[من الطويل]

أزورهم وسواد الليل يشفع بي ** وأنثني وبياض الصبح يُغري بي

فالزيارة تقابل الانثناء وهو الإياب؛ والسواد يقابل البياض؛ والليل يقابل الصبح؛ والشفاعة تقابل الإغراء؛ والجار والمجرور (لـي) يقابل الجار والمجرور (بـي).. ففي المقطع الأول خمسة معان تقابلها خمسة أخرى في المقطع الثاني على الترتيب.

وفي هذا التقابل ما لا يخفى من التناسق والانسجام في وصف حركة الشاعر من ذهاب وإياب وهو يتردّد الشاعر على البادية، مكرراً زيارته لها معبّراً عن إعجابه بما فيها.

بيـن الطبـاق والمقابلـة :

- الطباق هو التضاد بين لفظيْن متقابلين، أما المقابلة فهي الإتيان بأكثر من معنى ثم الإتيان بما يقابل هذه المعاني مع مراعاة الترتيب..

- يكون الطباق على مستوى الكلمات- بأنواعها – مع ما يقابلها قائماً على الضدّية، أمّا المقابلة فتكون بين المعاني على مستوى الجمل والتراكيب وهي تقوم في الأصل على التقابل بين المعاني، وما الضدّية فيها إلاّ نوع من

---

(١) ديوانه: ص٤٤٨ ؛ وقد قاله الشاعر ضمن قصيدة يمدح فيه كافوراً، يصف مزايا البادية وأهلها الذين يزورهم ليلاً وسواد الليل يخفيه عن الأنظار، ثم يؤوب صباحاً وضوء النهار يحضّ الناس ويدلهم عليه.

هذا التقابل؛ وربما كان التقابل فيها بغير تضادّ. وعلى هذا فكل تضادّ فيها تقابل وليس كل تقابل فيها تضادّاً.

- يكون الطباق بين كلمة وأخرى، ويشمل كل أنواع الكلمات: من أسماء أو أفعال أو حروف، بينما تكون المقابلة بين معنييْن أو أكثر وما يقابل ذلك.

قيمة الطباق والمقابلة وأثرهما الفنّي:

للطباق والمقابلة أثر بارز في المعنى إذْ يزداد الكلام بهما حسْناً ورونقا بما يضفيان على العبارات من جمال الصياغة، إضافة إلى إيضاح دلالتها وتقريبها إلى الفهم. وبأضدادها تعرف الأشياء كما يقال.

فكما يُحتاج إلى شرح الكلمات والعبارات لإيضاح معانيها، كذلك قد يحتاج إلى ذكْر أضدادها أحياناً من أجل إيضاحها.

ولكن يشترط في الطباق والمقابلة عدم التكلّف، وينبغي تجنّب الإفراط في استعمالهما، لأن ذلك ممّا يفسد المعنى ويذهب برونقه وطلاوته.

إنّ الطباق يقوم على الضّدّية بين كلمتيْن متقابلتيْن، وهذا يعني أنّ كلّ واحدة منهما ترتبط بالأخرى من هذه الجهة، على الرغم من تباعدهما في المعنى.

وكذلك المقابلة ترتبط فيها معاني التراكيب على أساس التقابل فيما بينها، فيكون أحد المعنييْن موحياً بما يقابله مشتركاً معه في إيضاح المراد.

المبحث الثالث : التورية

تعريف:

التورية هي إخفاء المعنى المراد من الكلام عن المخاطَب بإظهار معنى آخر له. ممّا يجعل المعنى المورَّى عنه بعيداً، مع أنّه هو المقصود، في حين يكون المعنى المورَّى به قريباً مع أنه ليس هو المقصود من الكلام. ويكون ذلك بقرينة تدلّ على أنّ المعنى البعيد هو المراد وليس المعنى القريب. فالمتكلم يوهم السامعَ بأن المعنى القريب الظاهر هو المقصود، مع أنه ليس كذلك. وعلى هذا تسمّى التورية **إيهاماً**. ولكن بإدراك القرينة يزول هذا الإيهام فيتضح المعنى المراد من الكلام.

أقسام التورية:

من البلاغيين من قسّم التورية إلى قسمين: مجرّدة ومرشّحة ([1]).. وهي عند بعضهم ثلاثة أقسام، بزيادة التورية المبيّنة ([2]) وهي عند آخرين أربعة أقسام بإضافة التورية المهيّأة.([3]) وسنذكر فيما يأتي هذه الأقسامَ كلّها مع توضيحها وتفصيلها وبيان أسرارها:

١- **التورية المجرّدة:** هي التي لا تشتمل على ما يلائم المعنى القريب، أي أنه لا يوجد بها ملازم يدعّم هذا المعنى القريب غير المقصود من الكلام. ومثالها

---

(١) الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة: ص٣٣١

(٢) أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة: ص٣٨٨-٣٨٩

(٣) السيد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة: ص٣١٠-٣١١

من القرآن قوله تعالى: ﴿ الرحمان على العرش استوى ﴾ [طه/٥] وقوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ [الأنعام/٦٠] فعبارة (الاستواء على العرش) تدلّ على معنى الاستقرار على العرش المعروف، وهو المعنى القريب. وتدل على معنى القدرة الإلهية والمُلْك الرباني مما يتصل بعرش الرحمان، وهو المعنى البعيد. لكن الوصول إلى المعنى البعيد (المقصود) هنا أسهل لعدم وجود ملازم يدعّم المعنى القريب (غير المقصود) وفي هذا إيهام قليل.

ولفظة (جرحتم) تدل على معنى الجرح، وهو المعنى القريب (غير المقصود) وتدل على معنى ارتكاب الذنوب وهو المعنى البعيد (المقصود) وبما أن الكلام هنا تجرّد مما يدعم المعنى القريب غير المقصود، فإنّ الوصول إلى المعنى البعيد المقصود يكون أسهل. وبهذا يقلّ الإيهام هنا أيضا.

٢- **التورية المرشّحة**: هي التي يقترن فيها المعنى القريب غير المقصود بما يدعمه ويقوّيه، فلا يكون من اليسير الوصول إلى المعنى البعيد المقصود، وذلك لقوّة الإيهام الناتج عن وجود ما يصرف الذهن عن المعنى البعيد المراد إلى المعنى القريب غير المراد. وهذا النوع من التورية ينقسم كذلك إلى قسميْن: **أولهما**: ما يكون فيه ملازم المعنى القريب سابقاً للّفظ الذي يدل عليه ؛ **وثانيهما**: ما يكون فيه هذا الملازم لاحقاً للّفظ الذي يدل عليه..

فمن أمثلة القسم الأول من القرآن قول الله تعالى: ﴿ والسماء بنيناها بأيْد وإنّا لموسعون ﴾ [الذاريات/٤٧]. فلفظة (أيْد) قد تدل

على اليد المعهودة، وهذا هو المعنى القريب غير المقصود.. كما قد تدل على القدرة والمُلْك، وهو المعنى البعيد المقصود. وقد ذكر (البناء) — وهو الملازم للمعنى القريب — سابقاً للفظ الذي يدلّ على هذا المعنى القريب. (أي أنّ لفظ البناء جاء قبل لفظ الأيد).

ومنه في الشعر قول الحماسي: [من الطويل]

فلمّا نأَت منّا العشيرة كلّها ** أنخْنا فحالفْنا السيوف على الدهر

فما أسلمتنا عند يوم كريهةٍ ** ولا نحن أغضينا الجفون على وِتْر

فالإغضاء يكون لجفون العيون، وهو المعنى القريب غير المقصود.. لا لجفون السيوف، وهو المعنى البعيد المقصود. لكن الملازم للمعنى القريب جاء قويّاً هنا فترتّب عليه قوة في الإيهام بأنه هو المقصود.

كما أنه جاء سابقاً مذكوراً قبل لفظ المعنى القريب. إذْ إنّ لفظ الملازم هو قوله (أغضيْنا) ولفظ المعنى القريب هو (الجفون) وأمّا المعنى البعيد المقصود فهو جفون السيوف (أي أَغمادها) فلمّا جاء لفظ (الإغضاء) قبل لفظ (الجفون) أوْهَمَ بالكلام عن العيون، مع أنّ المراد بالجفون هو أغماد السيوف، لا جفون العيون.. ويؤيد هذا أنّه ذكر السيوف قبل ذلك، كما أنه ذكر يوم الكريهة..

ومن أمثلة القسم الثاني الذي يأتي فيه الملازم للمعنى القريب بعد اللفظ الدال عليه، قول القاضي أبي الفضل **عياض** في صيفية باردة: [من البسيط]

كأنّ كانون أهدى من ملابسه ** لشهر تموز أنواعاً من الْحُلَلِ

أو الغزالة من طول المدى خرفتْ ** فما تفرّق بين الجدْي والحَمَلِ

فلفظ (الغزالة) يدل على المعنى القريب غير المقصود وهو الضبية (الحيوان) ويدل على المعنى البعيد وهو الشمس (الكوكب). والملازم المذكور لتقوية المعنى القريب يتمثل في لفظي: (الجدْي والحمل) - وهما ابن العنزة وابن الشاة - وقد جاء هذا الملازم بعد لفظ (الغزالة). فزاد المعنى إيهاماً بأنّ المقصود بالغزالة هو الضبية (أي: الحيوان) إذْ إنّ لفظَ التورية ولفظَ ملازمِهِ متقاربان في المعنى القريب.. أمّا في المعنى البعيد فلا بدّ من أخذ الغزالة على المجاز لمعرفة أنّ المراد بها هو الشمس. وفي هذا المثال تتجلى قوة الإيهام لقوة الملازم في المعنى القريب غير المقصود، وبُعْد المراد- بسبب المجاز- في المعنى البعيد المقصود.. وهذا يحتاج إلى دقّة في النظر وقوة في إجالة الفكر وبراعة في كشف ما خفي من المعنى واستتر..

تنبيه:

الملازم للمعنى القريب في التورية نوعان: ملازم قويّ مستحكَم، وهو الذي يجعل المخاطَب يعتقد أحياناً أنّ المعنى القريب هو المقصود — على الرغم من كونه غير مقصود — وهذا ما يرفع من درجة التوهّم عنده..

وهناك ملازم ضعيف غير مستحكَم، وهو الذي لا ينصرف معه ذهن المخاطَب إلى الاعتقاد بأنّ المعنى القريب هو المقصود. ولذلك لا ترتفع درجة التوهّم عنده، بل تكون ضعيفة محدودة، فيبقى متطلّعا إلى المعنى البعيد

المقصود من الكلام. ويترتب على هذيْن الملازميْن قوةٌ أو ضعفٌ في الإيهام، وذلك بحسب نوع الملازم للمعنى القريب..

٣- **التورية المبيّنة**: سميتْ كذلك لأنها تبيّن المعنى البعيد المقصود من الكلام، وهو المعنى المورَّى عنه. فهذا النوع من التورية يكون الملازم فيه متصلاً بالمعنى البعيد مما يؤدّي إلى إزالة الإيهام من ذهن السامع. فبعد أن كان هذا المعنى البعيد خفياً عن السامع يستحيل إلى معنى واضح بيِّنٍ بوجود ما يلازمه ويقربه إلى ذهن المخاطَب.

وكذلك تكون التورية المبينة مقرونة بملازم قبليّ يسبق لفظ المعنى البعيد، أو بملازم بعديّ يلحق لفظ المعنى البعيد.

* **مثال عن التورية المبيّنة ذات الملازم القبليّ:**

من ذلك قول أحد الشعراء: [من الكامل]

يا منْ رآني بالهموم مطوَّقاً ** وظللتُ من فقدي غصوناً في شجون

فلفظ (مطوقا) يدلّ على معنى قريب غير مقصود هو التطويق الحسّي بمعنى إحاطة الشيء بالعُنُق[1] ويدل على معنى بعيد مقصود هو تراكم الهموم وإلمامها بالشاعر من كل ناحية. ولكنّ المعنى البعيد قد سُبِقَ بملازم قبليّ بيّنه ورفع عنه الإيهام فصار أقرب إلى الذهن. وهذا الملازم يتمثل

---

(١) كما هو الشأن في (الحمامة المطوقة) في قصص كليلة ودمنة لابن المقفع ؛ و منه إطلاق ابن حزم على كتابه اسم (طوق الحمامة) وقد غدت نسبة الطوق إلى الحمامة أمراً شائعاً عند العرب.

في استعمال لفظ (الهموم) قبل لفظ التورية (مطوقاً). ولكنّ ثمّة ملازماً بعدياً كذلك يتمثل في اقتران لفظ (المطوّق) باللفظ (ينوح) في عجُز البيت الثاني.. كما سيأتي في الكلام عن الملازم البعدي.

تنبيه:

يمكن أن تكون التورية المبينة على درجة كبيرة من التبيين إلى حدٍّ تكاد تخرج فيه عن صفة التورية إلى نوع آخر من التعبير، ولون مغاير من ألوان التصوير.. كما يُلاحظ في البيت المذكور آنفاً من احتمال خروج اللفظ (مطوقا) عن لفظ التورية إلى الكناية أو الاستعارة.. إذْ قد يكون كناية عن شدة ما أصاب الشاعر من الهموم المتراكمة؛ وقد يكون استعارة مكنية شبهتْ فيها الهموم بالأناس (أي: الجنود) الذين يضربون طوقهم على شخص ما أو مكان ما..

*** مثال عن التورية المبيّنة ذات الملازم البعديّ:**

من ذلك قول الشاعر نفسه في هذا البيت الذي أوردناه ، وفي البيت الذي يليه: [من الكامل]

يا منْ رآني بالهموم مطوَّقاً ** وظللتُ من فقدي غصوناً في شجون

أتلومني في عظم نوحي والبكا ** شأن المطوّق أن ينوح على غصون

فاللفظ الآخر للتورية في البيت هو قوله (غصوناً) و (شجون) في عجُز البيت الأول. إذ الغصون بالمعنى القريب غير المقصود هي (فروع الأشجار) أمّا بالمعنى البعيد المقصود فهي (ما فقده من المحبّبن إليه والمقرّبين

منه، وما كان يستمده منهم ويناله من الاطمئنان والسرور) ويزيد الإعرابُ هذا المعنى وضوحاً بنصبها على المفعولية لفعل الفقد. وكأنّي بالشاعر يذكر لفظ الشجون في البيت الأول للاستعاضة به عن الغصون، دلالة على الفروع والشُّعَب. فهو إذْ يفقدها من جهة يذكر الشجون بدلاً عنها مستأنساً بها من جهة أخرى..

وكذلك لفظ (شجون) فهو بالمعنى القريب غير المقصود (الطّرق المتفرعة) ومنه قول العرب في المثل: " الحديث ذو شجون " أي ذو طرق متشعبة لا تنتهي، إذْ لا يكاد المرء يخرج من أحدها حتى يجد نفسه قد دخل في غيره.. أمّا لفظ (شجون) بالمعنى البعيد المقصود فهو (الهموم والأحزان وما يقع في النفس من ألم وتأثّر وأسى).

أمّا الملازم البعديّ للمعنى البعيد للفظ (غصون) فهو ذكْر لفظ (الشجون) بعدها ثم لفظ (النوح) ثم لفظ (البكاء). هذا زيادة على الملازم القبليّ المتمثل في لفظ (الهموم).. فهذه كلّها تدلّ على أنّ المقصود بالغصون هنا هو ما فقده الشاعر من أسباب السرور وما ألمّ به من الحرمان وما في هذا المعنى الذي يدل عليه سياق البيت، كما أنّ ثمّة من ألفاظ البيت ما يدل على هذا المعنى، كذكْر اللوم مثلاً.

والذي يدعم ما ذهبنا إليه هنا هو أنّ الشاعر أعاد استعمال لفظ (غصون) للإيحاء بالمعاناة التي يلاقيها، لكنّه عبّر بالغصون المعروفة

للأشجار على سبيل الإيهام، ذلك أنّ المعهود لدى الشعراء أن يذكروا البكاء أو النواح على الغصون..

ومن هذا القبيل مثلاً قول **أبي العلاء المعري:** [من الخفيف]

أبكت تلكم الحمامة أمْ غنـ ** ـنتْ على فرع غصنها الميّاد

ومنه أيضاً قول **أبي فراس الحمداني:** [من الكامل]

أفمن بكاء حمامة في أيكةٍ ** ذرفتْ دموعك فوق ظهر المحمل

فالأيكة هي الشجرة الكبيرة ذات الأغصان الكثيفة. وأمثال ذلك كثيرة في شعر العرب..

وكذلك الملازم البعدي للمعنى البعيد للفظ (شجون) هو الألفاظ نفسها التي ذكرناها آنفاً. وهو ما يتضح من خلال سياق الكلام، إذ الشاعر في معرض وصف حاله وما هي عليه من الهموم وما ألمّ به من الأحزان وما أضحى فيه من الأشجان..

تنبيه:

بعد هذه المعاني والدلالات التي استنبطناها من هذيْن البيتيْن، يمكن أن نبدي نلاحظ ما يأتي:

- اشتمال البيتيْن على عدة ألفاظ للتورية، كما أنّ هناك أكثر من ملازم للمعاني البعيدة لهذه الألفاظ..

– قد يتنوع الملازم بين قبليّ وبعديّ، بحسب لفظ التورية الذي يتصل به. مع ما هنالك من تداخل وتشابك بين هذا الملازم وذاك، أو بين لفظ وآخر من ألفاظ التورية.

*** مثال آخر عن التورية المبيّنة:**

ومن أمثلة التورية المبينة كذلك قول **ابن سناء الملك:** [من الوافر]

أما والله لولا خوف سخطك ** لهان عليَّ ما ألقَى برهطك

ملكت الخافقَيْن فتهت عُجْباً ** وليس هما سِوى قلبي وقرطك

فلفظ التورية هنا هو قوله (الخافقيْن) ومعناه القريب غير المقصود هو (المشرق والمغرب). أمّا معناه البعيد المقصود من الكلام فهو (القلب والقرط). وهذان اللفظان (القلب والقرط) هما الملازم للمعنى البعيد. وهو ملازم بعديّ لأنه جاء بعد لفظ التورية لتبيينه، مما يجعل درجة الإيهام فيه ضعيفة، بسبب تدعيم المعنى البعيد وتقويته بهذا الملازم القويّ الذي انصرف ذهن المخاطَب معه إلى هذا المعنى البعيد، على الرغم من شيوع دلالة الخافقيْن على المشرق والمغرب.. والملاحظ هنا أنّ الملازم جاء مزدوجاً بلفظيْن تبعاً للفظ التورية الذي جاء مزدوجاً كذلك مّما أحدث تقابلاً بينهما في المعنى؛ وهذا من بديع القول وفنون البلاغة.

٤ – **التورية المهيّأة:** هي التي لا يتضح فيها معنى التورية إلاّ بوجود لفظ قبلها أو بعدها. وعلى هذا فهي نوعان: تورية مهيّأة بلفظٍ قبلها؛ وتورية مهيّأة بلفظٍ بعدها، كما هو رأي أكثر البلاغيين.

فمثال النوع الأول قول الشاعر: [من الطويل]

وأظهرْت فينا من سماتك سنّةً ** فأظهرتَ ذاك الفرض من ذلك النّدب

إذ إنّ لفظ التورية هو قوله (الفرض والنّدب) والمراد بهما على المعنى القريب غير المقصود (المفروض والمندوب من الأحكام الشرعية) أمّا على المعنى البعيد المقصود فالمراد بالفرض (العطاء) والمراد بالندب (السرعة في قضاء الحوائج). ولولا ذكْر لفظ (السّنّة) لما فُهِم معنى التورية من هذه الألفاظ. أي أنّ لفظ (السّنّة) جاء مهيّئاً للتورية هنا. فسميت بالتورية المهيّأة، وهو سابق لها في الذّكْر كما نرى.

ومثال النوع الثاني قول **الإمام علي** كرم الله وجهه في وصف **الأشعث بن قيس:** " كان يحرّك الشِّمال باليمين.." فالمعنى القريب للَفظ (الشِّمال) هو الضدّ المقابل لليمين. وأمّا المعنى البعيد له فهو جمعٌ مفرده (شملة) وهي كساء واسع يُشتَمل به. ولولا ذكْر لفظ (اليمين) بعدها لما فُهِمَ أنّ المراد بها الإشارة إلى اليد بقصد التورية، وقد جاء هذا اللفظ لاحقاً لها في الذّكْر.

تنبيه:

الملاحظ أنّ التورية المهيّأة ما هي إلاّ ضرب من التورية المبيّنة. إذْ ليس ثمّة ما يميّز هذه عن تلك في حقيقة الأمر. لما بينهما من اشتراك في كون اللفظ الملازم مذكوراً قبلَ لفظ التورية لتبيين المعنى البعيد. ففي البيت المذكور [وأظهرتَ فينا من سماتك سنّةً.... (البيت)] يوجد لفظ

(سماتك) الذي بيّن المعنى البعيد المستفاد من الفرض والندب، وهو (العطاء والسرعة في قضاء الحوائج). وكذلك في قول **الإمام عليّ** رضي الله عنه (يحرّك الشّمال باليمين) جاء ذكْر لفظ (التحريك) الذي يشير إلى المعنى البعيد (الثوب أو الكساء) ثم جاء ذكْر لفظ (اليمين) كذلك للزيادة في التوضيح والتبيين بأنّ المراد هو المعنى البعيد (وهو تحريك الثوب باليمين) إذْ ليس بأحرى من ذلك أن يكون المراد هو تحريك اليد اليسرى باليد اليمنى. فذلك هو المعنى البعيد غير المقصود.

وعلى هذا تكون التورية الأخيرة من قبيل التورية المبيّنة التي يكون الملازم فيها قبليّاً. وهو هنا متمثل في لفظ التحريك بقوله (يحرّك). وهذا يُفْضِي بنا إلى القول بأنّ ثمّة ثلاثة أنواع من التورية، هي (المجردة والمرشحة والمبيّنة.) وأمّا ما سمّي بالتورية المهيّئة، فما هو إلاّ ضرب من التورية المبيّنة..

ثمّ إذا كان شرط التورية المهيّأة هو وجود لفظ قبلها يهيّئها، فكيف يكون هذا اللفظ مذكوراً بعد لفظ التورية، وأنّى يكون مهيّئاً لها عندئذ.؟

المبحث الرابع
تأكيد المدح بما يشبه الذم و تأكيد الذمّ بما يشبه المدح

تعريف:

تأكيد المدح بما يشبه الذم- أو العكس - من الفنون البلاغية التي عرفها العرب منذ القديم، ولا سيما ما كان منها في أشعارهم. وهو نمط من التعبير الذي يستحضر فيه المتكلم (والشاعر على الخصوص) فضيلتيْن لممدوحه. فيذكر الأولى موهماً بأنه سيثنّي بما يناقضها، وإذا به يدعمها بالثانية ليزيدها تأكيداً، فيزيد الممدوحَ مدحاً على مدح. وذلك على عكس المتوقع من أنّ الصفة الثانية ستكون ذمّاً (أي أنه بعد ذكْر صفة المدح سيأتي الاستثناء بصفة ذمّ).فالذي يحدث إذاً هو تكرار للمدح وتأكيد له على غير ما يتوهمه السامع..

هذا في تأكيد المدح بما يشبه الذم، وقُلْ نظير ذلك في العكس، لكن باستبدال الفضيلتيْن برذيلتيْن، ليكونَ المقام مقام ذمّ.. فذكْر صفة الذمّ في الأول يوهم بأن المتكلم سيأتي في الاستثناء بصفة مدح، لأنّ المعهود أنّ الاستثناء يخالف فيه آخرُه أوّلَه. لكن الذي يقع هو أنّ ما بعد الأداة يأتي مؤكّداً لما قبلها ومقرّراً له. فظاهر اللفظ فيه خلاف المعنى المقصود. ولذلك قالوا (.. بما يشبه) دليلاً على الشبه اللفظي؛ أمّا المعنى فهو ذمّ متكرّر ومؤكّد. ولذلك استعملوا كلمة (تأكيد..).

وقد أطلق البلاغيون على هذا الفنّ عدة تسميات. إذْ سمّاه أبو هلال **العسكري** " استثناءً " (١) وأطلق عليه أسامة **بن منقذ** اسم " الرجوع والاستثناء " (٢). إلى غير ذلك من التسميات كما في غيره من الفنون.. غير أنّ الاسم الشائع المتداول في حقل الدراسات البلاغية هو: " تأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذّمّ بما يشبه المدح". وهذا ما وسمه به **ابن المعتزّ** (٣).

ومحصول القول في هذا الفنّ أن تأكيد المدح بما يشبه الذم هو أسلوب مدح في صدر الكلام وعجُزه. وتأكيد الذم بما يشبه المدح أسلوب ذمّ في صدر الكلام وعجُزه.

غير أنّ ثمّة تداولاً بين النفي والإثبات في أول الكلام وآخره.سواء أكان ذلك باللفظ الصريح بوساطة الأدوات الظاهرة وغيرها، أم كان بالتلميح بحيث يفهَم النفي من الإثبات أو العكس.

---

(١) كتاب: الصناعتيْن: ص ٤٠٨

(٢) ينظر كتابه: البديع في نقد الشعر: ص١٢٠

(٣) البديع: ص٦٢

أولاً : تأكيد المدح بما يشبه الذم

في هذا الفنّ يستحضر المتكلّم (والشاعر على الخصوص) صفتيْ مدح، فيذكر الأولى موهماً بأنه سيستثّني بما يناقضها، وإذا به يُلحِق بها صفة مدح ثانية، ليزيدها تأكيداً ويزيد الممدوح مدحاً. وذلك على عكس ما يتوهمه السامع من أنّ الصفة الثانية ستكون ذمًّا..وهذا النمط من التعبير يكون على ضربيْن:

الضـرب الأول:

أن يُبدَأ بذكْر صفة ذمّ منفية عن الشخص أو الشيء المذكور، ثمّ يُسْتَثنَى منها صفةُ مدح. بحيث تكون صفة المدح مؤكّدة لنفْي صفة الذمّ عن الممدوح..

فيكون لدينا ههنا نوعان من المدح: مدح بنفي صفة الذمّ، ومدح بتقرير صفة المدح. ولذلك قالوا: " تأكيد المدح بما يشبه الذّمّ. " لأنّ الكلام يأتي من جهة اللفظ على صيغة الذمّ، أمّا مراده ومقصوده فهو تأكيد المدح..

ومثال هذا الضرب الأول قول **النابغة** الذبياني: [من الطويل]

ولا عيْبَ فيهم غيْر أنّ سيوفهم ** بهنّ فلولٌ من قراع الكتائب (١)

فقد بدأ بنفْي العيْب عنهم، وفي هذا مدْحٌ لهم..ثمّ استثنى فأوهمك أنه سيذْكر بعد أداة الاستثناء ما فيه ذم لهم. ولكنّه ثنّى بصفة مدْحٍ

(١) الفلول: ج. مفرده (فلّ و فلل) وهو الثلمة والكسر في حدّ السيف.

أخرى، إذْ ذكر وجود الفلول في سيوفهم. وهذا دليل على شجاعتهم وبطولتهم ونجدهم وحضورهم في مواقع القتال وعدم إحجامهم عن النزال، كنايةً عن عدم جبْنهم وخذلانهم.

وفي هذا كلّه ما يزيد من التأكيد على مدحهم بصفات أخرى، زيادةً على المدح الأول بنفْي كل جنس من العيوب عنهم..

وثمة قرينة في هذا البيت تزيد المعنى وضوحاً، وهي ذكْر سبب وجود الفلول في السيوف، لأنّ السيوف قد تفلّها أشياء أخرى في مواطن أخرى غير مواطن الشجاعة والإقدام،

فقد تُفَلّ السيوف بسبب رداءة نوعها، أو استعمالها في غير ما صُنِعَتْ له، أو حتى ممّا يصيبها من التلف والصدأ لعدم استعمالها والعناية بها.. أمّا فلول السيوف التي ذكرها الشاعر هنا فسببها (قراع الكتائب).

ومن هذا القبيل أيضاً قول **ابن نباتة** المصري: [من الطويل]

ولا عيب فيه غير أنّي قصدته ** فأنستني الأيام أهلاً موموطنا

لقد بدأ بنفي العيب عن الممدوح، ثم استثْنى فجعلك تتوهم تقليلاً من شأنه، أو ذكْر بعض ما يؤاخذه عليه، وإذا به يفاجئك بذكْر صفة مدح أخرى بطريق الإثبات، وهي أنه يجد عنده الألفة والمؤانسة إلى حدّ أنّ ذلك يُنسيه أهله وموطنه..

ومثال ذلك أيضاً قولنا (1) في مدح أسلافنا، وما خلّفوه لنا من ميراث عظيم ونهج قويم: [من الكامل]

لا عيْب في الأسلاف إلاّ أنّهم ** قد خلّفوا إرثاً لنا وذخائرا

وبفضل همّتهم وحسْن بلائهم ** خطّوا لنا نهجاً قويماً نيّرا

فقد بدأنا بنفي صفة الذّم (نفي العيب) عن أسلافنا، وهذا مدح لهم، ثم استثنيْنا من ذلك ما خلّفوه لنا من ميراث قيّم وذخائر نفيسة ونهج قويم. موهمين بأنّ المدح الأول يعقبه ذمّ، ولكننا أتينا بمدح ثان فيه تأكيد للأول..

الضرب الثاني:

أنْ يُبْدَأَ بصفة مدح مثبتة للشخص أو الشيء المذكور، ثم يؤتَى بصفة مدح أخرى مستثناة، يستفاد منها تأكيد صفة المدح الأولى. ومن ذلك قول **النابغة الجعدي**: مادحاً:[من الطويل]

فتًى كملتْ أخلاقه غيْر أنّه ** جوادٌ، فما يُبْقِي من المال باقيا

فقد أثبت الشاعر للممدوح كمال أخلاقه، وهذه صفة مدح. ثم استثنى منها صفة مدح أخرى تتمثل في كونه جواداً إلى حدّ أنه لا يُبقِي من ماله شيئاً، كنايةً عن كثرة الإنفاق. وهذا ما يزيد في تأكيد صفة كمال أخلاقه.

---

(1) البيت من قصيدة للمؤلف ضمن ديوانه: ألحان المجد.

تنبيه:

أضاف بعض البلاغيين المتأخرين ضرباً ثالثاً في هذا الباب يتمثل في الاستثناء المفرَّغ (1) كما في قوله تعالى: ﴿ وما تنقم منّا إلاّ أن آمنّا بآيات ربّنا لّما جاءتنا ﴾ [الأعراف/١٢٦]

والحقيقة أنّ هذا النوع من الأسلوب لا يدخل ضمن تأكيد المدح بما يشبه الذمّ. سواء أكان ذلك في القرآن أم في غيره من الكلام العربي. إذ المعنى المتحصّل من الاستثناء المفرّغ لا يتضمّن المدح عن طريق الإيهام بالذمّ ولا العكس كذلك..

كما أنّ أسلوب الاستثناء في عمومه ليس من قبيل تأكيد المدح بما يشبه الذّم أو تأكيد الذم بما يشبه المدح. ذلك أنّ الاستثناء الذي يظهر في باب تأكيد المدح بما يشبه الذّم أو العكس ليس استثناءً على حقيقته، ولا حصراً، وإنما هو شكل فنّي من أشكال الإيهام المعنوي الذي يقوم عليه هذا النمط التعبيري. ولذلك أُحتُكِمَ فيه إلى مغزاه، وعُدَّ من المحسّنات المعنوية. وليس ذلك من مزايا الاستثناء أو الحصر.

بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذّمّ وأسراره الفنّية:

بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذّم متأتّية من ناحية الإيهام الذي يتجلّى من خلال الاستثناء؛ إذ المعهود أنّ المستثْنى يكون مخالفاً للمستثنى

---

(1) الاستثناء المفرّغ في اصطلاح النحاة هو الذي يحذف فيه المستثنى منه (قبل الأداة) ويكون مُصَدّراً بأداة نفي سواْ أكانت أصلية أم محوّلة (والمراد به: الاستثناء الناقص المنفي).

منه. فإذا سمع السامع مدْحاً متبوعاً بالاستثناء اعتقد أنّ ما سيأتي بعد الأداة يكون مخالفاً لما قبلها، أي أنه يعتقد وجود الذمّ بعدها. وإذا به يُفاجَأ بمدْح آخر يزيد المدح الأول تأكيدا، ويتضمّن نفْياً لما كان يتوهمه السامع من الذّمّ.

وهذا من بديع القول والأساليب التعبيرية التي يستحسنها السامع ويروقه ما فيها من استحضار لخياله وحثّ له على إجالة فكره، للانتقال من توهّم معنى لديه معهود إلى اكتشاف معنى آخر مقصود..

ثانيا : تأكيد الذم بما يشبه المدح

يستحضر المتكلّم (والشاعر على الخصوص) في هذا النمط من التعبير صفتيْ ذمٍّ. فيذكر الأولى موهماً سامعه بأنه سيثنّي بما يناقضها، وإذا به يلحق بها صفة ذمّ ثانية، ليزيدها تأكيداً. ويزيد المذموم ذمّاً على ذمٍّ. وذلك على عكس ما يتوهمه السامع ويتوقعه من أنّ الصفة الثانية ستكون مدحاً بخلاف الأولى.. وهذا النمط من التعبير يكون على ضربيْن:

الضرب الأول:

أن يُبدَأ بذكْر صفة مدح منفية عن الشخص أو الشيء المذكور، ثمّ يُستَثْنَى منها صفة ذمّ مثبتة أو صفة مدح منفية. بحيث تكون صفة الذّمّ الأولى مؤكّدة بإثبات صفة الذمّ للمذموم، أو بنفْي صفة المدح عنه.. فيكون لدينا في القسم الثاني من الكلامن نوعان من الذّمّ: ذمّ بتأكيد الذمّ الأول وتقريره، وذم بنفي صفة المدح. ولذلك قالوا: تأكيد الذّمّ بما يشبه المدح، لأنّ الكلام يأتي من جهة اللفظ على صيغة المدحّ، أمّا مراده ومقصوده فهو تأكيد الذّمّ.. ومن أمثلة هذا الضرب الأول، قولنا: (1) [من الكامل]

لا خير في التدخين إلاّ أنّــه ** يؤذي النفوس ويجلب الأدواء
ويحطّ من قدر الكرام وشأنهم ** ويُحيل فعل الخيّــرين هبــاء

(1) البيتان للمؤلف في الحث على الإقلاع عن التدخين.

فقد بدأنا بصفة مدح منفية (نفي الخير عن التدخين) وهذا ضربٌ من الذّمّ. ثمّ استثنيْنا منها صفة ذمّ مثبتة، هي جلب الأدواء والأمراض. ولو قلنا – مثلاً – في الشطر الثاني: (لا ينفع..) لكانت هذه صفةَ مدح منفية (نفي النفع عنه) وهي من صفات الذّمّ أيضاً..

ومثاله أيضاً قول أحد الشعراء:

خلا من الفضل غيْر أنّي ** أراه في الحُمْق لا يُجارَى

فقد ذمّه بخلوّه من صفات الفضل، ثم أتى بأداة الاستثناء إيهاماً بأنه سيمدحه فيما يأتي بعدها من الكلام ، ولكنه جاء بصفة ذمّ أخرى هي شدة حمق المذموم إلى حدٍّ لا يُجارَى فيه. وفي هذا تأكيدٌ لِصفة الذّمّ الأولى بصفة ذمّ ثانية.

الضرب الثاني:

أنْ يؤتَى بصفة ذمّ مثبتة للشخص أو الشيء المقصود بالكلام، ثمّ يُسْتَثنَى منها صفة ذمّ مثبتة أو صفة مدح منفية. ومثال ذلك قول الشاعر:

لئيم الطّباع سوى أنّه ** جبانٌ يهون عليه الهوان [المتقارب]

فقد أثبت له صفة ذمّ هي لؤْم الطباع، ثمّ استثنى منها صفة ذمّ أخرى مثبتة تتمثل في جبْنه وشدة هوانه. فبعد أن أوهم السامع بأنه سيثنّي بذكْر صفة مدح، أورد صفة ذمّ ثانية تأكيداً للأولى.

تنبيهات:

١- لو تأمّلنا صفات المدح وصفات الذّم في هذا النوع من الأسلوب بنوعيه: (تأكيد المدح وتأكيد الذم) لوجدنا أنها: إمّا صفات مدح منفية وهذا يعني أنها صفات ذمّ مثبتة. وإمّا أنها صفات ذمّ منفية وهذا يعني أنها صفات مدح مثبتة. وهذا يجعلنا نستخلص أنّ نفي الذم مدح، وهو بمنزلة إثبات المدح. وأنّ نفي المدح ذمّ، وهو بمنزلة إثبات الذّمّ. وبهذا يكون نفي أحدهما إثباتاً للآخر. والشيء يُعْرَف بضدّه.

٢- إنّ اللجوء إلى استعمال هذا الأسلوب في المدح أو في الذّمّ يكون الغرض منه توكيد المدح أو الذّمّ وإثباتهما. كما يدلّ ذلك على تعداد صفات المدح للممدوح، والمبالغة في الثناء عليه؛ أو تعداد صفات الذمّ للمذموم، والمبالغة في إلحاق الذّم به..

٣- فكرة الإيهام التي يعمد إليها مستعمل هذا الأسلوب في المدح أو في الذم، يُنطلَق فيها من المدح للوصول إلى الذم، أو العكس. وهي دليل على بلوغ المتكلم مرتبة عالية من مراتب البلاغة ومقدرة على التصرّف في فنون القول وتنويع أشكال الخطاب..

المبحث الخامس : أسلوب الحكيم

تعريف:

أسلوب الحكيم، أو الأسلوب الحكيم: هو أسلوب المتكلم الحكيم. أو هو خطاب الحكمة. ويكون بالإجابة على سؤال السائل بغيْر ما كان يتوقع أو ينتظر أن يسمع.. وهو تغيير لخطاب المتكلم عن وجهته من غير قطع الصلة بينه وبين مدلوله الأصلي.. وذلك تظاهراً من السامع أو المجيب بفهم غير ما يكون عليه مجرى الكلام، بقصد تجنّبه وتحاشيه..

ولا بد من وجود صلة أو مناسبة بين ما يريده المتكلمُ وما يجيب به السامعُ. وذلك لتسويغ حمل الخطاب على ما هو مراد منه.. وهذه الصلة أو المناسبة تتمثل في كون الخطاب يحتمل معنييْن متبايِنيْن. أحدهما يريده السائل أو المتكلم، وثانيهما يتظاهر السامع بفهمه ويجيب عليه تحاشياً للمراد من الكلام على الأصل.. ويكون أسلوب الحكيم بطريقتيْن:

- **الطريقة الأولى:**

تحاشي سؤال السائل بالإجابة عليه بغيْرِ ما كان ينتظر: ومثال ذلك جوابك لمن يسألك عن مكان نزولك، حين عودتك من السفر. إذ يقول لك: أيْن منزلك ؟ (يريد: مكان نزولك واستقرارك) فتجيبه قائلاً: في محطة الحافلات.. فهو قد سألك عن مكان نزولك ومجيئك واستقرارك بعد السفر.. ولكنك لم تُردْ أنْ تطْلعه على ذلك لغرض ما في نفسك. فتتظاهر بأنك فهمت منه السؤال عن مكان النزول من الحافلة عند الوصول. مع أنك تفهم مقصوده ومراده من السؤال.

ومن أمثلة هذا الأسلوب ما وقع بين رجل من الحيرة و**خالد** بن الوليد: إذْ سأله خالد: فيمَ أنت؟ فأجاب: في ثيابي..فسأله خالد ثانية: وعلامَ أنت؟ فأجاب الرجل: على الأرض..فسأله خالد مرة ثالثة: كم سنّك؟ فأجاب: اثنتان وثلاثون.. فتعجب خالد وقال له: أسألك عن شيء فتجيبني بغيره.! فقال الرجل: إنما أجبتك عمّا سألتَ..!

والحق أن الرجل كان يدرك ما أراده خالد من أسئلته كلها، غير أنه أراد تحاشيها، فأجاب بإجابات غير التي كان ينتظرها خالد.. لكن ثمّة صلة بين ما سأل عنه خالد وما أجاب به الرجل. وهذه الصلة تتمثل في دلالة اللفظ على معنييْن متباينيْن، وقد تظاهر الرجل بفهم أحدهما، مع أنه يدرك أن المقصود هو المعنى الآخر الذي تحاشاه. وهو ما يدل عليه سياق الكلام..

- **الطريقة الثانية:**

توجيه الكلام على غير ما يقصده المتكلم أو يتوقعه، وذلك لغرض معين كتحاشي ما قد يترتب على فهم الكلام على حقيقته، أو عدم الرغبة في ممارسة نوع معين من الخطاب، أو ما إلى ذلك مماّ يُصرف فيه الكلام إلى غير وجهته الحقيقية..

ومثاله ما كان من أمر **الحجاج** بن يوسف الثقفي والي العراق وخراسان في عهد **عبد الملك** بن مروان وابنه **الوليد**، إذْ قال متوعّداً أحد الرجال:" لأحملنّك على الأدهم! "(يريد بالأدهم القيد الحديدي الأسود) فقال الرجل مستعملا أسلوب الحكيم: " مثْل الأمير يحمل على " الأدهم

والأشهب". فقد تظاهر الرجل بأنه فهم "الأدهم" على أنه الحصان. فأضاف إليه اسماً آخر من أسمائه، وهو: "الأشهب" ليصرف الحجاج عن معرفة ما في نفسه من التظاهر بعدم الفهم. ومثاله أيضا قول الشاعر: [من الطويل]

ولّما نعى الناعي سألناه خشية ** وللعيْن خوف البيْن تسكاب أمطار

أجاب: قضى! قلنا: قضى حاجة العلا ** فقال: مضى! قلنا: بكل فخار

فأسلوب الحكيم (أو خطاب الحكمة) باد هنا في تظاهر المتكلمين بفهم الفعل (قضى) من الناعي، على أنه بمعنى (أتمّ وأنجز) أي: بلغ مراتب العلا، وأتم وصوله إليها. إذْ أوّلوا الفعل اللازم بالمتعدّي. مع أنّ المراد به هو أنه (مات وانتهى) كما أنهم تظاهروا بفهم قوله (مضى) على أنه (حاز واستحوذ) أي: لم يدَع فخراً لغيره، إذْ قرنوا الفعل (قضى) بحرف الباء وعَدَّوْه به مع أنه لازم.

وحاصل القول أن السامعين تظاهروا بفهم غير ما أراده المتكلم (الناعي) وأوّلوا خطابه بما له صلة به، من جهة احتمال كلا الفعلين (قضى و مضى) لمعنييْن متباينيْن. مع أن السياق يبيّن أن المراد هو غير ما تظاهروا به.

والغرض هنا من صرف الكلام عن أصله ومراده إنما هو الثناء على الراحل ومدحُه بذكْر مناقبه ومحاسنه.

ومثال أسلوب الحكيم من القرآن الكريم – حيث الحكمة في صرف الكلام إلى ما هو أولى وأحرى – قوله تعالى: ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون.قل ما أنفقتم من خير فللوالديْن والأقربين واليتامى والمساكين وابن

السبيل﴾ [البقرة/٢١٥] فالذي سئل عنه الرسول صلى الله عليه وسلم هو حقيقة الإنفاق للأموال، وأمّا الجواب فجاء لبيان طرق إنفاق هذه الأموال. وذلك لصرف الكلام إلى ما هو أهمّ للسائلين وأولى لهم أن يسألوا عنه.. فالله سبحانه قد اختار لعباده ما ينفعهم ووجههم إلى ما هم بحاجة إلى معرفته، حتى من غير أن يسألوه عنه. وذلك من رحمته بهم..

وهذا النوع الوارد في النص القرآني هو من أسلوب الحكيم المتميّز بطابع الهِداية والموعظة. ولذلك لا ينبغي أنْ يُحْمَل على أنه من التظاهر أو التحاشي المعهود، لأنه من كلام الحكيم الخبير المنزّه عن كلّ نظير. أمّا ما كان من كلام البشر- كما هو شأن الشعراء والأدباء — ففيه من التظاهر والتحاشي ما فيه، وذلك ناتج عن ظروف التخاطب بين الناس، وما يجول بجواطرهم من المعاني والأغراض. ولا يجوز أن يُحْمَل كلام الله في كل الأحوال على ما يحمل عليه كلام البشر.

الفصل الثاني

المحسنات اللفظية

المبحث الأول: الجناس

تعريف :

الجناس من المحسنات اللفظية، وهو تشابه كلمتيْن واتفاقهما ([1]) لفظاً مع اختلافهما في المعنى. فالنظر فيه يكون من جهة هذا التشابه اللفظي بين الكلمتيْن، ولهذا فهو من المحسنات اللفظية عند البلاغيين. وهو نوعان: جناس تام وجناس ناقص.

أولاً: الجناس التّام:

الجناس التام هو الذي تتّفق فيه الكلمتان في أربعة أمور هي: نوع الحروف، وعددها، وشكلها، وترتيبها.

* ومثال الجناس التام قوله تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة .﴾ [الروم/٥٥] فالساعة الأولى يراد بها يوم القيامة، والساعة الثانية يراد بها المدة من الزمن.

ومثاله أيضا قول الشاعر: [من السريع]

إذا رماك الدهر في معشر ** قد أجمع الناس على بغضهم

فدارهم مادمت في دارهم ** وأرضهم مادمت في أرضهم

---

[1] هذا التشابه والاتفاق يشمل الكلمتيْن في حال كونهما اسمين أو فعلين أو حرفين. وقد تكون إحدى الكلمتيْن اسماً والثانية فعلاً.

فـ(دارهم) الأولى فعل أمر من (دارَى– يُداري) و (دارهم) الثانية اسم الدار مضافة إليهم. و(أرضهم) الأولى فعل أمر من (أرضى– يُرضِي) و(أرضهم) الثانية اسم الأرض مضافة إليهم.

فنحن نرى أنّ الكلمتيْن كأنهما كلمة واحدة مكررة، لولا أنّ المعنى يفرّق بينهما. وهذا هو الجناس التام إذْ تكون الكلمة صورة مطابقة في اللفظ والشكل للكلمة الأخرى من غير تغيير في اللفظ. لكنهما في المعنى مختلفتان متباعدتان.فالجناس التام إذاً هو تقارب لفظي وتباعد معنوي.

ومن أمثلة الجناس التام في الشعر قول أحدهم: [من البسيط]

لو زارنا طيف ذات الخال أحيانا ** و نحن في حفر الأجداث أحيانا

فقول الشاعر في صدر البيت (أحيانا) يريد به (أوقاتاً) أمّا قوله (أحيانا) في عجُز البيت فهو فعل ماض يريد به (الحياة) التي هي ضدّ الموت. وبين الكلمتيْن جناس تام إذْ تتفقان في نوع الحروف وعددها وشكلها وترتيبها.

ثانياً: الجناس الناقص:

الجناس الناقص هو الذي تختلف فيه الكلمتان في أحد الأمور الأربعة التي ذكرناها آنفاً، وهي (نوع الحروف، وعددها، وشكلها، وترتيبها) ونجده في النثر وفي الشعر.

ومن أمثلته في النثر قولهم: (الهوى مطيّة الهوان..) فههنا قد اختلفت الكلمتان في عدد الحروف، إذ تزيد الثانية بحرف على الأولى ؛ ومثاله أيضاً

قولنا: (من عين تذرف العَبْرة يأخذ اللبيب العِبْرَة.) فهذا اختلاف بين الكلمتيْن في حركة من حركات الشكل، إذ جاءت العيْن مفتوحة في الأولى ومكسورة في الثانية ؛ ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم:) الخيل معقود في نواصيها الخير..) فالاختلاف ههنا بين الكلمتيْن في طبيعة الحرف الأخير الذي هو اللاّم في الأولى، والراء في الثانية.

ومثال الجناس الناقص في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر/٧٥] فالجناس موجود بين لفظي: تفرحون و تمرحون، وهو جناس ناقص بسبب الاختلاف في طبيعة الحرف الثاني، إذ جاء فاءً في الكلمة الأولى، وميماً في الكلمة الثانية. ومنه أيضاً قول آخر: [من الكامل]

أشكو و أشكر فعله ** فاعجبْ لشاك منه شاكر

طرفي و طرف النّجم فيـ ** ـه كلاهما ساهٍ وساهر

فقوله: (أشكو وأشكر) بينهما جناس ناقص بسبب تغيّر طبيعة الحرف الأخير الذي جاء في الكلمة الأولى واواً، وجاء في الثانية راءً. وكذلك هناك جناس مماثل له في عجُز البيت نفسه بين قوله: (شاكِ وشاكر) وأمّا بين الكلمتيْن: (طرفي وطرف النجم) في صدر البيت الثاني فثمة جناس تام، لأنّ العبْرة بما تكون عليه الكلمتان لا بما يضاف إليهما، كما في ياء المتكلم ولفظ النجم هنا.. وأمّا في عجُز البيت نفسه فثمة جناس ناقص

بين كلمتي: (ساه وساهر) بسبب اختلاف طبيعة الحرف الأخير كما مَرّ في البيت الذي قبله. ومن الجناس الناقص قول **الأحنف**:[من الوافر]

حسامُك فيه للأحباب فتحٌ ** ورُمحك فيه الأعداء حتْفٌ

فالكلمتان (فتحٌ و حتْفٌ) قد اختلفتا في ترتيب الكلمات، على الرغم من اتفاقهما في نوع الحروف وعددها.

تنبيه:

بيّنّا أنّ الجناس هو التماثل بين الألفاظ، وأنه، لأجل ذلك، عُدَّ من المحسنات اللفظية. لكننا نجد من البلاغيين المتأخّرين من تكلّم عمّا يسمّى بالجناس المعنوي. وما هو إلاّ ضرب من التعبير الذي لا يدخل في هذا النوع من المحسنات اللفظية، لأنّ مجاله أقرب إلى تحليل المعاني منه إلى التماثل اللفظي بين الكلمات.. ثمّ إنّ الكلام عن الجناس المعنوي هو ممّا يتناقض مع المبدأ المتبع في تحديد معنى الجناس، ألا وهو مبدأ النظر في ما بين الألفاظ من تجانس يتعلق بحروف الكلمات لا بمعانيها.. ومن الجناس المعنوي عندهم قول أحد الشعراء: [من البسيط]

مُنعَّم الجسم تحكي الماءَ رقّتُه ** وقلبُه قسوة يحكي أبا أوس

فـ(أوس) هو ذلك الشاعر الجاهلي الذي يتميز شعره بالرقّة، لكن الشاعر هنا لم يذْكر رقة شعره بوضوح وإنما أشار إليها برقة الماء. والمراد

بـ(أبي أوس) هو (حُجـر) [1]. وقد أشار الشاعر إلى قساوته. ولكنه لم يذْكُر اسمَه، وإنما أضمره وذكر كنيته بما يوحي باسمه. والمعروف أيضاً أنّ القساوة صفةٌ في الحجَر، لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ من بَعْد ذَلكَ فَهيَ كَالْحجَارَة أَو أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة/٧٤] ولكن الشاعر أضمر اسم الحَجَـر وذكر صفتَـه (القسوة) فيكون لدينا ههنا إضماران: إضمار لاسم المَلك (حُجر) الذي يراد به أبو أوس الشاعر، ويقابله إضمار آخر للَفظ (حَجَر) الذي يراد به الحَجَر الحقيقي الذي توحي به كلمة (قسوة) في البيت. فالكلمتان المتجانستان هنا كلتاهما مضمرة، ولذلك أطلقوا على هذا النوع من الجناس المعنوي : (جناس الإضمار).

والصواب أنه جناس لفظي كالذي تحدثنا عنه، لأنّ كلمتي: (حُجر و حَجَر) المضمرتَيْن متشابهتان في اللفظ مختلفتان في المعنى. وهذا هو الجناس الذي هو من المحسنات اللفظية، كما عرفنا.

ونحن نطلق على هذا الضرب النادر من الجناس: (الجناس الخفيّ) لأنه لا يتضح من ظاهر الكلام كما هو الشأن في الجناس المعروف.

---

(١) أوس بن حجر: من شعراء تميم في الجاهلية، وهو زوج أم زهير بن أبي سلمى، في شعره حكمة ورقة. وله بيت متميز يعظّم فيه الله ويهين آلهة الجاهلية بقوله:

وباللات والعُزّى ومَن دان دينها ** وبالله إن الله منهن أكبـر

أمّا حُجر بن عمرو فهو ملك كندة. وهو من أجداد الشاعر الجاهلي المشهور امرئ القيس. وقد لُقّبَ حُجر هذا بـ(آكل المرار لتشـوُّه كان في وجهه.

ومن الجناس المعنوي الذي ذكروه أيضاً، ما يسمّى بـ(جناس الإشارة) الذي لا يُذْكَر فيه إلاّ أحد اللّفظيْن، ويُكتَفَى بالإشارة إلى اللفظ الآخر من غير إيراده في الكلام. ومنه قول الشاعر: [من المجتث]

ياحمزة اسمح بوصل ** وامننْ علينا بقُرْب

في ثغرك اسمُك أضحى ** مصحّفاً وبقلْبي

فاللفظ المذكور هنا هو (حمزة). وقد أشار الشاعر إلى اللفظ الثاني الناشيء عن التصحيف([1]) (غير المذكور) وهو لفظ (خمرة) إذا كان التصحيف في الثغر([2]) إذ إنّ الثغر هو السبيل إلى شرب الخمرة والانتشاء بها.. أمّا إذا كان التصحيف في القلب، فإنّ اللفظ يصبح (جمرة) إذ إنّ المعاناة من الهجر تسبّب في قلبه حُرْقةً، ووسيلة الحرق المعهودة في القلب هي الجمرة، وقد دأب الشعراء على تداول هذا المعنى.

والخلاصة في هذا أنّ ما سمّاه بعض المتأخرين بالجناس المعنوي ليس من المعنى في شيء، ذلك أنّه قائم في أساسه على اللفظ كالجناس المعهود.

ثمّ إنّ هذا الضرب من الجناس يفتقر إلى ما ينبغي تحقّقه في الجناس أن تكون الكلمتان مذكورتيْن وبينهما نوع من التقابل. وهذا ما لا يتحقق بالإضمار ولا بالإشارة والإيحاء إلى المحذوف..

---

(١) التصحيف في عرف اللغويين هو تغيير في نُقط الكلمات المتجانسة لفظياً، يؤدّي إلى تغيير معانيها وتعددها.

(٢) الثغر: هو مقدّم الفم.

القيمة الفنّية للجناس:

الجناس يمنح الكلام شدة وقع في السمع، بما له من جرس موسيقي، وتناغم إيقاعي يقوم على طرفيْن متجانستيْن. بحيث لا يتحقق هذا الإيقاع إلاّ بهما معاً. ولذلك وجب ذكرهما مجتمعتيْن في الكلام.

كما أنّ الجناس يضفي على الخطاب شكلا جمالياً يكمّل الأخرى من أجل الزيادة في جمال التصوير وإيضاح المعنى.

يُعَدّ الجناس متمّماً لفنون المعاني في تحسين أنماط التراكيب وإيضاح دلالاتها، ومتمماً لفنون البيان في تحسين أشكال التعبير وألوان التصوير.

ينبغي أن لا يكون الجناس متكلّفاً، لأنّ التكلّف فيه يُبْعده عن غايته البلاغية ويُفقده قيمته الفنّية، كما أنّ المبالغة فيه تجعل الكلام مبتذلاً ممجوجاً ممّا يبعده عن مراتب البلاغة والفصاحة.

المبحث الثاني : السجع

تعريف :

السجع من المحسنات اللفظية. ويكون بتوافق التراكيب والعبارات في الحرف الأخير. وهو في الأصل خاصّ بالنثر. لكنه يكون في الشّعر أيضا. غير أنّ وجوده في النثر أكثر شيوعاً واستعمالاً.

ومن أمثلة السجع في الشعر مثلاً قول **أبي تمام**: [من البسيط]

تدبير معتصم بالله منتقم ** لله مرتغب في الله مرتقب

فالسجع واقع في صدر البيت وعجُزه، كما هو ظاهر في نهاية العبارتيْن الأوليَيْن بحرف الميم في الصدر؛ ونهاية العبارتيْن الأخيرتيْن بحرف الباء في العجُز.

ويعرف في السجع ما يسمّى بالفاصلة. وتكون في أواخر الجمل والعبارات بحيث تضفي عليها نوعاً من التوازن والتناسب الإيقاعي.

وتُعرف الفاصلة في القرآن الكريم أكثر، إذْ نجدها فيه أرقى وأبدع، وأجمل وأوقع. والسجع في النثر بمنزلة القافية في الشعْر، من حيث الإيقاعُ الموسيقي الذي يضفيه على الكلام إذا لم يكن متكلّفاً مبالغاً فيه.

أقسام السجع:

السجع أقسام ثلاثة هي: السجع المطرّف؛ والسجع المرصّع؛ والسجع المتوازي. وفيما يأتي بيانها:

١- **السجع المطرّف** :

هو الذي تختلف فيه **الفواصل** من حيث الوزن مع اتفاقها في التقفية. ومنه قوله تعالى:﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لله وَقارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا.﴾ [نوح/١٣] وقوله تعالى:﴿ أَلَمْ نَجْعَل الْأَرْضَ مهَادًا وَالْجبَالَ أَوْتَادًا.﴾ [النبأ/٦] فالفاصلة واحدة في الآيتيْن، إذ جاءت في الآية الأولى بحرف الراء المفتوحة بالتنوين، وجاءت في الآية الثانية بحرف الدال المفتوحة بالتنوين. لكننا إذا نظرنا إلى وزن الكلمتيْن في الآية الأولى (وقاراً و أطواراً) وجدناهما مختلفتيْن. وكذلك الشأن في الآية الثانية (مهاداً و أوتاداً). فههنا لدينا توافق بين الكلمتيْن في الحرف الأخير واختلاف بينهما في الوزن.

٢- **السجع المرصّع**:

هو الذي تتّفق فيه **الكلمات** في عبارتيْن أو أكثر في الوزن وفي التقفية. ومثاله قول **الحريري** واصفاً أحد البلغاء بأنه: (يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ويقرع الأسماع بزواجر وعظه) ومثاله أيضا قول **الهمذاني** (إنّ بعد الكدر صفوًا وبعد المطر صحوًا) فالكلمتان (جواهر لفظه) تقابلان الكلمتيْن (زواجر لفظه) وتوافقهما وزناً وقافيةً. فكلمة (جواهر) توافق كلمة (زواجر) وكلمة (لفظه) توافق كلمة (وعظه).. وهذا نوع من الترصيع للكلام بتزيين ألفاظه من جهة تقابلها، ومن جهة توافقها في الوزن، وتناسبها في القافية.

٣ - السجع المتوازي :

هو الذي تتفق فيه **عبارتان أو أكثر** في الكلمة الأخيرة. ومثاله قوله تعالى:﴿ فيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ.﴾ [الغاشية/١٤] وقوله تعالى:﴿ وَالْمرْسَلَات عُرْفاً فَالْعَاصِفَات عَصْفاً.﴾ [المرسلات/٢]. فالعبارتان في كل آية تتفقان في الكلمة الأخيرة.. إذ تساوت في الآية الأولى كلمة(مرفوعة) وكلمة (موضوعة) من حيث الوزن والقافية. فالعبارتان متوازيتان في السجع.

وكذلك في الآية الثانية تساوت الكلمتان (عرفاً و عصفاً) فالعبارتان متوازيتان أيضاً. وهذا التوازي بين العبارتيْن هنا ناتج من تقابل الكلمتيْن الأخيرتيْن فيهما.

أمّا بقية الكلمات في العبارتيْن فليس بينها تقابل، وعليه فلا توازي بين العبارتيْن من جهة هذه الكلمات لاختلافها. إذ الاختلاف ظاهر بيْن كلمتي: (سُرُر وأكْوَاب) في الآية الأولى، وكذلك بيْن كلمتي: (المرسلات والعاصفات) في الآية الثانية.

مـراتب السجـع وقيمته الفنّـية:

والسجع مراتب: فأحسنه ما تساوت فقراته، كما في قوله تعالى: ﴿ في سدْر مَّخْضُود وَطَلْح مَّنْضُود وَظلّ مَّمْدُود.﴾ [الواقعة/٢٨-٢٩]

ثم ما طالت فقرته الثّانية نحو قوله تعالى :﴿ وَالنَّجْم إِذَا هَوَى مَا ظَلّ صَاحبُكُمْ وَمَا غَوَى .﴾ [النجم/١-٢]

ثم ما طالت فقرته الثالثة كما في قوله تعالى: ﴿ النَّار ذَاَت الْوَقُود إذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُود وَهُمْ عَلَىَ مَا يَفْعَلُونَ بالْمُؤْمنينَ شُهُود﴾ [البروج/٥-٧] فهذا الطول موجود بين العبارة الأولى والثانية، وهو موجود كذلك بين الثانية والثالثة بدرجة أكثر قليلاً. فالثانية أطول من الأولى ، والثالثة أطول من الثانية..

فأحسن السجع إذاً ما كانت عباراته متساوية، بحيث يظهر بينها ذلك التقابل في الوزن والتقفية بصفة مستمرة منتظمة.. ويأتي بعد ذلك ما كان متدرجاً من القِصَر إلى الطول، ولكن ليس العكس.

وهكذا.. فكلّما كانت الفقرة الأخيرة في عبارة السجع أطول من التي قبلها كان ذلك أحسن وأجمل. لأنّ في ذلك تنوّعاً في الإيقاع وانتقالاً متدرجاً من عبارة إلى عبارة أطول منها. وفي هذا التدرّج ما لا يخفى من التناسق والانسجام الإيقاعي.

ولو كان الانتقال، مثلاً، من عبارة طويلة إلى أخرى أقصر منها، ثم الرجوع إلى عبارة أطول من الثانية، من غيْر تساوٍ ولا تساوقٍ في الفقرات ولا تدرّج أو انتظام، لما وُجِد ذلك الأثر الحسَن وما له من وقع في السمع بتناسقه البديع.

يَحْسُن الوقف أحياناً على الفواصل لإظهار قيمة السجع في العبارة، ووصلها من حيث الإيقاع بما قبلها. فإذا أُهْمِلَ هذا الوقف فقَدَ السجع حُسْنَه وقيمته الفنّية وغاب فيه أثر الإيقاع وما له من وقْع على الأسماع.

تنبيه:

ليس من الصّواب ما اعتقده بعضهم من أنّ السجع قد يكون غرضاً مقصوداً لذاته، يُلْجأ إليه ويتم توجيه التراكيب لأجل تحقيقه..كما في التقديم من قوله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ. ﴾ [الحاقة/٣٠-٣١] إذْ رأى بعضهم أنّ التقديم هنا وقَع لرعاية الفاصلة. والمراد بالفاصلة هو السجع؛ فكأنّه صار مقصوداً من التقديم.

وهذا كلام مجانب للصواب، إذْ المعنى هو المراد في المقام الأول، وفيه التركيز على أنّ مصير الكافر إلى الجحيم ولا أملِ له في أن يصير إلى غيرها.. ثمّ التركيز على تلك السلسلة الرهيبة ذات السبعين ذراعاً، بأنها هي التي يُسْـلَك فيها لا في غيرها. وذلك كلّه لبيان مصير الكافر وما ينتظره من العقاب الأليم.

وهذا المعنى لا يتمّ تحقيقه بغير التقديم. وعلى هذا فإنّ التقديم هنا منشود لتحقيق غرض مقصود؛ ثمّ يأتي السجع أو رعاية الفاصلة للزيادة في توكيد المعنى وتوضيحه، وبيان سوء عاقبة الكافر العنيد. وكذلك كان السجع هنا للزيادة في تأثير الخطاب على السامع، وشدة وقعه في نفسه لعله يتّعظ ويرتدع.

وقد جاءت الآية في سياق الترهيب. وهذا من أسرار الخطاب القرآني ومزاياه التي يتفـرّد بها. إذْ يتمّ الجمع بيْن أنماط معيّنة من التراكيب- كالتقديم والتأخير والحذف والتعريف التنكير- وإيقاع الفواصل المسجوعة.

لكن هذه الفواصل لا يمكن أن تكون هي المقصودة لذاتها، بل المعنى هو الأوْلَى بالقصْد.

أمّا الفواصل فتزيده تحقيقاً وتوكيداً. وهذا ما لا يكون في الشعر إلا قليلاً. إذْ كثيرا ما يلجأ الشاعر إلى هذه الفواصل لاستقامة الوزن والقافية. فإنْ هو حاد عنها اختلّ لديه إيقاع الشعر. وهذا ما لا يكون في النص القرآني الذي يحافَظ فيه على الإيقاع مع المحافظة على ما هو مراد من المعاني والمقاصد، وهذا من إعجازه الإيقاعي والبياني معاً..

الفصل الثالث

تدبيــج الكلام

الفصل الثالث : تدبيج الكلام

تمهيد:

نعني بتدبيج الكلام تحسينه وتزيينه بكلام آخر. وهذا الكلام الآخر هو الشعر في باب التضمين؛ وهو القرآن الكريم والحديث الشريف في باب الاقتباس. غير أنّه لا بدّ من التنبيه على أنّ تدبيج الكلام بالشعر أقلّ مرتبة من تدبيجه بالقرآن والحديث. أي أنّ الاقتباس أعلى وأسمى من التضمين من حيث البلاغة والفصاحة، لأنه يأخذ من نص القرآن (وهو الأكثر) أو من نص الحديث (وهو الأقل). أمّا التضمين فيأخذ من الشعر. وليس أخذ الشعر من الشعر كأخذ الشعر من القرآن أو الحديث، لأنّ المأخوذ منه من الشعر يحتاج إلى الأخذ من القرآن، أمّا نص القرآن أو لحديث فلا يحتاج إلى أيّ أخذ من غيره ؛ فهو مأخوذ منه دائماً.

فتدبيج الكلام إذاً يشمل التضمين والاقتباس، وما كان على شاكلتهما من أنواع الاستعانة بكلام الغير لغرض تحسين الكلام وتزيينه. وينبغي أن ننبّه على أنّ التدبيج الذي نتكلم عنه هنا يشمل اللفظ والمعنى معاً، ويؤتَى به للارتقاء بكلام المقتبِس إذ يأخذ من صفات الكلام المقتبَس منه لهذا الغرض من الارتقاء بأسلوبه.

ولقد تناولنا هذا الفنّ الذي سميناه: "تدبيج الكلام" من خلال مبحثي التضمين والاقتباس. وهو غيْر ما عرفناه في المحسنات اللفظية والمعنوية.

المبحث الأول : التضميـــن

معنـــى التضميـــن:

التضمين هو تضمّن أمر لآخر، أو وجود شيء ضمن آخر. وهذا يعني أنّ ثمة تقارباً وترابطاً بينهما. إذْ لا يمكن الجمع بين المتناقضيْن، ولا المتباعديْن إلاّ بوجود جامع بينهما.

والتضمين هو الأخذ من الشعر إلى الشعر لوجود علاقة بين النص الأصلي (المأخوذ منه) والنص المتضمِّن له (المأخوذ له) على أن يكون القول المأخوذ منه معروفا. كما قد يشير المضمِّن (أي: الآخِذ) إلى القول الذي أخذ عنه وربما لا يشير إليه.

أنواع التضمـــين :

يمكن أن نميّز بين عدة أنواع من التضمين: التضمين البلاغي (الاستعاري) والتضمين العَروضي (أو تضمين الشعر) والتضمين اللغوي.

أولاً: التضميـــن البــلاغي (الاستعاري):

التضمين البلاغي هو تضمين استعاري يكون في الشعر، وقد يكون في النثر. إلاّ أنه معروف في الشعر أكثر ومأثور فيه. وهو أن يضمِّن الشاعر كلامَه بعضا من شعر غيره، باستعارة بيت من الشعر، أو شطر، أو أقل من ذلك، من شعر غيره ويجعله ضمْن شعره لوجود تقارب وتناسب بين المعنى الذي استعاره والمعنى الذي يريد التعبير عنه. والغرض من ذلك هو تدعيم

الشاعر للمعنى الذي يقصده وتقوية الفكرة التي يروم تبليغها على الصورة التي أرادها. وهذا النوع كثير شائع في الشعر العربي. وهو نوعان:

أولهما: استعارة المعنى بطريق الموافقة والإثبات، والإتيان به كما هو في سياق يلائمه. أو الإتيان بما يوافقه ويثبته.

وثانيهما: استعارة المعنى بطريق الضدّية، أي بنفي ما يستعيره من غيره مع إثبات ضدّه فيما يأتي به. وهذا أقل من الأول.

فمن النوع الأول (أي استعارة المعنى بالموافقة والإثبات) قول الشاعر: [من الطويل]

إذا دله عزم على الحزم لم يقل ** " غداً غدها إن لم تعقها العوائق "

ولكنه ماض على عـــزم يومـــه ** فيفعل ما يرضاه خلْق وخـــالق

فقد ضمّن الشاعر بيتيْه قول شاعر آخر، ويظهر ذلك في عجُز البيت الأول الذي استعاره من غيره، وجعله في سياق الكلام على الحزم وتنفيذ العزم، بما يناسب المعنى الذي أراده..

ومن ذلك أيضا قول الشاعر: [من الكامل]

أصبحتُ بين معاشر هجروا الندى ** وتقبّلوا الأخلاق عن أسلافهم

قـــوم أحاول نيـــلهم فكأنما ** حاولت نتف الشعر من آنافهم

هات اسقنيها بالكبير وغنّـــي ** " ذهب الذين يعاش في أكنافهم

فالتضمين الاستعاري عند الشاعر هنا ظاهر في عجُـــز البيت الأخير، وهو من شعر غيره. إذ استعار المعنى الأخير بما يتناسب مع ما أراده، ثم جعله

في سياقه. وهذا النوع من التضمين كثير في كتب الأدب والبلاغة. كالذي أورده الخطيب **القزويني** في الإيضاح([1]). ومنه على سبيل المثال قول **الحريري**: [من الوافر]

على أنّي سأنشد عند بيعي ** " أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا "

فعجُز البيت، قيل هو **للعرجي**، وقيل **لأميّة** بن الصلت. وهو في أصله صدْرٌ لبيتٍ آخر وعجُزه هو: [من الوافر]

.... ** ليوم كريهةٍ وسداد ثغْر

ولا حاجة إلى تقدير هذا الشطر المحذوف، لتمام المعنى بدونه.

ومن هذا النوع قولنا: ([2]) [من البسيط]

" مَن يفعل الخير لا يعدمْ جوازيَه" ** الناس شهّدُه والله يرعاه

يا فاعل الخير لا تبغي به بدلاً ** سوى رضا الله إنّ الله يرضاه

فصدْر البيت الأول شبيه بصدر بيت **الحطيئة** في قوله: [من البسيط]

" مَن يفعل الخير لا يعدمْ جوازيَه" ** لا يذهب العُرْف بين الله والناس

والحق أنّنا لم نستحضر قول **الحطيئة** عند قولنا لهذيْن البيتيْن، فلعلّه من توارد الخواطر، وهذا ما نرجحه، وما أكثر مثل هذا في التراث العربي.

ومن هذا النوع من التضمين الاستعاري أيضاً قول **أبي الطيب** في وصف رجل بـه داء: [من الوافر]

---

[1] ينظر الإيضاح في علوم البلاغة: ص٣٨٣ – ٣٨٥

[2] البيتان للمؤلف في الحث على فعل الخير والمضي فيه وانتظار ثوابه من الله.

أقول لمعشر غلطوا وغضّوا ** عن الشيخ الرشيد وأنكروه
هو ابن جلا وطلاّع الثنايا ** " متى يضع العمامة تعرفوه "

فقد ضمّن شعْره بيتاً برمّته، وهو قول **سحيم** بن وثيل: [من الوافر]

أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا ** متى أضع العمامة تعرفوني.

وبيت سحيم هذا، هو الذي أنشده **الحجاج** بن يوسف مفتتحاً به خطبته لـمّا عُيِّنَ والياً على العراق، ولم يقله إلاّ بعد ساعة من صمته ظنّ الناس خلالها أنه لا يقدر على الكلام. ولكنّ ذلك كان أمراً مقصوداً منه.

وعند المظفّر **العلوي** يسمّى هذا النوع من التضمين:" تضميناً وتسميطاً وتوشيحاً. ولهذيْن الفنّيْن معنيان مختلفان عن التضمين، ولكنه سماهما كذلك." ([1]). قال **المظفّر**: " باب التضمين ويسمّى التسميط والتوشيح، وهذا في أشعار العرب قليل جدّاً. وقد استعمل المحدثون ما لا يأتي عليه الإحصاء كثرةً وعدّاً. واليسير منه دليل على الكثير..." ([2])

وما هذا بتسميط ولا توشيح، وإنما هو تضمين. وليس التضمين واحداً منهما. إذ **التسميط** هو أن يجعل الشاعر بيته مقسّماً إلى أربعة أقسام، بحيث تكون الأقسام الثلاثة الأولى على سجع واحد، وأمّا القسم الرابع الذي تقع فيه قافية البيت فيكون على خلاف الثلاثة التي قبله.

---

(١) الدكتور أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ص٣٧٣

(٢) المرجع نفسه: ص٣٧٣ . (وسبب قلّته عند القدماء هي أنهم يعدونه من عيوب الشعر. أما كثرته عند المتأخرين فدليل على أنه ليس من عيوب الشعر، بل هو من المستحسَن عندهم.)

ومن ذلك مثلاً قول بعضهم: [من التقارب]

وحربٍ وردْتَ وثغْرٍ سددْتَ ** وعِلْجٍ شددْتَ عليه الحبالا

وأمّا **التوشيح** فهو أن يشيد أول البيت بقافيته، وأول الكلام بآخره. كقول **البحتري**: [من الطويل]

فليس الذي حلّلته بمحرم ** وليس الذي حرمته بمحلل

ومثاله من القرآن قوله تعالى:﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِه وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّٰهَ يَتُوبُ عَلَيْه﴾ [المائدة/ ٥] . فلا يكون التضمين إذاً توشيحاً، لأنه مختص بتضمين الكلام وإدماج بعضه في بعض لغرض مقصود وهدف منشود.

ومن أجود ما في التضمين، ما قاله **ابن جابر** الأندلسي مشيراً إلى ما جاء في البيت الأول لحجل بن نضلة، إذْ قال: [من السريع]

جاء شقيق عارضاً رمحه ** إنّ بني عمّك فيهم رماح

هل أحدث الدهر لنا ذلّةً ** أم هل رمتْ أمّ شقيق سلاح

فضمّن **ابن جابر** بيْتاً له ما جاء في معنى صدر البيت الأول فقال:

سامحَ بالوصل على بخْله ** وقال لي أنت بوصْلي حقيق

إلى أن يقول: [من السريع]

وإذْ تدلّلْتُ على حبّه ** فقال: ما تخشى؟ أما تستفيق؟!

قَدّي وخَدّي خفْهما يا فتى ** هذا هو الرمح، وهذا شقيق

وضمّن **أبو جعفر** الأندلسي أيضاً بيْتاً له كلا المعنييْن السابقيْن في صدر البيت الأول **لحجل** وعجُز البيت الثاني **لجابر**، ولم يخرج على بحر السريع، إذْ قال: [من السريع]

أبْدتْ لـنا الصُّدْغَ على خدّها ** ليطْلع الليل لنا صُبْحَه

فخدّها مـعْ قـدّها قائـلٌ ** هذا شقيقٌ عارض رمحَه

وضمّـن **ابن الوردي** أيضاً بيْتاً له معنى صدر البيت الأول **لحجل** بن نضلة – مختاراً هو كذلك وزن السريع – قائلاً:

لّما رأى الزّهر الشقيق انـثنى ** منهزماً لم يستـطع لمحَه

وقال: مَنْ جاء؟ فقلـنا لـه: ** جاء شقيـقٌ عارضاً رمحَه

فلقد جاء **جابر** – في عجُز بيته الثاني – بما يثبت المعنى ويوافقه، مما جاء في البيت الأول **لحجل**. وجاء **أبو جعفر**– في صدر بيته الثاني – بما يوافق المعنى ويثبته، مما جاء في البيت الأول **لحجل**؛ وكذلك جاء **أبو جعفر**– في عجُز بيته الثاني – بما يوافق المعنى ويثبته مما جاء في صدر البيت الأول **لابن جابر**. ثـمّ جاء **ابن الوردي** – في عجُز بيته الثاني – بما يثبت المعنى ويوافقه مما جاء في البيت الأول **لحجل** .

والملاحظ أنّ هذا التضمين جاء متعدداً متسلسلاً، انطلاقاً ممّا قاله **حجل فابن جابر فأبو جعفر فابن الوردي**.. فههنا تضمينات متعددة متتالية يأخذ أحدها بالآخر. وهذا ما أضفى حسْناً ورونقا وانسجاماً واتّساقاً فيما بينها على الرغم من تنوع سياقاها.. وقد جاءت كلّها على وزن السريع

وقافيته، كما أنها لم تخرج عن رويّ القاف والحاء، بما تضمّنـاه من رمز للكلمتيْن اللتيْن هما الأساس والمحور الذي عليه مدار الكلام في هذه الأبيات كلّها، وهما : (شقيق والرمح). وهذا ممّا زاد الأبيات تلاؤماً في الموسيقى وتناغماً في الإيقاع فحظيت بحسن الوقع في الأسماع، وألقت في النفس ما ألقت من التأثير والإمتاع.. (1)

ومن النوع الثانـي (أي استعارة المعنى بالضّديـة) قول **عنترة** في معلّقته : [من الكامل]

إذْ يتّقون بي الأسنّة لم أخمْ ** عنها ولكنّي تضايق مقدمي (2)

هذا البيت أخذه **الأخطل** وضمّنه قوله: [من الكامل]

ولقد سما للخرّميِّ فلم يقل ** بعد الوغى: لكنْ تضايق مقدمي (3)

---

(1) ينظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي: (ت ٩٦٣هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد/ ط: عالم الكتب – بيروت- لبنان(١٣٦٧هـ/١٩٤٧م).٧٢/١. ضمن شواهد لم المعاني

(2) ورد في رواية أخرى للعجُـز: (ولو أنّي تضايق مقدمي). **ومعنى البيت:** لّما جعلني أصحابي حاجزا بينهم و بين الأسنّة لم أجبـن و لكن تعذّر عليّ التقدّم.

(3) الأخطل (غياث التغلبي) يُقال إنه لُقّب بهذا اللقب لطول لسانه أو لاتخاء أذنيه. كـان نصرانياً من بني تغلب، اتصل بالأمويين فغدا شاعرهم الخاص الذي ينـصرهم بلـسانه، ‘لى جانب نصرة قومه لهم برجالهم. وقد كانت منافحته عنهم ومدحه لهم وهجاؤه لأعـدائهم نواة أولى لما غدا يُعرف بالشعر السياسي../ و الخرّميّ: اسم أحد الثّائرين على العبّاسيين.. ولعلّه منسوب إلى مدينة فارسية بالقرب من شط العرب اسمها (خُرَّم شهر) ولعله من اسم بدعة نشأت في خراسان، واشتدتْ بعد مقتل ابي مسلم الخراساني، وثار زعيمها (**بابك**)=

وقيل أخذه كذلك **مسلم بن الوليد** ([1]) [ت ٢٠٨هـ]
وضمّنه قوله: [من الكامل]

ولقد سما للخرّميِّ فلم يقل ** يوم الوغى: إنّي تضايق مقدمي

فقد أتى بالعبارة نفسها (تضايق مقدمي) في عجُز البيت، وهي بعض من العجُز. لكن **عنترة** أثبت تضايق مقدمه، بينما أخذه **مسلم** بن الوليد على الضّد، إذْ نفى تضايق مقدمه. فهو قد ضمّن كلامه كلام **عنترة**، لكنه فعل ذلك بطريق الضّدية.

ومن هذا النوع الثاني أيضاً قول **زهير** في مدح **هرم بن سنان** : [من البسيط]

إنّ البخيل ملوم حيث كان ولـ ** ـكنّ الجواد على علاّته هَرِمُ

فقد ضمّنه أحد الشّعراء قوله : [من البسيط]

لو أنّ عين زهير أبصرت حَسَنًا ** وكيف يفعل في أمواله الكرمُ
إذًا لقال زهير حين يبصره ** هذا الجواد على العلاّت لا هرمُ

= على الدولة العباسية؛ ولكن قضى عليها (الأفشين) في عهد الخليفة المعتصم. والأفشين: هو قائد تركي [ت ٢٢٦هـ] قاد جيوش المعتصم في غزوات بلاد الروم في آسيا الصغرى؛ وانتصر في موقعة عمورية؛ ولكنه فيما بعد رُمِيَ بالكفْر ومات في السجن./ وروي عجُز البيت بـ (بعد الونى) بدلاً من (بعد الوغى).

(١) مسلم بن الوليد: هو شاعر من العهد العباسي الأول، ولد ونشأ بالكوفة وتوفي بجرجان، لُقّب (صريع الغواني) مدح هارون الرشيد والبرامكة والفضل بن سهل وزير المأمون، وولي البريد بجرجان؛ وكان مجدّدا في شعره يتعمّد فيه البديع مع المحافظة على النسق الشعري القديم في المعاني والصيغ.

فالتضمين بادٍ في عجُز البيت الثاني. وقد استعار الشاعر فيه المعنى بالضّدية، **فزهير** يقر بالجود **لهرم** بن سنان. أمّا الشاعر الثاني فيثبت الجود **لحسَن** وينفيه عن **هرم**. فهو قد أتى بعبارة (على العلاّت...هرم) وتصرّف فيها بالنفي، مستعيناً بها لتدعيم فكرته وما أراده من المعنى المتمثل في نسبة الجود إلى **حسَن**..

وهذا النوع من التضمين قد يكون جزئياً على مستوى الجملة أو العبارة أو على مستوى الشطر من البيت. وقد يكون كُلّياً على مستوى البيت بكامله وهو ما يسميه **القزويني** تضمين البيت. ([1]).

وقد عدّه بعض البلاغيين هذا النوع من التضمين من قبيل السرقات الشعرية، وما هو كذلك؛ لأنّ السرقة هي أن أخذ كلام الغير ونسبته إلى النفس. وهذا يكون فيما يسمّى بالانتحال أو النسخ أو السلخ أو ما كان بمثل هذه الصفات.

أمّا الاستعانة بكلام الغير لغرض التحسين والتدبيج بدافع الإعجاب والاستحسان فليس من السرقة ما لم يَدَّع الآخذُ أنّه له وينسبه لنفسه.

ثانياً: التضمين العَروضي:

هذا النوع من التضمين خاص بالشعر. ويتمثل في اتّصال الأبيات بعضها ببعض من جهة القافية والمعنى معاً، بحيث لا يتمّ معنى بيت إلاّ بالبيت الذي يليه. والشعر الذي يشتمل على هذا التضمين معدود عند بعض البلاغيين والنّقّاد القدامى من المستقبح المستهجن..

---

[1] ينظر الإيضاح: ص٣٨٥

وقد قصد البلاغيون بالتضمين هنا أن يكون المعنى متضمَّناً في بيتيْن أو أكثر، فلا يكتمل المعنى في البيت السابق إلاّ بمجيء البيت اللاحق له. ويدلّ على هذا التضمين ما يكون بين البيتيْن من اتصال في القافية، واتصال لغوي لا يتم المعنى إلاّ به.

وقد نسبوا هذا النوع من التضمين إلى العَروض، وعدّوه من عيوب الشعر. وهو عندهم " أنْ يُبْنَى بيت على كلام يكون معناه في بيت يتلوه مِنْ بعده مقتضياً له. أو هو أن تتعلّق القافية أو لفظة مما قبلها بما بعدها." (١) كقول الشاعر: [من الوافر]

كأنّ القلب ليلة قيل يغدي ** بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزّها شرك فباتتْ ** تجاذبه وقد علق الجناح

فهذان البيتان بينهما اتصال في المعنى يظهر من خلال اكتمال صورة التشبيه في البيت الثاني، بحيث لا يمكن الاكتفاء بالبيت الأول لفهم المعنى المراد، ولا يمكن السكوت على شطر التشبيه الأول، إلاّ بوجود البيت الثاني الذي به يتضح المعنى..

وقد يكون الاتصال بين البيتين-أو أكثر من ذلك- أقوى، و تكون حاجة الأول إلى الثاني أشدّ. وكلّما احتاج البيت الأول إلى الثّاني أكثر واتصل به اتّصالا قويّا، كان ذلك أقبح وأكثر استهجاناً عند القدامى. وأمثلة

---

(١) ينظر مفتاح العلوم للسكاكي: ص٢٧٣ ؛ والصناعتيْن لأبي هلال العسكري: ٣٦ ؛ والعمدة لابن رشيق: ١/١٧١

هذا النوع كثيرة في شعر العرب، منها على سبيل المثال قول **النّابغة الذبياني**:
[من الوافر]

وهم وردوا الجفار على تميم ** وهم أصحاب يوم عكاظ، إنّي
شهدت لهم مواطن صادقات ** أتيتُهمُ بودّ الصّدر منّي (١)

ذلك أنّ البلاغيين كانوا يرون أنّ أحسن المعاني ما كان مكتملاً في بيته، غير محتاج إلى غيره. إذ كان البيت عندهم يحظى بقيمة كبرى. وعدم إصابة المعنى في البيت الأول- إلاّ محتاجاً لبيت آخر لإتمامه- هو في نظرهم تقصير من الشاعر وعجْز عن بلوغ المراد.

ويرى **ابن رشيق** أنه " كلما كانت اللفظة المتعلقة بالبيت الثاني بعيدة من القافية كان أسهل عيباً من التضمين." (٢) لكنّ **ابن الأثير** لا يَعُدّ ذلك من العيوب. (٣)

وإذا نظرنا إلى ذلك من خلال النّقد الحديث وجدناه مثالاً جلياً عمّا يسمّى بالوحدة العضوية في القصيدة، بحيث لا يستغني بيت عن الآخر في القصيدة الواحدة. إذ البيت من القصيدة بمنزلة العضو من الجسد، فإذا تمّ تعطيل أحد الأعضاء عن دوره اختلّ توازن الجسم.

---

(١) في بعض الروايات: (صالحات) بدل (صادقات) ؛ و (حسْن الظنّ) بدل (ودّ الصدر).
(٢) ابن رشيق: العمدة: ١/١٧١
(٣) ابن الأثير: المثل السائر: ٢/٣٤٢

وعلى هذا فالتضمين العروضي الذي عدّه بعض البلاغيين والنّقّاد القدامى من عيوب الشعر لقصور البيت عن تمام المعنى بمفرده، ولشدة احتياجه إلى البيت الذي يليه من جهة القافية والمعنى..

هذا التضمين يُعَدّ عند النّقّاد المحدثين مزية في الشعر إذْ يدلّ على تماسك القصيدة وشدة ترابط أبياهما وتلاحمها.

ونحن إذا تأمّلْنا هذا النوع من التضمين بدا لنا ما فيه من اتصال الكلام بعضه ببعض. بحيث لا تكتمل الفكرة، ولا يفهم المعنى إلاّ بأكثر من بيت واحد.

وهذا في رأينا ليس بعيب، ولا هو من المستقبح. بل إنّ ذلك لون من ألوان الإبداع الشعري الذي يوصَل فيه الكلام وصلاً فنّياً. وهو موصول بنفسية الشاعر وما ينتابه من إحساس يروم التعبير عنه.

فكأنّ **النابغة** وهو يصل هذا البيت بذاك يريد أن يصل شهادته بما أخبر به عن هؤلاء القوم. وكأنه حريص على التصريح بهذه الشهادة مخافة أن لا تكون محلّ اهتمام ممن يتلقى عنه الخبر. فكأنّي به لا يعطي السامع المعنى الكامل الذي يريد إبلاغه به إلاّ موصولاً بهذه الشهادة المؤكّدة. فجاء هذا الكلام في أوله محتاجاً إلى آخره ليتمّ معناه. وهذا من فنون البلاغة العربية واسرارها.

ثالثاً: التضمين اللغوي:

هذا التضمين مجاله اللغة بنحوها وصرفها. وهو إعطاء الكلمة معنى كلمة أخرى. بحيث تكون الكلمة المضمّنة (المذكورة) أدلّ على المعنى المقصود من الكلمة الأصلية (غير المذكورة).. ويكون هذا التضمين في الأسماء وفي الأفعال وفي الحروف. فأما في الأسماء فهو أنْ تُضمّن اسماً معنى اسم آخر لإفادة معنى الاسميْن جميعاً. كقوله تعالى: ﴿حَقيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَىَ الله إلاَّ الْحَقَّ. ﴾ [الأعراف/١٠٥] فقوله: (حقيق) قدْ ضُمِّن معنى (حريص) ليفيد أنه محقوق يقول الحق وحريص عليه.

وأمّا في الأفعال فهو تضمين فعْل معنى فعْل آخر، بحيث يكون فيه معنى الفعْليْن جميعاً. وذلك بأن يكون الفعل ممّا يتعدّى بحرف، فيأتي متعدّياً بحرف آخر ليس من المعهود التعدّي به، فيحتاج إمّا إلى تأويله أو تأويل الفعل ليصحّ تعدّيه به. (1)

ومن التضمين في الحروف ما يكون مثلاً من تضمين بعض حروف الجر معاني حروف جرّ أخرى.كما في قوله تعالى فيما قاله فرعون مهددا مَن آمن مع موسى عليه السلام: ﴿ ولأصلّبنّكم **في** جذوع النخل ﴾ [طه/٧١] فالحرف (في) قد ضُمِّنَ معنى الحرف (على).

ويشمل تضمين الحرف سائر حروف المعاني كحروف الجر والعطف والشرط وغيرها.. فالتضمين اللغوي هو أنّ تُستعمَل كلمة بمعنى

(1) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣/٣٣٨

كلمة أخرى، اسماً كانت أم فعلاً أم حرفاً. لغرض يقصده المتكلّم، بحيث لا تكون إصابة ذلك الغرض إلاّ بهذا التضمين. فإنْ عدل عن التضمين قصُر اللفظ عن أداء المعنى المراد منـــه. وهذا النوع من التضمين باب واسع في العربية يتجلّى فيه ثراؤها وسعتها في باب فنونُ القول وأساليب التعبير.

وقد تكلم **الباقلاني** عن التضمين من جهة ما تقتضيه دلالة الكلمة أو العبارة من معنى ناتج عن استعمال كلمة أو عبارة أخرى.

وقد قال عنه بأنه " حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم أو صفة هي عبارة عنه، وذلك على وجهيْـــن: **تضميـــن توجبه البنية** كقولنا: (معلوم) يوجب أنه لا بد من عالم. **وتضميـــن يوجبه معنى العبارة** من حيث لا يصحّ إلاّ به، كالصفة (بضارب) يدل على (مضروب) والتضمين كله إيجاز. والتضمين الذي تدل عليه دلالات القياس أيضاً إيجاز. وذكر أن (بسم الله الرحمن الرحيم) من باب التضمين، لأنه تضمّن تعليم الاستفتاح في الأمور باسمه، على جهة التعظيم لله تبارك وتعالى، أو التبرّك باسمه." ([1]) فالتضمين عند **الباقلاني** هو كل كلمة أو عبارة دلّتْ ببنيتها أو بمعناها على كلمة أو عبارة أخرى بطريق الاستلزام. وهو عنده أيضا كلّ ما كان مذكوراً وله دلالة على غيره. ويدخل في هذا كل ما يستنـــتج من معاني الكلام وأغراضه..

---

[1] الباقلاني: إعجاز القرآن: ص٣٠٠

المبحث الثاني : الاقتباس

تعريف :

الاقتباس هو توشيح الكلام وتدبيجه بأخذ شيء من القرآن الكريم أو الحديث الشريف بقصد تحسين نظمه والرفع من شأنه. وذلك من غير التنبيه عليه للعلم به.

وينبغي أن يكون الاقتباس بقدر ما تدعو الحاجة إليه، إنْ في القدر الذي يؤتَى به من نص القرآن أو الحديث، أو في ملاءمة سياق الكلام ومقامه للنص المقتبَس.

وقد مزج البلاغيون بين الاقتباس في الاصطلاح والتضمين بالمعنى اللغوي، فقالوا إنّ الاقتباس هو " أن يُضمَّن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث، لا على أنه منه." (١) وقالوا أيضاً، هو " أن يُضمَّن الكلام نثراً أو نظماً شيئاً من القرآن أو الحديث. " (٢) وحدّده بعضهم بأنه " مأخوذ من اقتباس الضوء، وهو أن يُضمَّن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث النبوي. والمراد بتضمينه أن يذكر كلاما وجد نظمه في القرآن أو السّنّة مرادا به غير القرآن.." (٣)

---

(١) القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة. ٣٨١.

(٢) الشريف الجرجاني: التعريفات – دار الكتُب العلمية – بيروت لبنان. ص ٣٧

(٣) البهاء السبكي: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان/ط١ . ٣/٤٢١

طُرُق الاقتباس وجهاته:

جعل بعض البلاغيين، ومنهم **الثعالبي**، الاقتباسَ على ثلاث جهات. "والمقصود بجهات الاقتباس: المنحى أو الهدف الذي قصد المنشيء المُقتبِسُ إلى الإفادة منه، كما يتضح من خلال النص الجديد، فيصرف النظر عن مصدر لجوء المقتبس، وهل هو القرآن أو الحديث، فإن مناحي الإفادة من الأجزاء المقتبسة – كما تتجلى في النصوص الجديدة التي تشتمل عليها – هذه المناحي تختلف من حالة إلى أخرى. ووفقاً لتصور الناقد العربي لتَكَوُّن النص اللغوي من عنصري اللفظ والمعنى، فقد حملت تصريحات الثعالبي ما يفيد اتجاه المقتبسين إلى المعنى تارة، وإلى اللفظ أخرى، وإليهما معاً في بعض الأحيان.." ([1]) .

وجهات الاقتباس هذه هي: الاقتباس في المعنى، والاقتباس في اللفظ والاقتباس في اللفظ والمعنى معاً. وهذا ما أخذ به أستاذنا الدكتور **عبد الحكيم راضي**، غير أنه لاحظ أن **الثعالبي** لا يثبت عند ضابط معيّن في العلاقة بين المصطلح ومفهومه. ([2]) وسنوجز الكلام عن هذه الجهات فيما يأتي: ([3])

---

(١) الدكتور عبد الحكيم راضي: من آفاق الفكر البلاغي عند العرب– مكتبة الآداب – القاهرة /ط١ (٢٠٠٦م) ص٢٤٦

(٢) ينظر: من آفاق الفكر البلاغي عند العرب: ص ٢٤٨

(٣) ينظر: المرجع نفسه: ص ٢٤٦ وما يليها.

فمن اقتباس المعنى، مثلاً قوله ﷺ: (علامات المنافق ثلاث: إذا اؤتمن خان وإذا وعد أخلف وإذا حدّث كذب) ومعناه مقتبس من قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِه لَنَصّدّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ؛ فَلَمّا آتَاهُم مّنْ فَضْلِه بَخِلُوا بِه وَتَوَلّوْا وَهُم مُعْرِضُونَ؛ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلوُبِهِمْ إلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يكذبُونَ ﴾ [التوبة/٧٥- ٧٦]

ومن اقتباس اللفظ قوله ﷺ: (من باع داراً أو عقاراً فلم يجعل ثمنها في مثلها كان كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف)

فهذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ الّذينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ. ﴾ [إبراهيم/١٨]

ومن اقتباس اللفظ والمعنى معاً، قول **أبي فراس** الحمداني:

لا تعجبوا ربّنا قديــرٌ ** يزيد في الخلْق ما يشــاء

فهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر/١]

فالعبارة المقتبسة (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء) وقد وردتْ بلفظها ومعناها، إذْ أراد الشاعر أنْ يقوّيَ كلامه بالأخذ من القرآن الكريم لفظا ومعنى.

ومن هذا القبيل أيضاً ما جاء فيما أنزله على نبيه داود عليه السلام: (من يفعل الخير يجده عندي لا يذهب العُرف بيني وبين عبدي) فهذا المعنى نفسُه نجده عند الحطيئة في قوله: [من البسيط]

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ** لا يذهب العرف بين الله والناس

والذي يمكن ملاحظته على هذه الجهات هو أنّ الاقتباس - على رأي بعضهم - قد يكون في اللفظ مستقلاًّ عن المعنى، وقد يكون في المعنى مستقلاًّ عن اللفظ، وقد يكون في كليهما. وفي هذا فصل بين اللفظ والمعنى في الاقتباس، وهو ما لا نأخذ به، إذ الصواب أنه لا اقتباس إلاّ من اللفظ والمعنى معاً، من غير فصل بينهما. لأنه لا يمكن الكلام عن الاقتباس ما لم يكن ثمة تشابه جليٌّ بين ألفاظ الكلام المقتبَس، وألفاظ الكلام المقتبَس منه، كما أنه لا يمكن لجوء المقتبِس إلى هذا النمط من التعبير المثالي إلاّ لما فيه من المعنى الذي أعجبه واستهواه. ثمّ إنه لا يمكن الكلام عموماً عن اللفظ إلاّ مع معناه، وكذلك العكس. وبهذا يكون من الصواب القول بأن الاقتباس يشمل اللفظ والمعنى معاً، ولا يصحّ الفصل بين هذيْن الطرفين في الاقتباس، لأنّ الكلام لا يكون بأحدهما دون الآخر.

الاقتباس بيْن الردّ والقبول:

إذا نظرنا إلى الاقتباس من منظور ديني وجدنا أنه كان محظوراً عند بعض علماء الشرع مباحاً عند بعضهم الآخر. فأمّا حظره فراجعٌ إلى ما قد يترتب عليه من المبالغة في استعمال نص القرآن والحديث في غير ما يليق

بهما. فكان حظره عند البعض بدافع الخوف على القرآن الكريم والحديث الشريف من أن يكون قبول الاقتباس مدخلاً إلى الجرأة على نص القرآن والحديث والاستدراج إلى ما لا ينبغي أن يكون..

أمّا الذين حظروه من الأوائل فهم علماء المالكية وقد شدّدوا على ذلك. ولم يتعرض له غير المالكية من المتقدمين. ولكنه شاع عند بعض العلماء المتأخرين. فقد أجازه العلاّمة **عز الدين** بن عبد السلام. واستدلّ على ذلك بما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قوله: (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين.) وقوله: (اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً اقضِ عنّي الدَّيْن وأغنني من الفقر.) وكذلك ما ورد في سياق كلام **لأُبَيّ** رضي الله عنه: (وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.)

فهذا ممّا يدلّ على وروده وجوازه في المواعظ والثناء والدعاء، وفي النثر عموماً. ولكن لا دلالة فيه على جوازه في الشعر لعدم وروده عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد ورد عن الشريف إسماعيل **بن المقري** في شرح بديعته: الاقتباس ثلاثة أقسام: مقبول ومباح ومردود. فأما **الأول** (المقبول) فهو ما كان في الخطب والمواعظ والعهود؛ وأما **الثاني** (المباح) فهو ما كان في الغزل والرسائل والقصص؛ وأما **الثالث** (المردود) فهو على صورتيْن: **أولاهما**: ما

نسبه الله تعالى إلى نفسه. **وثانيتهما**: ما يقع في تضمين آية كريمة في معنى هزل أو استهزاء، ونعوذ بالله من ذلك.. ([1])

نستخلص ممّا سبق هو أنّ الاقتباس مباح ما لم يكن فيه تجاوز لحدود التأدّب مع كلام الله تعالى وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم.. فإذا أُسيء فيه إليهما كان ذلك محظوراً ووجب تركه..غير أنّ الاقتباس الذي يزيّن الكلام ويزيده حسْناً ورونقاً وفصاحةً وبلاغةً وإبلاغاً للمقاصد بالاعتماد على نص القرآن أو الحديث، إنما هو ممّا يُحْتاج إليه لما فيه من طيّب الأثر وبُعْد النظر وإعمال الفكر..

ولقد أجازه **السيوطي** في الشعر كما ذكر في الإتقان عن بعض الأئمة منهم أبو القاسم **الرافعي** إذْ قال: ([2])[من الكامل]

المُلْـــك لله الذي عنت الوجو ** ه لــــه وذلّتْ عنده الأربابُ

متفرّد بالمُلْك والسلطان قــــد ** خسر الذين تجاذبوه وخابُـــوا

دعهم وزْعْم المُلْك يوم غرورهم ** فسيعلمون غـــداً مَن الكذّابُ

حقيقة الاقتبـــاس والحكمـــة منه:

والحقّ أنّنا لا نَعُـــدّ من الاقتباس ما أُخذ برمته من القرآن والحديث، من غير أن يكون مقروناً بما سواه من الكلام لفظاً ومعنى. فإذا وردت الآية منفردة، وكذلك الحديث، لم يعُدْ ثمة اقتباس، لأنّه لا وجود لكلام آخر

---

[1] ينظر: نفحات من علوم القرآن لمحمد أحمد معبد..ط/ دار السلام. ١٩٩٦م.ص٦٦

[2] المرجع ننفسه: ص٦٧

معهما. ذلك أنّ الحكمة من الاقتباس هي أن يستعين المقتبِس بألفاظ القرآن أو الحديث وبمعانيهما لبلوغ مقاصده التي لا يكون بلوغها إلاّ بهما ؛ أو لتحسين كلامه وإضفاء طابع البلاغة والفصاحة عليه، بحيث لا يرى ذلك متحققاً إلاّ باللجوء إليهما.

وقد يُلجأ إلى الاقتباس لتضمّنه بعض الآثار والحكَم والمعاني التي لا توجد في غير القرآن أو الحديث، سواْ أكان ذلك متعلّقاً بما تضمّنه القصص القرآني، أو بما اشتمل عليه من المواعظ والتوجيهات.

الاقتباس في الأساليب والصور الفنية: (الاقتباس الفنّي):

قد يكون الاقتباس أيضاً في الأساليب الفنية والصور البيانية والمحسنات البديعية. ومن أمثلة ذلك الاقتباس من تشبيهات القرآن، كما في قول **ابن طباطبا**: [من البسيط]

وليلة مثل أمر الساعة اشتبهتْ ** حتّى تقضّتْ و لم نشعر بها قِصَرا

فهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿ لَلّه غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النحل/٧٧].

ومن أبدع هذا النوع من الاقتباس ما قاله الشاعر **أبو تمام** في مدح **المعتصم** في قصيدته السينية التي بدأها بقوله: [من الكامل]

ما في وقوفك ساعةٌ من باس ** تقضي ذمام الأربع الأدراس

إلى أن قال فيها واصفاً إقدام **المعتصم** وسماحته وحِلْمه وذكاءه:

إقدام عمرٍو في سماحة حاتم ** في حِلْم أحنف في ذكاء إياس

فقال له بعض الحاضرين ممن كان يحسده: " الأمير فوق ما ذكرْتَ، أي أنّ الشاعر قد شبّه الخليفة بمن هم أقلّ منه، فردّ **أبو تمام** عليهم مرتجلاً على منوال قوله الأول:

لا تنكروا ضربي له مَنْ دونه ** مثلاً شروداً في النّدى والباس

فالله قد ضرب الأقلّ لنوره ** مثلاً من المشكاة والنبراس

لقد اقتبس **أبو تمام** كلامه في البيت الأخير، ولا سيما في عجُزه، من قوله تعالى في سورة النور: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور/٣٥].

وقد كان من عادة العرب أن تشبّه الأدنى بالأعلى، أي أنّ من سننهم أنّ المشبه به يكون دائماً هو النموذج الذي يقرَّب منه المشبه بأساليب التشبيه على تنوعها. فإن حدث العكس عدّوه من التشبيه المقلوب؛ وهذا يعني أنه ليس على أصله. أي أنّ طرفي التشبيه يحل أحدهما محل الآخر. وهذا على غير المعهود.

وقد جاء اقتباس **أبي تمام** ههنا من هذا القبيل، لكنه استحضر في ذلك حجّة قوية، واستند إلى نموذج أعلى في التعبير وهو الأسلوب القرآني،

فكان اقتباسه هذا من أجمل ما قيل في اقتباس الشعر من القرآن الكريم. ولولا هذا النموذج القرآني لما حاز اقتباسه هذه الدرجة من البلاغة والبيان.

أنواع الاقتباس:

يمكن أن نجعل الاقتباس ثلاثة أنواع: اقتباس النثر من القرآن أو الحديث؛ واقتباس الشعر من القرآن أو الحديث، وهذا من جهة اللفظ والمعنى، أمّا النوع الثالث فهو الاقتباس الإيقاعي من القرآن. وفيما يأتي تفصيل ذلك:

أولاً: اقتباس النثر من القرآن أو الحديث:

هو أن يكون في الكلام المنثور ألفاظ أو عبارات من القرآن الكريم أو من الحديث الشريف لغرض توضيحه وتقريبه إلى الفهم، أو التعبير عن معنى مقصود يكون النص المقتبس موصلاً إليه. بشرط أن لا يكون منه.

ومن أمثلة هذا النوع ([1]) قول **الحريري**: " أنا أنبئكم بتأويله وأميز صحيح القول من عليله". فهذا مقتبس من قوله تعالى على لسان الذي نجا من صاحبي **يوسف** في السجن: ﴿ أنا أنبّئكم بتأويله فأرسلون ﴾ [يوسف/ ٤٥] وقول **ابن نباتة** الخطيب: "فيا أيها الغفَلة المطرقون، أما أنتم بهذا الحديث مصدّقون مالكم لا تشفقون، فورب السماء والأرض إنه لحقّ مثلما أنكم تنطقون.". فهذا مقتبس من قوله تعالى: ﴿ وَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات/٢٣] وقوله أيضاً من خطبة أخرى ذكر فيها القيامة: " هناك يرفع الحجاب ويوضع الكتاب

---

[1] ينظر الإيضاح للقزويني: ٣٨١ وما بعدها.

ويجمع من وجب له الثواب، وحق عليه العقاب، فيضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب." فهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحديد/١٣] وقول **القاضي الفاضل** وقد ذكر الإفرنج: " وغضبوا زادهم الله غضباً، وأوقدوا ناراً للحرب جعلهم الله لها حطباً." وهو مقتبس من قوله تعالى:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة/٦٤]

ومن اقتباس النثر المردود قول أحد بني مروان وقد وقّع على شكوى من عمّاله قائلاً: (إنّ إلينا إيّابهم ثمّ إنّ علينا حسابهم) لأنّ ما ورد في هذا النص كلّه من القرآن، وليس فيه غير القرآن. فقد قال تعالى: ﴿إنّ إلينا إيّابهم ثمّ إنّ علينا حسابهم ﴾ [الغاشية/٢٥ – ٢٦] كما أنّ الإياب إلى الله، وأنه هو الذي يحاسب، فهو أمر يختص به الله وحده لا يشاركه فيه أحد، وقد نسبه الموقّع هنا إلى نفسه، فكان من الاقتباس المردود.

ولا شكّ أنّ قصد المتكلم بمثل هذا ليس الإتيان بكلام مثل كلام الله، وأنه ينسب إلى نفسه ما نسبه الله إلى نفسه.. وإنما يريد أن يبلغ أمراً

يجول بخاطره، فلم يجد ما يستجيب لما في نفسه غير ما في النص القرآني، فأورده من دون تغيير ولا تبديل. إذْ بدا له أنه لو غيّر أو بدّل في النص المقتَبَس لما وجد في توقيعه هذا ما يعبّر عمّا في نفسه.

وعلى هذا فوجه الرّدّ لهذا الاقتباس إنما هو من جهة الاحتراز من نسبة كلام الله إلى البشر، ومن جهة توهّم تسويته به، أو اعتقاد ذلك ممّن لا يدرك أسراره. وإن كان قصد المتكلّم ونيّته هما المرجع في ذلك..

ثانياً: اقتباس الشعر من القرآن أو الحديث:

اقتباس الشعر من القرآن هو أن يكون في الشعر ألفاظ وعبارات من القرآن الكريم أو الحديث الشريف. ويكون ذلك في سياق معيّن، لغرض التعبير عن معنى مقصود، بحيث يكون اللفظ المقتبس قريباً من السياق الجديد، موافقاً له في المعنى..وأمثلة اقتباس الشعر من القرآن كثيرة، منها قول الشاعر: [من الرجز]

أبشر بقول الله في آياته ** إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف

و قول آخر: [من المتقارب]

وما حسن بيت له زخرف ** تراه إذا زُلزلتْ لم يكن

واشترط بعض البلاغيين عدم الإكثار من التغيير في النصّ المقتبس إلى درجة إبعاده عن نص القرآن أو الحديث، وعدُّوا ذلك من الاقتباس المردود، و مثاله قول الشّاعر : [البسيط]

هذي عصاي التي فيها مآرب لي ** وقد أهشّ بها طورا على غنمي

فقد غيّر الشاعر من نصّ الآية بزيادة كلمات أخرى عليها. وكلّما كثر التغيير ابتعد النصّ عن كونه اقتباسا.

وقد عدّ بعض البلاغيّين الاقتباس تضمينا، وعرّفوه بأنّه الأخذ من كلام الغير لتأكيد المعنى على أن يكون هذا الأخذ كثيرا فإن قلّ فهو من الإبداع. ولم يشترطوا أن يكون من القرآن والحديث.

وقد أورد **القزويني** [١] عدة أمثلة عن اقتباس الشعر من القرآن، نذكر منها قول **الأبيوردي**: [من الكامل]

وقصائد مثل الرياض أضعتها ** في باخل ضاعت به الأحساب

فإذا تناشدها الرواة وأبصروا الـ ** ـممدوح قالوا ساحر كذاب

فعجُز البيت الثاني مقتبس من قوله تعالى: ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص/٤]

وقول آخـر: [من الرمل]

لا تعاشر معشرا ضلوا الهدى ** فسواء أقبلوا أو أدبروا

بدت البغضاء من أفواههم ** والذي يخفون منها أكبر

فعجُز البيت الثاني هنا كذلك مقتبس من قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران/١١٨]

---

(١) ينظر الإيضاح للقزويني: ص٣٨١ - ٣٨٣

وقول آخر: [من السريع]

إن كنت أزمعت على هجرنا ** من غير ما جرم فصبر جميل

وإن تبدّلْت بنا غيرنا ** فحسبنا الله ونعم الوكيل

فقد اقتبس آخر العجُز في البيت الأول من قوله تعالى:﴿ وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف/١٨] وقوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف/٨٣]

وكذلك اُقتُبس عجُز البيت الثاني من قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران/١٧٣].

ومن الاقتباس من الحديث، قول **القاضي الهرويّ**: [من الطويل]

فلو كانت الأخلاق تُحْوَى وراثةً ** ولو كانت الآراء لا تتشعّبُ

لأصبح كلّ الناس قد ضمّهم هوًى ** كما أنّ كلّ الناس قد ضمّهمْ أبُ

ولكنّها الأقدار، كلٌّ مُيَسَّرٌ ** لما هو مخلوقٌ له ومُقَرّبُ

فالبيت الثالث قد اقتبسه الشاعر من حديث الرسول ﷺ: " اعملوا، كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له." وهو ممّا أخرجه **البُخاري** (١)

---

(١) يُنظر: الإشارات والتنبيهات: ص٢٨٨

ثالثاً: الاقتباس الإيقاعي من القرآن:

يكون الاقتباس الإيقاعي بأخذ ما يوافق أوزان الشعر وبحوره من آيات القرآن الكريم. وهو يدخل ضمن اقتباس الشعر من القرآن. ومثاله قول **ابن الرومي** ([1]):[من الهزج]

لئن أخطأتُ في مدْحك ** كما أخطأتَ في منْعي

فقد أنْزلتُ حاجاتي ** بوادٍ غيْر ذي زرْع

فقد اقتبس الشاعر عجُز بيته الثاني من قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي **بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ** عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم/٣٧].

وفي هذا النموذج نجد نوعيْن من الاقتباس: الاقتباس اللفظي والمعنوي المعهود، الذي يدخل في إطار اقتباس الشعر من القرآن.. ونجد معه اقتباساً آخر يتعلّق بالوزن والإيقاع، سميناه: " الاقتباس الإيقاعي." ويتجلّى ذلك في اقتباس وزن الهزج وإيقاعه في عجُز البيت الثاني من الإيقاع القرآني.

---

[1] ورد هذان البيتان، والأبيات الثلاثة التي تليهما لعمر الخيام في كتاب: الإشارات والتنبيهات ص٢٨٨. ولكنّه ذكر هذه الشواهد في معرض كلامه عن الاقتباس عموماً، من غير أن يتكلّم عن جانب الإيقاع فيه، مما سمّيناه: الاقتباس الإيقاعي. كما أنّنا لم نجد أحداً من أهل هذا الفنّ ذكر هذا النوع من الاقتباس في الإيقاع..

فتفعيلات بحر الهزج هي (مفاعيلن مفاعيلن) في كل شطر . وهو الوزن نفسه الذي نجده في الجزء المقتبَس منه في الآية الكريمة.

ومن هذا القبيل أيضاً قول الشاعر **عمر الخيام**: [من الوافر]

سبقتُ العالمين إلى المعالي ** بصائب فكرة وعلوّ همّهْ

ولاح بحكمتي نور الهُدى في ** ليالٍ للضلالة مدلهمّهْ

يريد الجاهلون ليطفئوه ** ويأبَى الله إلاّ أنْ يُتمَّهْ

فعجُز البيت الأخير مقتبَس لفظياً ومعنوياً، وكذلك عروضياً وإيقاعياً من قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة/٣٢] ([1]) فقد استبدل الشاعر الاسمَ الظاهر (المفعول به: نورَه) بالضمير ليأتي ذلك عروضياً على إيقاع وزن الوافر، وتفعيلاته هي: (مفاعلتن مفاعلتن فعولن) في كل شطر؛ وذلك بفتْح اللاّم من (مفاعلتن) أو بتسكينها .

والأمثلة من هذا القبيل كثيرة، حيث نجد الشعراء يقتبسون - زيادةً على اللفظ والمعنى - إيقاعات القرآن الكريم لإيراد أشعارهم في معرض موسيقي بديع، إذْ يستعينون بالإيقاع القرآني إلى جانب استعانتهم بلفظه

([1]) وردت هذه الآية في كتاب الإشارات والتنبيهات بلفظ: (ليطفئوا) (هامش ص٢٨٨) ولكنّ الصواب هو: (أن يطفئوا). ولعل ذلك كان سهواً من المؤلف أو المحقق، لما يوجد من تشابه بين آية التوبة هذه وآية الصف في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف/٨].

ومعناه. وفي هذا النوع من الاقتباس ارتقاء بوزن الشعر العربيّ وإيقاعه من خلال ربطه بنص القرآن الكريم وتقريبه منه إيقاعياً. كما أنه دليل على تأثّر الشعر العربي بالقرآن الكريم في لغته وأسلوبه ومعانيه وحتى في إيقاعه..

وكثيراً ما يكون هذا النوع من الاقتباس تدبيجاً في ختام ما يُختار من الشعر، ولعلّ ذلك أمْر مقصود من الشعراء لضمان حُسْن الخروج، ومنه ضمان جودة التعبير وبلاغة القول. هذا، وإنّ والعبرة في الأمور بخواتيمها.

بين التضمين والاقتباس:

اعتبر أكثر البلاغيين الاقتباس نوعاً من التضمين، وفرّق آخرون بينهما. والصواب أنّ الفرق بينهما جليّ، وعلى هذا فلا يمكن أن يجمع بينهما إلاّ من جهة التجوز في المعنى اللغوي. أمّا في الاصطلاح فهما متغايران، إذ إنّ التضمين مجاله الشعر والنثر منهما وإليهما ؛ أمّا الاقتباس فمجاله القرآن والحديث، بحيث يكون منهما إلى النثر والشعر.

كما التضمين متصل بالشعر من جهة أخذ المعنى منه أو من جهة وزنه وقافيته..أمّا الاقتباس فهو متصل بالقرآن والحديث من حيث الأخذ من اللفظ والمعنى والإيقاع.

يختلف التضمين باختلاف مجاله الذي يكون فيه: فهو في البلاغة الأخذ من الشعر إلى الشعر ؛ وهو في اللغة والنحو استبدال كلمة بأخرى للتعبير عن معنى معيّن. أي أنّ ثمة تضميناً بلاغياً وآخر نحوياً أو لغوياً.

أما الاقتباس فهو مقصور عند أكثر البلاغيين على الأخذ من القرآن والحديث إلى النثر والشعر.

قد يكون الاقتباس نوعاً من التضمين، لكن العكس ليس كذلك. لأنّ المقتبِس يجعل كلامه يتضمن ألفاظاً أو عبارات من القرآن أو الحديث. وهذا قريب من مفهوم التضمين الذي ذكرناه.. وعلى هذا يمكن القول إنّ كلّ اقتباس تضمين، وليس كلّ تضمين اقتباساً.

التضمين أوسع من الاقتباس من حيث المعنى والمفهوم . على الرغم من وجود تداخل بينهما ، إذْ يُفهَم أحدهما من الآخر . فالتضمين أعمّ والاقتباس أخص منه.

الملاحظ على تعريفات البلاغيين للاقتباس عموماً ، أن الاقتباس فيها جاء بمعنى التضمين ؛ ولاشكّ أنّ هذا التداخل بينهما لديهم مردُّه إلى كونهم أرادوا بالتضمين معناه اللغوي ، وفسّروا به معنى الاقتباس في الاصطلاح. لأنّ مفهوم التضمين في الاصطلاح عندهم شيء آخر يتعلّق بالشعر، كما بيّنّا فيما سبق.

ولا يمكن الخروج من هذا الإشكال، في نظرنا، إلاّ بالفصل بين التضمين والاقتباس في الاصطلاح، لنقول: إنّ التضمين هو الأخذ من الشعر إلى الشعر، أو من النثر إلى النثر، أو من أحدهما إلى الآخر؛ غير أنّ مجاله الغالب هو الشعر، وما فيه من النثر إلاّ قليل.

أمّا الاقتباس فهو الأخذ من القرآن أو الحديث إلى النثر أو الشعر، على أن يكون هذا الأخذ لغرض الارتقاء بأسلوب النثر أو الشعر من غير الخروج عن حدود الأخذ التي تجعل الاقتباس أمراً مردوداً.

وعلى هذا وجب أن يكون الاقتباس باستعمال بعضٍ من القرآن الكريم أو الحديث الشريف في حدود مقبولة من غيْر تجاوز ، فلا يُستعمَل النص منهما برمّته ، لأنّ ذلك يُعَدّ من النقل لا من الاقتباس ؛ وكذلك لا يجوز استعمال القرآن والحديث فيما لا يليق بما لهما من القدسية والتنزيه.

*****

الخاتمة والنتائج

لقد عملنا من خلال هذا الكتاب على تناول موضوعات البلاغة العربية تناولاً فنّياً لا يقف عند حدود التعريفات والتحديدات المنطقية، وإنما يتجاوزها إلى إبراز مواطن البلاغة والفصاحة في مختلف الأشكال التعبيرية، وذلك من خلال مراعاة الذوق الأدبي والتقدير الفنّي النابع من الإحساس بما تحمله هذه التراكيب والأشكال التعبيرية بمختلف أنماطها الأسلوبية من صور جمالية يتجلى فيها الإبداع الخلاّق الذي تجود به القرائح وتنتجه المخيلات. ولكنّنا، مع ذلك، لم نغفل ما هو ضروريّ من هذه التقسيمات، حرصا منّا على مراعاة الجانب المنهجي التنظيمي، بغية تسهيل المهمة للقارئ في تناوله لموضوعات الكتاب على اختلافها وتنوعها.

هذا، ونشير إلى إنّ أحسن مظهر تتجلى فيه بلاغة العربية وفصاحتها هو تلك النماذج البيانية الراقية التي يمدّنا بها القرآن الكريم في كلّ آياته التي تنفرد بفنون من التعبير متميزة بإعجازها، وأشكال من الخطاب تبهر الناظر المتأمل في انسجام صدورها وأعجازها وتناسق ألفاظها وعباراتها..

وعلى اعتبار أنّ البلاغة أشمل علوم العربية وأجملها، فهي تتضمن هذه العلومَ في كل جانب منها. إذْ تشترك جميعها في رسم إطار لغويّ وأدبيّ وفنّيّ للكلام يجمع بين سلامة العبارة وجودة الصياغة وفنّ الاختيار وبراعة الإشارة.

إنّ الفن البلاغي يتصل بالخيالات الواسعة التي لا تخضع للتقنينات ولا تحدّها التقسيمات إلاّ بقدر ما تحافظ على أصولها التي تمتدّ إليها ومنابعها التي تنهل

منها. ولكنّ ذلك لا ينبغي أن يقف عائقاً أمامها يعرقل مسيرها نحو الارتقاء الفكريّ والإبداع الفنّيّ الخلاّق.

هكذا يجب أن تكون نظرتنا إلى البلاغة مبنيــة على تجاوز الحدود والقوانين المصنوعة، منطلقة في آفاق اللغة المطبوعة.. لنسير على طريق البحث في الأسرار الفنية واستكشاف المزايا الجمالية للغة العربية من خلال علومها المتعددة ومظاهرها الإبداعية غير المتناهية، خصوصاً إذا تعلّق الأمر بالخطاب القرآني وما ينطوي هليه من الأسرار والمزايا البيانية..

هذا، وإنّ الدرس البلاغي لم يستقرّ على قدر من الضبط والتنظيم كاستقراره عند **السكاكي** في مفتاحه - على الرغم من كل ما سُجّلَ على منهجه من المآخذ - إذْ تمكّن من ضبط موضوعاته ووضع حدوده تمكّناً لم يتحقق لغيره فيه، لم يتحقق له في غيره من العلوم التي شملها المفتاح..

إنّ البلاغة العربية قد استمدّتْ طابعها الفنّي- منذ بداية نشأتها - من تلك الروافد الأدبية الفنية المتعددة كقصائد الشعراء وفرائد الخطباء، وما أنتجته مجالس أهل هذا الفنّ، إلى جانب جهود علماء اللغة والنحو والعلوم الشرعية وغيرها.. وهذا ما جعل البلاغة تلتقي مع سائر علوم العربية في علاقة تكاملية واتصال طبيعي لا سبيل إلى إغفاله، بل إنّ البلاغة لتتسع الآن لتشمل كل هذه الفنون والعلوم التي استمدتْ منها وجودها أول الأمر.

والعجيب أنّ البلاغة العربية لم تعرف - منذ عهد **السكاكي**- محاولة جديدة لتقسيم آخر، فبقيت على ذلك التقسيم الذي أقــرّه وتبعه فيه مَن جاء بعده إلى يوم الناس هذا..

ممّا يؤاخذ عليه **السكاكي** في منهجه كثرة التقسيمات والتفريعات التي أفقدت البلاغة قيمتها الفنية وطبيعتها الجمالية في بعض الأحيان. غير أنّ ذلك الإطار العام الذي وضعه صاحب المفتاح بتحديد فروع البلاغة (معان وبيان وبديع) يمكن النظر إليه منهجياً على أنه إطار تعليميّ منظم يُسْهم في تسهيل دراسة الموضوعات البلاغية، ولعلّ هذا كان من الأسباب التي رسّختْه.. غيْر أنّ هذا الإطار التنظيمي لا ينبغي أن يحول دون الغوص في أسرار الكلام العربي واستجلاء مكنوناته الفنـــية.

ومما أُخذ على تقسيم **السكاكي** أيضاً وقوعه في بعض التكرار- على مستوى مباحث علم المعاني – إذْ جعل هذه المباحث تدور حول محور المسند والمسند إليه، فهو يتكلم، مثلاً، عن تقديم المسند، وتنكيره، وحذفه. ثم يتكلم عن تقديم المسند إليه، وتنكيره، وحذفه.، وهكذا... فإذا بموضوعات التقديم والتنكير والحذف تتكرر لديه عدة مرات.

ولتحاشي هذا النوع من التكرار يُستحسَن أن تكون هذه الموضوعات هي المحور الذي يدور عليه الكلام عن أحوال المسند والمسند إليه. فلا يُذكَر موضوع التقديم إلاّ مرة واحدة تشمل تقديم المسند والمسند إليه وغيرهما؛ ولا يُذكَر موضوع التنكير إلاّ مرة واحدة تشمل تنكير المسند والمسند إليه وغيرهما؛ وكذلك الشأن في الحذف وفي غيره من الموضوعات الأخرى.

وهذا هو المنهج الذي سلكناه في كتابنا هذا.. غير أننا لا ننكر حتمية الوقوع في نوع آخر من التكرار للمسند والمسند إليه بدلاً من تكرار الموضوعات

الأخرى، فهو إذاً تكرار لا بدّ منه، لكنه لا يؤدّي إلى تشتيت مباحث المعاني وتفريق موضوعاها كالذي نجده في التقسيم السائد.

ينبغي التركيز على مراعاة الطابع الفنّي في دراسة الموضوعات البلاغية وتحليلها، سواء أكان ذلك في المعاني أم البيان أم البديع. دون الإفراط في الالتزام بكثرة التقسيمات والتفريعات على مستوى كل فرع إلاّ ما كان ضرورياً.

لقد آثرنا أن نُطلق على موضوعات البلاغة مصطلح (فنون) بدلاً من مصطلح (علوم) لاعتقادنا أنّ للبلاغة شقّيْن: شقاً علمياً يتمثل في الإلمام بمسائلها وقضاياها المنهجية وأقسامها وفروعها ؛ وشقاً فنّياً يتمثل في الغوص في أسرار فنون القول وأساليب التعبير الراقية. فهي، على هذا، ليست مجرد علْم يتمّ تحصيله أو حفظه وضبطه، وإنما هي متصلة كذلك بألوان الإبداع في أشكال التخاطب وفنونه التي لا يمكن حصرها حصراً علمياً منطقيا إلاّ في حدود معينة تتعلق بمنهج الدراسة والبحث في هذه الفنون.

يُلاحَظ وجود اختلافات بين العلماء والباحثين في دراسة بعض الظواهر والقضايا البلاغية. وكذلك في تصنيف بعض الموضوعات وترتيبها. وعلى هذا وجب على الدارس أن يطّلع على جهود البلاغيين في هذا الشأن قبل أن يكون له حُكْم على ما قدّموه، وعلى المنهج الذي سلكوه.

هذه بعض النتائج أوردناها مجملة، والمتتبع للكتاب سيجد غيرها من النتائج المفصلة في أبواها.. وختاماً، نسأل الله أن ينفع بهذا العمل.

وبـالله التوفيق والتيسير **ومنـه** العون والتدبير **وعليـه** توكلنا **وإليـه** المصير.

المؤلف: د/ عبد العليم بوفاتح

أهم المصادر والمراجع المعتمدة

* **القـــرآن الكريـــم**

* **الباقلانـــي**: (**القاضي أبو بكر محمد بن الطيب**): إعجاز القـــرآن شـــرح وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي:ط/دار الجيل (١٩٩١)

* **الجاحظ** (**عمرو بن بحر**): البيان والتبيين – تحقيق عبد السلام هارون – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

* **الجرجاني**: (**عبد القاهر**):

– دلائل لإعجـــاز في علم المعانـــي – عناية الدكتور ياسين الأيوبي – لمكتبـــة العصرية ـــ بيروت – لبنان) ط١ (١٤٢١هـــ / ٢٠٠٠م)

– أسرار البلاغة: تحقيق محمد الفاضلي – المكتبة العصرية – صـــيدا بـــيروت – لبنان/ ط٢ (١٤٢٠هـــ/ ١٩٩٩م)

* **الجرجاني** (**محمد بن علي بن محمد**): الإشارات والتنبيهات – تحقيق الدكتور عبد القادر حسين – مكتبة الآداب – القاهرة (١٤١٨هـــ/١٩٩٧م)

* **الجرجاني** (**الشريف**): التعريفات – دار الكُتُب العلمية – بيروت لبنان.

* **ابن جني** (**أبو الفتح عثمان**): الخصائص – بتحقيق محمد علي النجار – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان

* **حمدي أبو علي** (**د/ محمد بركات**): البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق: دار وائل للنشر والتوزيع: عمان-الأردن : ط١/ ٢٠٠٣ .

* **الحمصي**: (**د/ محمد طاهر**): مباحث في علم المعاني: – منـــشورات جامعـــة البعث – دمشق: ١٩٩٢م.

* **حمودة:(د/سعد سليمان)**:البلاغة العربية:دار المعرفة الجامعية– مصر(١٩٩٦م)

* **راضي: د/ عبد الحكيم محمد)**: من آفاق الفكر البلاغي عند العرب– مكتبة الآداب – القاهرة /ط١ (٢٠٠٦م)

* **أبو الرضا(د/ سعد)**: في البنية والدلالة: طبع منشأة المعارف – الإسكندرية (١٩٨٧م).

* **الزركشي: (بدر الدين)**:البرهان في علوم القرآن: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: مطبعة عيسى البابي لحلبي/مصر / ط٢ (١٩٧٢).

* **السبكي: (بهاء الدين)**: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي – المكتبة العصرية : صيدا- بيروت- لبنان.

***السكاكي: (أبو يعقوب يوسف بن محمد)**: مفتاح العلوم – ضبط نعيم زرزور– دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان (١٩٨٧م)

* **سيبويه: (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)**: الكتاب: تحقيق: عبد السلام محمد هارون – ط/ دار الجيل بيروت .

* **السيوطي: (جلال الدين)**:

- همع الهوامع : دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ج١ / ط١ (١٩٩٨م)

- الإتقان في علوم القرآن عالم الكتب بيروت – لبنان.

* **شيخ أمين (د/ بكري)**: البلاغة العربية في ثوبها الجديد - دار العلم للملايين- بيروت – لبنان/ ط ٦ (١٩٩٩م)

* **طبانة: (د/ بدوي)**: معجم البلاغة العربية – منشورات جامعة طرابلس – كلية التربية- (١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م)

* **طبل (د/ حسن)**: المعنى في البلاغة العربية ، دار الفكر العربي/ط١ (١٩٩٨).
* **العباسي: (عبد الرحيم بن أحمد)**: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: (ت ٩٦٣هـــ) تح: محمد محيي الدين عبد الحميد/ ط: عالم الكتب – بيروت– لبنان (١٣٦٧هـــ/١٩٤٧م)
* **عبد العليم (بوفاتح)**:
- دراسات في اللغة: دار كليوباترا للنشر والتوزيع – القاهرة – مصر / الطبعـــة الأولى (١٤٢٩هـــ/٢٠٠٨م).
* **عبد المطلب: (د/ محمد)**: البلاغة والأسلوبية – ط/ مكتبة لبنان– ناشرون.
* **العسكري: (أبو هلال)**:كتاب الصناعيين (الكتابة والشعر) تحقيق وضبط: د/ مفيـــد قميحـــة – دار الكتـــب العلميـــة – بـــيروت – لبنـــان: (١٤٠٩هـــ/١٩٨٩م.)
* **عتيق:(د/ عبد العزيز)**: في البلاغة العربية: علم المعـــاني: دار النهضة العربية– بيروت – لبنان (١٩٧٤م)
* **عيد: (د/ رجاء)**: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطـــور: منـــشأة المعـــارف بالإسكندرية/ ط ٢
* **القزويني: (جلال الدين)** الإيضاح في علوم البلاغة: تقديم وشرح وتبويـــب: الدكتور علي أبو ملحم– دار مكتبة الهلال- بيروت - لبنان (١٩٩١م).
* **المبارك: (د/ مازن)**:
- مقالات في العربية: دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق - الطبعـــة الأولى (١٩٩٩م)

- الموجز في تاريخ البلاغة: ط/دار الفكر – دمشق (١٤٢٥هــ/٢٠٠٤م)

* **المتنبـــي**: (**أبو الطيب أحمد بن الحسين**): ديوان المتنـــــبي – دار بـــيروت للطباعة والنشر (١٤٠٠هــ/ ١٩٨٠م)

* **المراغي** (**أحمد مصطفى**): علوم البلاغة – دار القلم – بيوت – لبنان.

* **مطلوب**: (**د/ أحمد**):

- أساليب بلاغية – وكالة المطبوعات– الكويت/ط١ (١٩٨٠م)

- البلاغـــة عند السكاكي: منشورات جامعة طرابلس – كلية التربية – ط١/ (١٣٩٥هــ – ١٩٧٥م)

- معجم المصطلحات البلاغية وتطـــورها- مكتبة: لبنان ناشـــرون – بيروت – لبنان / ط٢ (١٩٩٦م).

* **معبد**: (**محمد أحمد**): نفحات من علوم القرآن..ط/ دار السلام. (١٩٩٦م.)

* **الهاشمي**: (**السيد أحمد**): جواهر البلاغة– دار الفكر – بيروت / طبعة مجددة (١٤٢١هــ/ ٢٠٠٠م)

فهرس الموضوعات

فهـرس الموضوعـات